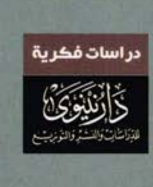


إلهام فندقجي

العُمْق الإنْسَانيّ

التواصل.. العشق.. التطوّر

ترجمة: هفال دقماق



العُمْق الإنْسَانيّ

التواصل.. العشق.. التطوّر

أشعر بسعادة غامرة وأنا أكتب مقدمة الطبعة العربية لكتابنا من أجل قُرّاء منطقة عريقة التاريخ، بعد طبعه باللغات التركية والألمانية والإنكليزية والروسية. أهلا بكم في رحلتنا مع العمق الإنساني.

الغاية الرئيسية لهذا الكتاب هي مساعدة الإنسان المعاصر على معرفة وفهم نفسه. ولهذا سَعَينا إلى تحديد ووصف ضياع القيم الإنسانية الحاصل على صعيد الفرد والمجتمع والعمق الإنساني الذي بدأنا نفقده، من خلال أمثلة من الحياة اليومية والسلوكيات. غايتنا الثانية هي مناقشة نماذج الأحاسيس والأفكار والتصرفات الرئيسية التي من شأنها الحيلولة دون ضياع القيم المخالف لطبيعة الإنسان.

فالمشكلة الرئيسية للإنسان المعاصر أينما كان في العالم هي التراجع على الصعيد «الإنساني»، إلى درجة أن السلام الداخلي لدينا تزعزع بشكل مطرد. تزايدت بيننا أعداد مَن يقفون في الزحام وحيدين، ووسط الضجيج صامتين. نبتعد بسرعة عن القيم الإنسانية. يقوّض الضغط النفسي قدرتنا على الانسجام. تضخمت المادة إلى حد إرخاء ظلالها على المعنى. أصبحت الحياة الفردية وتعاظم الأنانية مشكلة رئيسية للإنسان المعاصر.

المؤلف





العُمْق الإنْسَانيّ

التواصل - العشق - التطوّر

عنوان الكتـــاب: **العُمَق الإنسَانيّ**
التواصل - العشق - التطوّر
اســم المؤلــف: **إلهامي فندقجي**
اســم المترجــم: **هفال دقماق**
الموضــــوع: **دراسات فكرية**
عدد الصفحات: **260 ص**
القيـــاس: **14.5 × 21.5 سم**
الطبعـة الأولى: **1000 / كانون الثاني 2022 م - 1443 هـ**
ISBN: 978-9933-38-370-1

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ninawa house
ninawa_publishing_house

@House Ninawa

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

إلهامي فندقجي

العُمْق الإنْسَـــانيّ

التـواصل - العشـق - التطوّر

مكتبة | 1198

ترجمة: هفال دقماق

Dr. İlhami Findikçi
Insani Derinlik

الدكتور إلهامي فندقجي

(أرضروم – ١٩٦٨). تخرج من قسم الاستشارة النفسيّة في كلية الآداب بجامعة إسطنبول (١٩٨٨). أنهى دراساته العليا في قسم علوم السلوك بكليّة إدارة الأعمال- جامعة إسطنبول (أنماط الشخصية ٢٠٠٠)، وأطروحة الدكتوراه (القيادة في مجتمع المعلومات – ٢٠٠٤) في قسم علوم السلوك بكليّة إدارة الأعمال في جامعة إسطنبول. حصل على منحة دراسية في جامعة هرتفوردشير (لندن)، حيث أتم بحوث ما بعد الدكتوراه (الشركات العائليّة والثقافة التنظيمية - ٢٠٠٥)

كتبه المطبوعة

١- الخروف الأبيض ذو القرون (١٩٨٨)، ٢- القيادة وتطوير الذات في مجتمع المعلومات (١٩٩٦)، ٣- إدارة الموارد البشرية (١٩٩٩) (الطبعة التاسعة)، ٤- التعليم مدى الحياة (٢٠٠٤)، ٥- الشركات العائلية (٢٠٠٥) (الطبعة السادسة)، ٦- رحلة قلب: القيادة الخادمة (٢٠٠٩) (الطبعة الثالثة)، ٧- العمق الإنساني (٢٠١٠) (الطبعة السادسة)، ٨- Was Uns Bleibt, Ist Was Wir Geben (٢٠١٣ - ألمانيا)، ٩- الجيل الجديد قادم- دروس من الشركات العائلية (٢٠١٤)، ١٠- إلهام العشق (٢٠١٥)، ١١- رحلة إلى الجمال (٢٠١٦) (الطبعة السابعة)، ١٢- دراسة حول تصور سكان إسطنبول للسعادة ومستوى الشعور بالارتياح (٢٠١٧)، ١٣- تحفتان نادرتان (٢٠١٨)، ١٤- The Profundity Of Humanity (٢٠١٨ – الولايات المتحدة)، ١٥- Глубины Человеческой Души (2022-Rusya).

نُشر كتاب «العمق الإنساني» في ألمانيا (باللغة الألمانية) وفي الولايات المتحدة (باللغة الإنكليزية)، أما النسخة الروسية فهي في مرحلة الطباعة.

(ifindikci@degerdanismanlik.com.tr) (ifindikci@gmail.com)
www.ilhamifindikci.com; twitter/ilhamifindikci_
instegram/ilhamifindikci; instagram / dr.ilhamifindikci
youtube/ilhamifindikci facebook /ilhamifindikci

إلى أمي ديلبر

وأبي زبيد فندقجي..

محتوى الكتاب

العُمْق الإنْسَانيّ
الطبعة العربيّة

مقدمة

أشعر بسعادةٍ غامرةٍ وأنا أكتب مقدمة الطبعة العربيّة لكتابنا من أجل قرّاء منطقة عريقة التاريخ، بعد طبعه باللغات التركيّة والألمانيّة والإنكليزيّة والروسيّة. أهلاً بكم في رحلتنا مع العمق الإنسانيّ.

الغاية الرئيسيّة لهذا الكتاب هي مساعدة الإنسان المعاصر على معرفة وفهم نفسه. ولهذا سعينا إلى تحديد ووصف ضياع القيم الإنسانيّة الحاصل على صعيد الفرد والمجتمع والعمق الإنسانيّ الذي بدأنا نفقده، من خلال أمثلةٍ من الحياة اليوميّة والسلوكيات. غايتنا الثانيّة هي مناقشة نماذج الأحاسيس والأفكار والتصرّفات الرئيسيّة التي من شأنها الحيلولة دون ضياع القيم المخالفة لطبيعة الإنسان.

فالمشكلة الرئيسيّة للإنسان المعاصر أينما كان في العالم هي التراجع على الصعيد «الإنسانيّ»، إلى درجة أنّ السلام الداخليّ لدينا تزعزع بشكلٍ مطّردٍ. تزايدت بيننا أعداد من يقفون في الزحام وحيدين،ووسط الضجيج صامتين. نبتعد بسرعة عن القيم الإنسانيّة. يقوّض الضغط النفسي قدرتنا على الانسجام. تضخّمت المادة إلى حدّ إرخاء ظلالها على المعنى. أصبحت الحياة الفرديّة وتعاظم الأنانيّة مشكلة رئيسيّة للإنسان المعاصر.

تَجْمَعُ المدن الكبرى وتدمج كلّ الناس وكلّ شيء، وتبتعد عن التحلّي بالروح بشكلٍ مطّردٍ، بينما يخيّم عليها التفاعل الافتراضيّ. لم تغيّر حياة المدن الكبرى بيئة الإنسان فحسب، بل أثّرت في الوقت نفسه على حياته الروحيّة

وأشواقه وفهمه للعدل والأخلاق، ورغبته بفعل الخير وحالته المعنويّة وحبّه ورغبته بالعيش، وعاطفة الرحمة، وبموجز العبارة كلّ القيم التي تجعل منه إنساناً. وهكذا نتّجه بسرعةٍ من جمال الحقيقة الشامل الذي لا غنى عنه ومن أسرارها وتنوّعها إلى العالم المصطنع والمبَهرَج للوسط الافتراضيّ.

نتيجة لكلّ ذلك، نبتعد عن أنفسنا وننعزل كلّما فقدنا عمقنا الإنسانيّ. تتشتّت مؤسسة الأسرة. نتّجه من الإنتاج إلى الاستهلاك ومن البناء إلى الهدم، ومن العطاء إلى الأخذ ومن التنوّع إلى التشابه ومن الاتّحاد إلى الانقسام والتفرّق، ومن المضمون والمعنى إلى المشهد والصورة. بدأنا نفقد المعنى والصوت واللون الحقيقي للحياة.

من المؤشرات على بدء فقداننا عمقنا الإنسانيّ على الأرض المشاكل النفسيّة على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، والانهيار الأخلاقيّ والتوتر والعنف والحروب والمجاعات والتسلّح، واختلال التوازن البيئيّ والناس المهجرين من ديارهم، ومن يعانون من اعتلال في الصحة الجسميّة وخصوصاً الروحيّة والتأثيرات اللااجتماعيّة للإعلام الاجتماعيّ.

جعلت كلّ هذه التطوّرات توجّهنا بشكل أكبر نحو حقيقتنا كبشر احتياجاً عاجلاً، أينما كنّا على وجه الأرض، ومهما كان عرقنا ومعتقدنا وقومنا.

اجتاح فيروس كوفيد-١٩ العالم بأسره بدءاً من مطلع عام ٢٠٢٠، ومعه رأينا أنّنا نعود إلى أنفسنا عندما تزول فجأةً ثرواتنا الماديّة. تساوت الإنسانيّة برمّتها مع تفشّي الفيروس وشعر كلّ فردٍ بالحاجة إلى مراجعة نفسه. ربّما يساعد كوفيد-١٩ على تخلّص الإنسانيّة من «أزمتها» والعودة إلى أصلها، ويشكّل فرصة من أجل الانطلاق في رحلة «عمق إنسانيّ» جديدة.

سعينا إلى تقديم مقترحاتٍ فكريّة وسلوكيّة رئيسيّة ضروريّة، من أجل حياةٍ سليمةٍ وسعيدةٍ ولكي نتمكّن من التغلّب على الانهيار في مجال العمق الإنسانيّ الذي تحدّثنا عنه. فإذا استطعنا محاربة فقدان القيم الإنسانيّة سيكون من الممكن تقليل الصراعات الدائرة في نفس الإنسان، وفي الأسرة والمؤسسة والمجتمع، وفيما بين المجتمعات. ولذلك يجب أن نتذكّر من جديد أنّنا بشر، وأن نواصل إنسانيّتنا بعزيمة، وأن نعيد وضع القيم الإنسانيّة في مركز جميع مجالات الحياة. ولهذا يتوجّب علينا بذل جهدٍ فعليٍّ من شأنه أن يجمعنا مع أسباب وجودنا الرئيسيّة كبشر.

يجب الكفاح في ثلاثة مجالاتٍ حياتيّة رئيسيّة من أجل التغلّب على الانهيار في العمق الإنسانيّ: العشق والتطوّر الشخصيّ والأسرة. ولهذا تناولنا في محتوى كتابنا هذه العناوين الرئيسيّة الثلاثة.

الخطوة الأولى لقطع شوطٍ على طريق العمق الإنسانيّ هي أولاً تحقيق السّلام في عالمنا الداخليّ وفهم أنفسنا ووضع الحبّ في مركز حياتنا من جديد.

الخطوة الثانية هي أن نوحّد قلبنا المفعم بالحبّ والعشق مع قدراتنا العقليّة للحفاظ على استمرار التغيّر والتطوّر الشخصيّ.

الخطوة الثالثة هي حماية الأسرة التي تتيح تكوين الشخصيّة والتنشئة الاجتماعيّة، وتشكّل حجر الأساس للمجتمع.

أوردنا الكثير من الحوادث النموذجيّة من الحياة اليوميّة والتجارب المعيشيّة من أجل فهم مواضيع الكتاب بشكلٍ أفضل. لجأنا إلى استخدام لغةٍ بسيطةٍ مع الاستفادة من المعطيات الأكاديميّة. أبدينا عناية بكلّ هذه التفاصيل في النصّ المترجم أيضاً.

بطبيعة الحال قد يكون لبعض الحوادث والتصريحات التي أوردناها كأمثلةٍ، خصوصيّة محلّيّة لكن يجب ألّا ننسى بأن الناس يعيشون تجارب حياتيّة متشابهة أينما كانوا على سطح الأرض.

طُبع كتابنا بعد طبعته الأولى ستّ مرّات وبيعت منه ٢٥ ألف نسخة. وعلى غرار ذلك، حظيَت الطبعات الألمانيّة والإنكليزيّة والروسيّة بإقبال مشابه. هذا ما شجّعنا على إعداد الطبعة العربيّة، التي نأمل أن تحظى بدورها باهتمام القارئ في البلدان العربيّة.

شكر

نشكر هفال دقماق، الذي ترجم كتابنا من التركيّة إلى العربيّة بعناية فائقة وبالمقارنة مع الطبعات الإنكليزيّة والألمانيّة والروسيّة، وكان على تواصل دائم معنا خلال عمليّة الترجمة.

نشكر محمد أغيراقجة وأمرة جان بتك (Akdem Ajans) وجميل حسين على إسهاماتهما الكبيرة من أجل نقل الكتاب إلى اللغة العربيّة وطبعه في دار نينوى للدراسات والنشر،كما نشكر دار نينوى التي نفّذت بعناية عمليّة النشر والتي أعدّت غلاف الكتاب. ونشكر أيضاً إيلكنور متة من شركة Değer للاستشارات، التي أشرفت على تنسيق عمليّة الطباعة من البداية إلى النهاية.

وآخر كلمة وشكر لكم أنتم أيّها الأعزاء القرّاء المشاركون معنا من كلّ أنحاء العالم في رحلتنا على طريق العمق الإنسانيّ. لا تستخفّوا بأنفسكم في رحلة العمق الإنسانيّ من فضلكم، لأنكم في الحقيقة كنزٌ متحرّك. ينبغي ألّا يمرّ هذا الكنز على مسرح الحياة مرور الكرام. لأنّه بإمكاننا أن نكون أصحاب الدور الرئيسيّ في حياتنا.

مع فائق الاحترام

د. إلهامي فندقجي

شباط/ فبراير ٢٠٢٢، إسطنبول

الأسرة

الأيدي الناطقة

لو أنّ محكمة أُقيمت، وصعدت أعضاء جسدكم إلى المنصّة. لو نطقت في البداية أقدامكم، ومن بعدها أيديكم وآذانكم ولسانكم، وأخيراً أعينكم وبقيّة أعضائكم، وتحدّثت عنكم. ولو انكشفت أفعالكم الواحد تلو الآخر. ماذا ستقول أعضاؤكم؟

«أنا مجرم»

وجد الشاب نفسه، بطريقةٍ ما، متّهماً أمام باب محكمة كبيرة. كان يرتجف من الانفعال. لأنّه لم يكن يدري ما هي التهم الموجّهة إليه.

زاد انفعاله المشوَّب بالخوف عندما ناداه حاجب المحكمة. دخل قاعة المحكمة الكبيرة. كان جميع أقاربه وأصدقائه وأصحابه تقريباً موجودين في القسم المخصّص للحضور. كيف سمع الجميع بالمحكمة؟ كان جميع من رآهم الشابّ وعرفهم في حياته حاضرين في الجلسة. كان هناك ثلاثة قضاةٍ يرتدون جبّات بيضاء ويجلسون في المنصّة المرتفعة الموجودة في الأمام. وذاك الرجل على الجانب الأيسر، لا بدّ أنّه المدّعي العام.

جلس الشاب على كرسيّ الاتّهام. في الحقيقة، كان يريد أن يصرخ ويسأل عن سبب وجوده هنا. لكن، وكأنّ صوته لم يكن يخرج من حنجرته. قال القاضي الجالس في الوسط: «تفضّل حضرة المدّعي العام».

المدّعي العام: «سيّدي، هذا الشابّ الجالس أمامكم على كرسيّ الاتهام مجرمٌ. إنه إنسانٌ يُلحق الأذى بنفسه وبالآخرين. هنالك شكاوى بحقّه».

القاضي: «لنستمع إلى الشكاوى».

المدّعي العام: «أودّ استدعاء المشتكين الآن لو سمحتم».

كان الشاب يتابع بذهولٍ ما يدور أمامه. أراد الحديث مجدداً. لكن لم يكن بمقدوره إسماع صوته للآخرين. أكثر ما كان يحزنه حال أمّه التي لم تكن قادرةً على كبت نشيجها بين الحاضرين.

أخذ المشتكون، الذين استدعاهم الحاجب أماكنهم، وسط دهشة الحاضرين في القاعة. كان الجميع، وفي طليعتهم الشابّ، كأن على رؤوسهم الطير. فقد دخلت القاعة قدمان ويدان ولساناً وعينان. نعم، لم تخطئوا القراءة. أعضاء جسم إنسان، وكأنها كبرت بعض الشيء. كانت تلك أعضاء الشاب.

الأيدي الناطقة

القاضي: «من أين تعرفان هذا الرجل، وكيف هي سيرته؟ ما هي شكواكما؟ تحدثا فنحن لكما سامعون».

القدمان: «حضرة القاضي، نحمل هذا الرجل منذ سنين. أخذناه حيث يشاء. لم نتخلّ عنه أبداً. أبعدناه عن الأخطار عند الضرورة. لكنّه استخدمنا في ارتكاب الكثير من الموبقات. وذهب إلى أماكن سيّئة السمعة. نحن منه مشتكيتان».

اليدان: «سيادة القاضي، نحن يدا هذا الرجل. عملنا دائماً من أجله. فعلنا كلّ ما يشاء. لكنّه مع ذلك لم يرعنا، ولم يبدِ عنايةً بنا. وفوق ذلك،

استخدَمنا في ارتكاب ضروب الفساد. لمسنا ما لم يكن لنا أن نلمسه. إنا منه مشتكيتان».

الأذنان: «نحن أذنا هذا الشاب. بدأت رحلتنا معه منذ كان في بطن أمه. نقلنا إليه الأصوات من حوله. لكننا منه مشتكيتان. فقد أساء استخدامنا كثيراً. وأجبَرنا على الإستماع إلى ما لا ينبغي سماعه. أصبحنا في شوق إلى سماع تلك الأصوات التي تروق له بالأساس، ويستحبّها مَن حوله، ونستمتع بها نحن».

اللّسان: «ما أنا إلا قطعة لحم. نطقت من أجل هذا الرجل. تكلّمت بما يشاء وكيفما يشاء. استخدمني في ضروب الكذب والاحتيال والخداع. بتّ في شوق إلى عذب الكلام. أنا أشتكي منه بالطبع».

العينان: «حضرة القاضي، نحن عيناه اللتان يبصر بهما. كنا له نوراً. نعم، كنا له نوراً لكنّه فضّل الظلمات. كان بإمكانه أن يرى من خلالنا كلّ ما هو جميل في هذه الدنيا. لكنه التفت بنا إلى كلّ قبيح. أجبَرنا على رؤية ما لم يكن له أن يراه. كنّا وسيلة لرؤية كلّ جميل ينبغي أن يراه لكنّه عَمي عنه. وقع في غرام الأضواء الكاذبة والمصطنعة. لم يوجّهنا إلى النور الحقيقيّ».

كان الشابّ كلّه آذان صاغية. لم يكن قد خطر على باله قطّ أنّ أعضاء جسمه ستثور عليه ذات يوم وتشهد ضدّه، بل وتشتكي منه.

كشف المشتكون النقاب عن حياة الشاب فبدت كأنها حكاية تتتالى أحداثها في شريط فيلم سينمائيّ. نطقَت يداه وقدماه وأذناه ولسانه وعيناه الواحدة تلو الأخرى وروت ما كان يصنع في حياته. أفشَت كلّ أسراره. حتى مرافعة المحامي، التي أكثر فيها من استخدام كلمة «ولكن»، لم تهدّئ من روع الشاب.

«كان الشاب يبكي»

كان الشاب يبكي، ويهذي بينه وبين نفسه قائلاً: «أنا مجرمٌ، أنا مجرمٌ، أنا مجرمٌ..».

فجأة شعر بيديّ أمه المفعمتان بالحبّ، العطرتان كالمسك تمسحان جبينه، واستيقظ من ذلك الحلم المخيف. كان يتصبّب عرقاً. وقف على الفور أمام المرآة الطوليّة الموجودة إلى جانب السرير. نظر بإمعان إلى قدميه ويديه وأذنيه ولسانه وعينيه. همس في داخله «أنا أفهمكم».

ربما تعتبرون هذه الحكاية تجاوزت الحدود بعض الشيء، وخياليّة نوعا ما. بحسب الكثير من المعتقدات الدينيّة فإنّ أعضاء جسم الإنسان سوف تتحدّث عنه وتشهد عليه في الحياة الآخرة.

سأطلب منكم الآن طلباً. استخدموا قوّة مخيلتكم. ستواجهون صعوبة، وربما لن يروقكم ذلك. لكن لنحاول معا.

لنأخذ استراحة قصيرة من قراءة هذه السطور بعد قليل. خلال هذه الاستراحة لمدة عشر دقائق اغمضوا أعينكم واسبلوا جفونكم. امضوا مع خيالكم. لو أنّ محكمة أُقيمت، وصعدت أعضاء جسدكم إلى المنصّة. لو نطقت في البداية أقدامكم، ومن بعدها أيديكم وآذانكم ولسانكم، وأخيراً أعينكم وبقيّة أعضائكم، وتحدّثت عنكم. ولو انكشفت أفعالكم الواحد تلو الآخر. ماذا ستقول أعضاؤكم يا ترى؟

هل أنتم راضون عن التقييم الموضوعيّ الذي قامت به أعضاء جسدكم؟ وهل تلك الأعضاء راضية عنكم؟ أم أنّ وجوهكم احمرّت وأصابكم الخجل كلّما تحدّثت أعضاؤكم؟ أترك لكم التقدير.

كيف هو تواصلك الداخليّ؟

أحاديثنا الداخليّة هي مؤشّر شديد الأهميّة عمّا إذا كنّا في صحّة نفسيّة تامّة أم لا . فما هو الحديث الداخليّ؟ يقول يونس إمرة، أحد القمم السامقة لثقافتنا المكتوبة والشفهيّة: «هناك أنا موجودة داخلي»، هذه «الأنا» الموجودة في الداخل هي ما نقصده. وعلى الأصحّ نتحدّث عن تواصلنا مع «الأنا» الموجودة في أعماقنا.

بالنظر من زاوية علوم السلوك، ينقسم الناس إلى ثلاث مجموعات بحسب أنواع الأحاديث الداخليّة التي يجرونها:

١- **مجموعة حماية ودفاع:** أولئك الذين يعتبرون أنفسهم فوق وفي مركز كلّ شيء. الأحاديث الداخليّة لهذه المجموعة مركزيّة الذات (متمركزة حول الأنا). ينصبّ اهتمامهم على ما يمنحه إياهم الآخرون في محيطهم. يتساءلون: كيف أمتلك، كيف أزيد، كيف أحمي حقوقي، باختصار كلّ ما يفكرون به ويتخيّلونه مبنيّ على الاحتماء مما قد يصيب أشخاصهم من محيطهم. ولذلك يسود لديهم حديث داخليّ مبنيّ على أساس الدفاع.

٢- **مجموعة غامضة:** تكون الأحاديث الداخليّة لأعضاء هذه المجموعة قليلة وغير عميقة في آن معا. مواقفهم جامدة. يمكن أن يبدو الشخص وكأنّه يعيش خيالات عميقة ومثيرة للاهتمام. لكن خيالاتهم في الحقيقة ضعيفة جداً. لا يمكنهم التفكير سوى بحملة واحدة فقط للرد على حملة مضادة في لعبة الشطرنج، وحتى هذا التفكير يستغرق وقتاً.

٣- **مجموعة مانحة:** تشكّل هذه المجموعة أقلّيّة. يفكر أعضاؤها بالكثير من الأشياء في وقتٍ واحد. يكونون في حوار دائم مع أنفسهم،

ويختبرونها بشكل مستمرّ. تواصلهم الداخليّ عميق ومتنوّع جداً. ينصبّ تركيزهم على ما بعد حملتين أو ثلاثة في كل الأوساط تقريباً. الخصائص الواضحة لهم هي العطاء للآخرين. كأنّهم على أهبّة الاستعداد والإنتاج الداخليّ باستمرار من أجل إرضاء الآخرين. قوّة مخيّلتهم متطورّة جداً.

يمكن أن تتضمّن الأحاديث الداخليّة للناس هذه الأشكال الثلاثة في نفس الوقت. لكن يكون أحدها مهيمناً. يضعف التواصل الداخليّ المهيمن الشكلين الآخرين مع مرور الوقت.

والآن، انظر إلى نفسك. ما هو الجانب المهيمن في أحاديثك الداخليّة؟ لأيّ مجموعة تشعر بنفسك أقرب؟

عمق الحديث مع ذاتك

هل تواصلك الداخليّ يميل للاحتماء والدفاع؟ لا تقلق. لكن في المقابل تخلَّ عن وضع نفسك في المركز إلى هذا الحدّ. حاول أن تتساءل من حين لآخر «ومن أكون أنا؟». تغلّب على الإحساس بأنّ محيطك هو عدوّ لك. لا تنس أنك إذا كنت ممتازاً فإنّ محيطك أيضاً سيكون كذلك. لهذا ينبغي أن يتركّز حديثك الداخليّ على زيادة الإسهامات التي تقدّمها إلى محيطك وليس على القضاء على السلبيات القادمة إليك منه.

هل حديثك الداخليّ قريب من المجموعة الغامضة؟ لا تقلق، لكن يتوجب عليك تجاوز الجمود الحاصل في تواصلك الداخليّ. يتعيّن عليك فتح الانسدادات الموجودة في قنوات التواصل الداخليّ. بشكلٍ عام، ربّما يكون طراز معيشتك البطيء والمتأخّر والصعب والقسريّ ينعكس على

حديثك الداخليّ. كما يقول اليابانيون «عجّل على مهل». *يجب ألا يؤدي الغموض في تواصلك الداخليّ إلى غموض في حياتك أيضاً.*

هل تواصلك الداخليّ قريبٌ ومتلائمٌ مع المجموعة المانحة؟

بإمكانك أن تهنّئ نفسك. لأنك في طريق النضج الإنسانيّ والعمق الإنسانيّ بحيث يمكنك التفكير بنفسك وبـ«الأنا» الخاصّة بك بعد الأنا الخاصّة بالآخرين. *أمر مهمّ القدرة على منح الأوّلويّة للآخرين في الأحاديث الداخليّة وعوالم الخيال. هو وضع ذو امتياز. إنتاج قيمة مضافة من أجل الإنسان والإنسانيّة هو ميزة للأرواح السامية والناس المتفوقين.*

خلاصة الكلام، إمّا أن يتوجّه حديثنا الداخليّ إلى أنفسنا، ويسعى إلى حماية وحبّ وإعلاء أنفسنا، فنكون في موقع الآخذ. وإمّا أن يتوجه إلى الآخرين ويركّز على خيرهم، فنكون في موقع المعطي. وإما أن يمتلك عالم خيال جامد ضعيف لا يهتمّ بنفسه ولا بالآخرين.

لماذا تتشتّت الأسر؟

كم واحد منا يمكنه أن يخصص مكانا لزوجته وأصدقائه في قلبه دون أن يغير نفسه؟ وماذا عن بقيّة الناس والإنسانيّة وكافة الأحياء، وحتى الجمادات، هل لها مكان أو صوت أو نَفَس أو على الأقل ارتسام في قلبنا؟

كان ذلك قبل عدة أعوام. تحدثت مع زوجين كانا يفكران بالانفصال. طلب مني ذلك صديق عزيز، وقال: «لقد فقدا عقليهما. يقولان إنه لم يبق للحب بينهما مكان. ماذا سيفعلان بابنتهما البالغة من العمر ستة عشر عاماً؟». اجتمعت مع الأم والأب حول طاولة مربعة. كان الجميع في نفس الظروف بالنسبة لوضعيّة الجلوس إلى هذه الطاولة. بعد عمليّة التعارف نظرت إلى وجهيهما، لكن الوجهين كانا قد أضاعا بعضهما. تنظر أعينهما لكن لا يريان بعضهما. كان كل منهما حانقا على الآخر إلى درجة أنهما بدأا الشجار فورا. حتى تحديد من سيتحدث أولاً يمكن أن يكون سببا للشجار. بيد أني كنت أعرف الحكاية. كانا قد أمضيا فترة طويلة معا قبل الزواج. تقبلا بعضهما، وتزوجا وهما ينطقان بأهم «نعم» في حياتهما.

المهم الآن هو أيامهما هذه. زوجان يتقاسمان البيت نفسه لكنهما ابتعدا عن بعضهما البعض. كأنه لم يعد هناك ما يفعلانه من أجل بعضهما. من أجل تبديد الجو المتوتر هناك سألت مازحا: «متى تعانقتما لآخر مرة؟ عناقا

شديدا». فكرا وبدت على وجههما مسحة من خجلٍ خفيفٍ. لم تأتِ الإجابة أبدا. من الواضح أن جسديهما رافقا روحيهما في الابتعاد عن بعضهما. على الرغم من كل الجهود لم يستطع هذا الزواج الصمود سوى ثمانيّة أشهرٍ أخرى فقط. تشتت أفراد الأسرة على غرار أوراق الأشجار المتساقطة في الخريف. لم يعودوا يتقاسمون المكان والهواء نفسه والأفراح والأتراح. وهكذا خمدت شعلة زواجٍ آخر.

الغرق في عينيه

الزواج هو غرق زوجين من الأعين في بعضهما البعض. هذه الأعين هي مرآة قلبين يخفقان في جسدٍ واحدٍ.

نأتي الآن إلى حالتكم. ربما تبحثون عن أمير/ أميرة على حصان أبيض. وربما تجرون الاستعدادت من أجل الزواج. أو ربما تزوجتم منذ عدة أعوام.

إذن، هل أنتم مستعدون للغرق في زوج من الأعين؟ هل أنتم مستعدون لكي تسلموا أنفسكم إلى شخص ما، وبطبيعة الحال أن تحتضنوه بين جناحي محبتكم؟ هل أنتم مستعدون لتشاطروه مخاوفكم وأفراحكم وأحزانكم وحماسكم؟

لنقل إنكم متزوجون. هل يمكنكم أن تفعلوا كل شيءٍ، نعم كل شيءٍ من أجل زوجكم؟ هل أنتم بالنسبة له وهو بالنسبة لكم حقاً ملاذٌ آمن يمكن اللجوء إليه. أم أنكم تتجولون على الموانئ التي تذهب بها الأمواج؟ يمكن التوسع في هذه الأسئلة. لكن هناك حقيقة: يتآكل الزواج على غرار الصخور التي تتلاطم عليها أمواج البحر على الساحل. وعلى الأخص في

الحياة السريعة والمضطربة في عصرنا هذا، تتزعزع مؤسسة الزواج كلما تآكل النسيج الاجتماعيّ.

حماية الأشخاص لأدوارهم من خلال تطويرها هيمن أهم الطرق لمكافحة التآكل الناجم عن مرور الوقت.

يمتلك الناس أكثر من دورٍ واحدٍ في حياتهم. يمكننا أن نعدد بعضا من هذه الأدوار: الأم والأب والفتاة الشابة في المنزل والعامل والمدير والمواطن. المهم هو أن نؤدي حق هذه الأدوار التي نضطلع بها. أن نؤدي حق دورنا على الرغم من كل التطوّرات الإيجابيّة أو السلبيّة.

بعد فيلم الرسالة (*The Message*, 1976)، قيل للممثل الكبير أنتوني كوين «أنت ناجح في كل الأدوار التي تلعبها». في الحقيقة ما ميز أنتوني كوين، شأنه في ذلك شأن الكثير من الممثلين الناجحين، هو أنه يتقمص دور الشخصيّة التي يجسدها بكل نواحيها، وكأنه ينسى هويته نفسها. تذكروا كيف انطبع أنتوني كوين في أذهاننا من خلال تجسيده بنجاح في فيلم آخر دور عمر المختار، كما كان الحال بالنسبة لدور حمزة رضي الله عنه.

ينبغي أن يلعب الكل في المجتمع المسمى بالأسرة دوره على أكمل وجه، بالتالي تتوفر الوحدة والحيويّة والتمام والإنتاجيّة. يؤدي اختلاط الأدوار بادئ ذي بدء إلى المناقشات. تتبعها الشجارات. والنتيجة فوضى. تصوروا أماً ما تحاول أن تكون أباً أو أباً يتجاهل الأم ويلعب دورها في معظم الأحيان. وعلى الخصوص تصرف الشباب والأطفال وكأنهم أناسٌ من عالمٍ آخر. *دعكم من تحمل المسؤوليّة في المجتمع، يمكننا القول دون تردد بتزايد الشخصيّات التي هي نموذج اللامسؤوليّة المستمرة. فلماذا يا ترى؟*

«الذوات» المتصارعة

تقول الدراسات إن حالات الطلاق في العالم بشكلٍ عامٍ تزايدت على نحوٍ كبيرٍ. وفوق ذلك يبدو أن المجتمعات الشرقيّة، التي تفتخر بقوة الروابط الأسريّة، وقعت في براثن هذا المرض. تنظر الدراسات نفسها إلى أسباب الطلاق. *سوء المعاشرة هو السبب الأوّل للانفصال في كل المجتمعات تقريبا. وسوء المعاشرة يعني صراع «ذاتين». هو صراع أولويّة بين «ذاتين»، وادعاء كل منهما بتفوقها. باختصار هو رغبات «ذاتين» لم يتم إرضاؤها. هي ذواتٌ ابتعدت عن التواضع والتسامح والعطاء بلا مقابل. ذواتٌ انصب اهتمامها على نفسها وليس على الآخرين. ذواتٌ معجبةٌ بنفسها فقط وتعتبر نفسها كافيّة.*

بيد أن الزواج، أقصد الزواج الحقيقي، هو القدرة على تجاوز «الذات». هو القدرة على العيش مع «ذات» أخرى دون أن تأسركم أنفسكم. هو عدم تهميش الآخرين. هو القدرة على رؤية وإدراك حقيقة الآخر قبل حقيقتكم. هو القدرة على التوجه إلى الآخر بكليتكم وعلى الاتحاد معه.

لنفكر قليلاً، كم واحداً منا يمكنه النجاح في ذلك؟ كم واحداً منا يمكنه الخروج منتصراً من الحرب مع ذاته؟ كم واحداً منا يمكنه أن يخصص مكاناً لزوجته وأصدقائه في قلبه دون أن يغير نفسه؟ وماذا عن بقيّة الناس والإنسانيّة وكافة الأحياء، وحتى الجمادات، هل لها مكانٌ أو صوتٌ أو نَفَسٌ أو على الأقل ارتسامٌ في قلبنا؟

مشاهد عائليّة من البلد

سنضيء في هذا الكتاب الكثير من الأنوار التي من شأنها أن تساعدنا على معرفة أنفسنا وإنارة رحلتنا في العمق الإنسانيّ. سنتحدث عن طرق وتقنيات مجابهة العراقيل المختلفة القائمة في طريقنا نحو التطوّر الشخصيّ. الأهم من ذلك هو أننا سنقدم لكم بصيرةً ونضع أمامكم مرآةً حتى تؤمنوا بأنفسكم وتعودوا إلى ذاتكم وتحصلوا على أداءٍ أفضل من مقدراتكم. من الواضح أن الأسرة هي المنبع الرئيسي للتحلل لدى الإنسان والإنسانيّة والانهيار الحاصل في القيم الإنسانيّة. ولهذا فإن للأسرة في هذا الكتاب أولويّة المرور. وضعنا أمامكم مشهداً عائلياً كلما كان ذلك مناسباً مهما كان العنوان الفرعي. أردنا أن تروا أنفسكم في صورة الأسرة هذه. من المهم أن تتواجهوا مع صورتكم في أسرتكم. لأن بناء الأسرة لدينا وقيمنا يتبددان بسرعة.

والآن، تعالوا نلقي نظرةً على مشاهد عائليّة من البلد. سوف ترون أنفسكم ضمن هذه المشاهد، فلا تندهشوا. ألا نعتقد أن البنيّة الأسريّة قويّةً جداً عندنا؟ كونوا على ثقةٍ أن روابطنا الأسريّة تنحل وتضعف.

حتى بعض الأحداث التي وقعت خلال مرحلة تأليف هذه الكتاب تسلط الضوء على انعدام التواصل داخل الأسرة. عُرض البعض منها على شاشات القنوات التلفزيونيّة. قتل شابٌ أباه لأنه لم يحصل على المصروف الذي طلبه، ولم يكتف بذلك فقتل أمه وأخته. وبعد ذلك أضرم النار بالبيت. في حادثةٍ أخرى تناولتها وسائل الإعلام، أقدم شابٌ على قتل جدته المسنة لأنها لم تعطه نقوداً. وهناك حادثةٌ أدهى: أرادت فتاةٌ شابةٌ في إحدى قرى الأناضول الذهاب في رحلةٍ للتجول خارج المحافظة مع صديقاتها.

لكن أسرتها لم تسمح لها. خرجت الفتاة من البيت، وبعد عام عُثر عليها ميتة في إسطنبول. ليست غايتنا أن نصور مشهداً سوداوياً، لكننا نعلم جميعا أن هذا النوع من الأخبار أصبح من الحوادث العاديّة في حياتنا اليوميّة وهي في تزايد مطرد.

على غرار هذه الأمثلة التي تدل على الضعف المتزايد للتواصل داخل الأسرة، تضعف العلاقات مع الجيران خصوصاً ومع المجتمع عموماً.

نشرت الصحف حادثة سرقةٍ وقعت في منطقة بايليك دوزو (إسطنبول). استخدم ساكنٌ يقيم في الطابق السادس من مبنى مكونٍ من ٤٠ شقةً، السلم عوضاً عن المصعد بهدف ممارسة نشاطٍ رياضي. رأى في الطابق الأدنى شخصاً يحاول فتح الباب بالمفتاح. ألقى عليه التحيّة قائلاً «صباح الخير يا جاري». دون أن يرى وجهه تماماً، رد الشخص ذو القبعة. وبعد ذلك ماذا حدث؟ علم ساكن البناء في المساء أن شقق الطابق الخامس نهبت.

نعيش دون أن نعلم بأحوال بعضنا

يمكننا التوسع في هذه الأمثلة. من الممكن أن نصادف في نفس المبنى عرساً وجنازة في اليوم ذاته. بل قد لا يكون لدينا علم بالحدثين حتى تلك اللحظة. من مختطفي الأطفال الصغار لبيع أعضائهم، إلى مطلقي النار على أمهاتهم وآبائهم، ومن يلجؤون إلى المخدرات عند أقل مشكلة..ليست غايتي دفعكم للتشاؤم، لكن ينبغي علينا على الأخص رؤية انعدام التواصل داخل الأسرة وانهيار القيم، على الرغم من كل التطوّرات الإيجابيّة لعصر التكنولوجيا. نحن جميعا داخل هذا الانهيار. نتأثر به بطريقةٍ أو بأخرى. نعيش دون أن نعلم بأحوال بعضنا البعض.

٤٠ بيتاً، في الحقيقة تعادل تقريبا قرية في بلادنا. يبلغ عدد البيوت حالياً في القرية التي ولدت فيها ٦٦ بيتاً، قرية «اغربغر» في قضاء خراسان بمحافظة أرضروم. دعكم من جنازة أو مرض أحدهم، حتى مرض حيوان الجار يعلمه الجميع فوراً. ولا يكتفون بالعلم فحسب، بل ينشغلون بما يمكن أن يفعلوا من أجله.

تفصل مسافات بعيدة بيوت القرى عن بعضها البعض، لكن أهاليها قريبون جداً من بعضهم ويعلمون أحوال بعضهم. أما الأسر في المدينة فهي من القرب بحيث تفصل بينها مسافة ٣٠ سم من الإسمنت، لكن الناس بعيدون عن بعضهم.

شاركت في برنامجٍ يبث على الهواء مباشرةً بإحدى القنوات التلفزيونيّة الإخباريّة. كنت أتحدث عن التفكك الحاصل في الأسرة. استأذنت من أحد مقدمي البرنامج وطرحت سؤالاً. طلبت أن يناقش المشاهدون الإجابة عن هذا السؤال فيما بينهم. السؤال المطروح كان التالي: «بينما تشاهدون هذا البرنامج أين أبناءكم؟». قدمنا ثلاثة خياراتٍ رئيسيّة للإجابة:

١- أحد الزوجين (الأم أو الأب)، الذي يسمع السؤال ينادي الآخر متسائلاً «حقاً أين الأولاد؟».

٢- «الأولاد في الغرفة الأخرى».

٣- «الأولاد حالياً بجوارنا».

نلاحظ بأسف أن الأسر التي تجيب عن السؤال بالشق الأوّل في تزايد مستمر. أما عدد من لا يتقاسمون المكان نفسه مع أبنائهم فهو أيضاً ليس بالقليل. يتناقص عدد من يمارسون نفس الفعاليّة مع أبنائهم. لو وجهنا

السؤال نفسه إليكم مثلاً. وأنتم تقرأون هذا الكتاب حالياً أين أقرب الناس إليكم (أبناؤكم، أمهاتكم، آباؤكم، أزواجكم)؟

يبتعد الأطفال والشباب عن أسرهم، وعن القيم التي تجعل الأسرة «أسرة»، وعن الثقافة والتقاليد. مع الأسف يملأ التلفزيون وبقيّة الأوساط الافتراضية هذا الفراغ في الثقافة الأصيلة.

يُنسب لعلي كرم الله وجهه قول: «لاعب ولدك سبعا، وادبه سبعا، وصاحبه سبعا». هذه وصفةٌ شديدة الأهميّة كي نفهم الأولاّد والشباب ويفهموننا. تعود هذه المقولة إلى ما قبل مئات السنين من اعتبار التربيّة علماً، وتلقي الضوء على عالمنا المعاصر الذي فقدنا فيه الأبناء بسرعة.

تحتاج السنوات الأولى من الحياة، حيث يبدأ تشكل الشخصيّة بسرعةٍ، إلى جو لعبٍ مفعم بالحبِّ. يبلغ التطوّر العقلي المجرد أعلى مستوياته بين سن السابعة والخامسة عشرة، وتضفي الصداقة المقامة مع الأطفال في هذه السن المتعة على رغبتهم الشديدة بالتعلم. يستعد الشاب بدءاً من سن الخامسة عشرة للانخراط في المجتمع، ويطور إجراء المناقشات والمشاورات معه في القضايا المختلفة مهارات التفكير لديه حتى يصبح فرداً فيه.

أسئلةٌ طُرحت في محاضرةٍ ببرلين

ألقيت محاضرة بعنوان «التواصل داخل الأسرة» في برلين بناءً على دعوةٍ من المركز التركي- الألماني. شهدت المحاضرة إقبالاً كبيراً من جانب الأسر التركيّة، فهل تعلمون ما هو أكثر موضوعٍ طُرحت بخصوصه الأسئلة في ختام المحاضرة؟ إنه الانحلال الأخلاقيّ الناجم عن البرامج التلفزيونيّة في

بلادنا. قالت إحدى الأمهات بحدةٍ نوعا ما: «نريد أن نحمي أطفالنا وأسرنا من حالات التطرف هنا. لذلك نتابع بشكل أكبر القنوات التلفزيونيّة التركيّة. لكننا نصاب بالخجل. الكثير من البرامج ذات محتوىً جنسي. أما العلاقات الأسريّة في بعض المسلسلات فهي فضيحةٌ بكل معنى الكلمة».

عندما عدت إلى تركيا طلبت من أحد الزملاء البحث في الموضوع. رأينا أن الحال يُرثى له. وضع بعض المسلسلات والبرامج الكوميديّة والمسلسلات المخصصة للأطفال وبرامج النقاش وحتى الدعايات، مسألة الجنس في مركز الحياة. تجاوزنا بمراحل مسلسل «دالاس» الذي كان يُعرض في فترةٍ سابقةٍ. تصل الميول الجنسيّة لأفراد الأسرة تجاه بعضهم مستوياتٍ مخجلةٍ في بعض المسلسلات التي تجلس الأسر وتشاهدها سويّةً. يختلط فيها الحابل بالنابل.

الأخطر من ذلك هو أن هذا النوع من البرامج يدعم بل وحتى يشجع على تصرفاتٍ هي في الأساس مشكلة انسجامٍ وسلوكٍ، ولا تحظى بالقبول لدى المجتمع. بعبارةٍ أخرى، تصوير «الرجل الشرير» ذو السلوكيات اللاأخلاقيّة على أنه بطل. يصبح الجالسون في مواجهة الشاشة تقريباً في موقف من يتجه بالدعاء حتى لا تُلاحظ ولا تُكتشف الميول المخجلة في بعض المسلسلات التي يشاهدها أفراد الأسرة معا.

لا أقول كل ذلك بدافع الخشيّة على الثقافة والأعراف والمعتقدات المتجذرة في بلادنا فحسب، فالميول غير الطبيعيّة ذات المحتوى الجنسي ومشاكل الانسجام والسلوك في البرامج التلفزيونيّة هي مشكلةٌ أيضاً على صعيد القيم الإنسانيّة الكونيّة والفهم الأخلاقيّ.

يمكن أن يُقال، من وجهة نظرٍ سطحيّةٍ، «لنمتنع عن مشاهدة البرامج غير المرغوبة». لكن ماذا سنفعل مع الأطفال والشباب غير القادرين على التمييز، وحتى البالغين المنهزمين أمام ضغوط الغرائز؟

هناك ثلاثة مستويات رئيسيّة للحاجات الشخصيّة. تقع **الاحتياجات الغريزيّة** في المستوى الأوّل. تأتي من بعدها **الاحتياجات العقليّة**. أما **الاحتياجات الروحيّة** فهي في أعلى مستوى.

الاحتياجات الغريزيّة ساريّة على الجميع. هي مجال إشباع رغبات الشخص المتعلقة بجسده وذاته مباشرةً من قبيل الطعام والشراب والحماية والسكن والجنس. المستوى الثاني هو مجال **الإشباع العقلي**، حيث تمر الحاجات الغريزيّة من مصفاة المنطق. أما المستوى الثالث والأخير فهو **المجال الروحيّ**، حيث يتم إشباع الحاجات الغريزيّة والمنطقيّة على حدٍ سواء في ظل تطلعات المجتمع.

ينبغي على البرامج التلفزيونيّة التخلّي عن التوجه إلى الطريق الأسهل وهو الغرائز، ومخاطبة العقل والروح لدى الفرد. وإلا سيتزايد في بلدنا أيضاً، كما هو الحال في العالم، عدد الأفراد الذين يعيشون انحلالاً أخلاقياً، ويدخلون دوامة العنف، ويهجرون منازلهم، ويعانون من مشاكل نفسيّة، ويدمنون على المخدرات، وينتهون إلى الطلاق.

علينا ألا ننسى بأنه يمكن حماية الصحة النفسيّة للأسرة والمجتمع بقدر ما نحمي الصحة النفسيّة للأفراد كل حدة والقيم الأخلاقيّة الرئيسيّة.

أين أنتم من أسرتكم؟

إذن أين ترون أنفسكم بصفتكم فرداً في الأسرة؟ هل أنتم مستعدون للقيام باستبيان صغير؟ على سبيل المثال، اسألوا أهل البيت عن مدى رضا أفراد الأسرة عنكم. من الممكن أن تجعلوا هذا الاستبيان حديثاً صادقاً. ويمكنكم أيضاً اتباع منهج علمي أكثر. قدموا استبيانا مكوناً من بضعة أسئلةٍ لأهل البيت دون تسجيل أسماء. تحروا من أنفسكم حسب دوركم في البيت سواء أكنتم الأم أو الأب أو الأخ الأكبر أو الابنة. انظروا فيما إذا كانت أسرتكم راضية عنكم. ماذا تنتظر أسرتكم منكم؟

ليس همنا أن نعود بكم إلى هيكلٍ أسريٍّ كان قائماً قبل ٥٠ أو ١٠٠ عام. هذا ليس حنيناً إلى ما كانت عليه الأسرة في الماضي. غايتنا هي أن يكون الناس المجتمعون تحت سقفٍ واحدٍ مع بعضهم بالفعل. أن يكونوا متداخلين مع بعضهم البعض حقاً، وأن يروا بعضهم البعض. أن يشكلوا وحدةً مع بعضهم، وأن يقدروا على الحديث مع بعضهم، وحتى أن يستطيعوا التنافس فيما بينهم عند الضرورة. *لكننا كأفراد أسرةٍ نصمت بشكلٍ متزايدٍ. ننعزل ونتغرب بشكلٍ مطردٍ داخل الأسرة. تبعد الحياة الافتراضية التي تفرضها الميديا، من يعيشون تحت سقفٍ واحدٍ عن بعضهم البعض. ثم تنظرون فترون مناطق مستقلةً عن بعضها البعض في البيت.*

يوطد الأب سيادته في الصالون بفضل أجهزة التحكم المختلفة الموجودة في يده. وكأنه متعبٌ من التجول في وديان العالم الافتراضيّ. أما الأم فهي ملكة المطبخ. ومع أن شاشتها تكون صغيرةً إلا أنها مسلحةٌ أيضاً بجهاز تحكمٍ عن بعد. وبين المطبخ والصالون يقف الأطفال الصغار محاصرين.

ماذا عن الشباب الذين يبحثون داخل غرفهم عن إشباع رغباتهم في المواقع غير الموصى بها في العالم الافتراضيّ؟

لا تنسوا من فضلكم، لا بد من بذل الكثير من الجهود من أجل إصلاح هذا المشهد بالكامل. لكن نقطة البداية هي التواصل الصادق بين الأم-الأب-الأبناء. سيكون لتخصيص أفراد الأسرة وقتاً لبعضهم البعض، ولعبهم دور القدوة الحسنة، وتضامنهم بصدقٍ، وتقدير بعضهم البعض إسهاماتٌ إيجابيّةٌ أكثر بكثير من المتوقع. نلاحظ في الآونة الأخيرة بسعادةٍ تزايد الأمهات - الآباء الواعين الذين يولون اهتمامهم إلى التواصل داخل العائلة ويضعون أهميّة الأسرة فوق كل اعتبار.

كيف سيتعلم الأطفال الحبّ؟

كيف سيتعلم الأطفال الحبّ في الوسط الأسري؟

كيف سيصبحون عاشقين؟

كيف سيتبنون الأخلاق والعدل والخير والتقاسم؟

كيف سيتعودون دفع الأحجار إلى جانب الطريق كيلا يصاب الآخرون بالأذى؟

كيف سينجحون في عدم اللجوء للكذب وعدم القيام بالسرقة؟

كيف سيؤمنون بالإنسان والإنسانيّة والماورائيات والغيبيات؟

كيف سيفهمون أن الحياة ليست عبارة عن المال فحسب؟

القراء الأعزاء، لا تنسوا من فضلكم أن كل واحد منا يولد وله مزاياه الخاصة. وبتأثير تربيّة الأسرة والمحيط القريب تتحول هذه المزايا الواحدة تلو الأخرى إلى أداء مع مرور الوقت. مزايانا الشخصيّة، شخصيّاتنا، طباعنا، قدراتنا العقليّة، مهاراتنا الجماليّة..

نتائج الكثير من الدراسات التي أجريت في مجال الصحة النفسيّة وعلم النفس محل نقاشٍ. لأن الموضوع هو الإنسان الذي يمكن أن يتصرف بطرقٍ مختلفةٍ إلى أبعد الحدود. لكن هناك موضوعٌ تبدو الدراسات وكأنها قد أجمعت عليه بحيث تخلص دائماً إلى النتيجة نفسها. *يبدأ الصراع الداخليّ عندما يُرغم إنسان ما على تجاوز قدراته الطبيعيّة في أي مجال كان.*

نعم، يواجه الناس في عالمنا اليوم صراعا داخلياً شديداً. نعيش صراعاً داخلياً لأن الحياة ترغمنا على اتخاذ موقفٍ يتجاوز قدراتنا

الرئيسيّة. أي أننا نعيش حرباً بين «الأنا» الحقيقيّة من جهة، و«الأنا» المرغوبة من جهةٍ أخرى.

القيم المنهارة، الشخصيّات المشتتة

لفت انتباهي حوارٌ أُجري مع فنانٍ مشهورٍ في عيد الفطر السعيد. كان الفنان يتحدث عن جمال الأعياد في الماضي. كان الحنين الذي يشعر به وهو يتحدث عن زيارات العيد في الماضي وكأنه يدمع عينيه. وفي ختام حوارٍ طويلٍ سأله المذيع: «كيف تمضون هذا العيد؟». كانت الإجابة عجيبةً: «جئنا إلى بودروم (مدينة ساحليّة) لبضعة أيامٍ. نرتاح فيها ونقضي إجازة في آنٍ معا».

كل أسرةٍ لها قيمها الخاصة وعقيدتها وانضباطها سواء أكانت من شرق بلادنا أو غربها أو وسطها أو شمالها أو جنوبها أو من أي منطقةٍ في العالم. ينبغي على البالغين في تلك الأسرة أن يتبنوا تلك القيم الرئيسيّة بالشكل الكافي. يمكن للقيم الإنسانيّة الكونيّة أن تتطور على الأساس الذي تكونه قيم الأسرة المحليّة هذه. وإلا فإن الإنسان يحاول أن يتقمص دور غيره قبل أن يلعب دوره نفسه. *يصبح ضحيّة القيم الجذابة التي هو غريبٌ عنها دون أن يكتسب قيمه الخاصة به. يتناقض ويتصارع مع نفسه قبل كل شيء. يصبح غريباً عن نفسه. يواجه صعوبةً في التعرف على نفسه. تتسبب سلسلة التراجع النفسيّة هذه بابتعاد الفرد عن نفسه. وفي نهاية المطاف، يأتي يومٌ وينهار فيه السلام الداخليّ لدى الفرد.* وعلى غرار الزلزال الذي يهز وجه الأرض، تبدأ الشخصيّات بالتشتت. دعكم من الحساسيّة الإنسانيّة المميزة، حتى امتلاك المرء عمقاً إنسانياً وكونه إنساناً عادياً يصبح حلماً.

حصلت على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٤، عندما كنت في السادسة والعشرين من العمر، وطُبعت أطروحتي في كتاب. لكن كانت هناك قناعة منتشرة آنذاك بأن من لا يعيش لفترة معينة خارج البلد لا يمكنه أن يكون أكاديمياً بالفعل. حصلت على منحةٍ دراسيّةٍ، وأقمت في لندن لمدة عامٍ. أجريت دراسات ما بعد الدكتوراه خلال هذه الفترة. أثرت هذه التجربة خارج الوطن على حياتي في الكثير من النواحي. أود أن أشاطركم واحداً من هذه التأثيرات:

نمط الأسرة الغربيّة يتداعى بسرعة

في بدايّة سفري خارج الوطن أقمت عند أسرةٍ إنكليزيّةٍ لمدة شهرين. كانت الأسرة مكونةً من أم وأبٍ وابنتهما البالغة من العمر سبعة عشر عاماً وأخيها في الرابعة عشرة. ولأنني مولودٌ في قرية جبليّةٍ في أرضروم، ونشأت في ظل روابط أسريّة وثيقة، أصبت بذهولٍ كبيرٍ. فموعد الطعام هو تمام الساعة السادسة مساءً. يبدو أهل البيت وكأنهم يصلون في مراسم رسميّةٍ. أما ما قلت لكم أنه طعامٌ فهو عبارةٌ عن قليلٍ من السلطة والخضروات وما شابه. تنتهي الوجبة في ظرف ١٠-١٥ دقيقة. المفترض أنني سأطور لغتي الإنكليزيّة، لكن الأسرة قليّلة الكلام إلى أبعد الحدود. رضينا بعدم وجود الشاي الثقيل وسكر النبات، لكن حتى عادة شرب الشاي غير متوفرةٍ لديهم. كنت أنتظر أن يجتمع أفراد الأسرة في الصالون ويتبادلون أطراف الحديث. على سبيل المثال، أن يسأل الأب ابنته وهو عابسٌ بعض الشيء عن سبب تأخرها في المجيء إلى البيت. أن تتحدث الأم عن الأعمال المنزليّة ليوم غدٍ، أن يتحدث الابن عن المساعدة التي يعتزم تقديمها لأبيه في عطلة نهاية الأسبوع..

انتظرت كثيراً لكن هذه الأحاديث لم تأتِ. اشتقت في حينها كثيراً إلى الحياة اليوميّة لأسرةٍ نموذجيّةٍ من الأناضول. تأثرت من انسحاب أفراد الأسرة بعد الطعام إلى غرفهم، وعدم تحدثهم مع بعضهم، وعيش كل واحدٍ في إطار فرديته. علمت فيما بعد أن الأسرة التي أقمت عندها كانت نموذجاً للأسرة المشتتة. كان الزواج الثاني بالنسبة للأبوين في نفس الوقت. البنت كانت لأحدهما والابن للآخر. *يتداعى نمط الأسرة الغربيّة بسرعةٍ. يتزايد المسنون ويتناقص الشباب. يبتعد الأبناء في سن الشباب عن أسرهم بسرعةٍ. تتخلى الأسرة والعيش المشترك عن مكانهما لطراز العيش الفردي.*

نقدم منذ سنين الخدمات الاستشاريّة الموجهة إلى مأسسة الشركات العائليّة. دخلنا أسرار الكثير من الأسر. *نرى أن البنيّة الأسريّة لدينا اليوم بدأت تشبه بسرعةٍ النماذج في أوروبا ونأسف لذلك.*

تألق وجوه أطفال القرية

نزور كل عامٍ تقريباً قريتنا. إنها قريةٌ جبليّةٌ في أرضروم. توفر كل طيّةٍ من تجاعيد وجوه المسنّين فرصة تجربةٍ مجانيّةٍ.

إذا كان هناك مسنون في محيطكم- على الأخص أقاربكم- ينبغي عليكم حتماً الاستفادة من هذا المورد الفريد. يتيح لكم سعيكم هذا فرصة تجربةٍ حياتيّةٍ في غاية الأهميّة. كما أنه يقيم التواصل المباشر الذي يرغب به المسنون.

هناك مشهدٌ أثر بي كثيراً في آخر زيارةٍ لي إلى القرية. كان أطفال القرية يلعبون بالألعاب التي استطاعوا العثور عليها. يسود العوز والفقر بشكلٍ جزئيٍ في القرية. ألعاب الأطفال عبارةٌ عن كرةٍ صغيرةٍ مثقوبةٍ مهترئةٍ منزوعة الخيوط في بعض أجزائها، بضع أغطيّةٍ من الصفيح، أغطيّة علب

اللبن البلاستيكيّة..في هذه اللحظة تماماً تراءئ أمام ناظري مشهدٌ في إسطنبول. أبٌ في إحدى الشركات العائليّة التي نقدم الاستشارات إليها هرب ابنه البالغ من العمر ستة عشر عاماً من المنزل لأن أباه لم يشترِ له آخر موديل من مشغل ألعاب الفيديو.

لم أر كثيراً في وجوه الأطفال الذين يملكون كل الألعاب الإلكترونيّة في إسطنبول متعة أطفال القرية أثناء لعبهم، وذلك الفرح والتألق في وجوههم. *من جهةٍ هناك أطفالٌ تعساء متمردون لا يشبعون ولديهم مشاكلٌ في الانسجام والسلوك، ومن جهة أخرى أطفال أنضجهم الفقر، اعتادوا القناعة بالموجود، منسجمون وسعداء.*

«أعترف»

أعتبر نفسي محظوظاً جداً على صعيد تركيبة أسرتي وقيمها. أحمد الله على ذلك. أنا في الواحدة والأربعين من العمر، تزوجت وعندي أربعة أبناء. عشت مع أمي وأبي منذ ولادتي حتى اليوم، باستثناء مرحلة التعليم (لفترة قصيرة) والخدمة العسكريّة. نواصل العيش معا. أدعو الله ألا أفقدهما. أعترف بأن ما تعلمته في الجامعة والماجستير والدكتوراه والندوات والمحاضرات وما شابه من أوساط تعليميّة في كفة، وما تعلمته من هذين المعلمين اللذين لا غنى عنهما في كفةٍ أخرى. فهما يواصلان إنارة درب الحياة لأحفادهما، على غرار ما فعلاه مع أبنائهما. أبي البالغ من العمر أربعة وثمانين عاماً، وأمي في الثامنة والسبعين من العمر هما أهم مرشد لنا في قراراتنا الهامة اليوم. لو لم يكن هذان المرشدان إلى جانبنا لما حققنا ما حققناه، ولتخلفنا عن الركب. ولربما انهزمنا في الكثير من منافسات الحياة.

تعرضت أمي لشلل نصفي، تعاني من صعوبة في الوقوف على قدميها. أجريت لوالدي عمليّة القلب المفتوح وهو في الثمانين من عمره. حتى أن البروفيسور بينغور سونماز، وهو من مشاهير جراحي القلب في بلدنا أصيب بالدهشة إزاء قوة تحمل أبي. أعتقد أن هناك دروساً نتعلمها اليوم من أمي التي تجتهد للوقوف على قدميها عند دخول أبي جراء الاحترام والحب اللذين تكنهما له. نتحدث هنا عن زواج ممتد على مدى ٦٢ عاماً، و٩ أبناء و٤٣ حفيدا. وهما ليسا ببعيدين عن القضايا الراهنة للحياة. من المؤكد أنه كان لهذا الاتحاد الطاهر مشاكله وما يزال. لكنهما يتمتعان بالقدرة على تجاوزها. *يكمن في صميم هذه القدرة حبٌّ مستمر، وقبولٌ من كلا الزوجين لبعضهما بلا شروط ولا أحكام مسبقة ولا مسوغات.*

كي لا نبقى في الزحام وحيدين وسط الضجة صامتين

نرغب في الوصول إلى مستوى ما في الحياة. ولا نريد أن نفقد صحتنا النفسيّة. نريد أن نبقى أقوياء وحيويين. نتطلع لأن نتطور ونكون سعداء. نفكر باليوم بقدر تفكيرنا بما قبل الحياة، وبالمستقبل بقدر تفكيرنا باليوم. نسعى للإبقاء على حيويّة الفضيلة الإنسانيّة والأخلاق والاستقامة والإيمان. لماذا؟ حتى لا نضيع في مسرح الحياة. حتى لا نكون عاديين، وحتى لا تطأنا العجلات المصطنعة لحياة مبتذلة. حتى لا نغترب. *كي لا نبقى في الزحام وحيدين وسط الضجة صامتين. حتى لا نبتعد عن أنفسنا.*

عودوا إلى أسركم من أجل كل ما أسلفنا ذكره وما لم نستطع الحديث عنه من علل. عودوا إلى أسركم من فضلكم وانظروا ما هي النواقص فيها.

ارغموا أنفسكم على اكتشاف النواقص والنواحي الجميلة في الأسر التي أنتم أفراد فيها وتشكلون جزءاً منها. اظهروا الشجاعة في مجابهة الانهيار في أسرتكم. شاهدوا التصدعات وانحلال القيم وانعدام الحبّ وضياع الاحترام في أسرتكم. لا تفتكم ملاحظة الإدمان على الدخان والحبوب المخدرة، الذي انحدر ليبلغ طلاب الصف الرابع الابتدائي. فكروا بالشباب الذين يصرون على الانفصال ولما يمضِ عامٌ واحدٌ على زواجهم. فكروا بالأزواج الذين أمضوا عشرات السنين في تفانٍ متبادل وما يزالون يحافظون على فرحة اليوم الأوّل من جهة، وبالأزواج الذين اغتربوا عن بعضهم قبل مضي العام الأوّل على زواجهم.

انطلاقاً من كل هذه الأمور اعرفوا قدر أسرتكم وقيمكم الأسريّة. لا تصبوا تركيزكم على المادة فقط، اجعلوا الحبّ والاحترام دائمين. كونوا على ثقة أن جهوداً بسيطة جداً كافيّة من أجل ذلك. ولا تنسوا أن المصدر الوحيد للعمق الإنسانيّ هو الأسرة.

«أحبك حباً جماً»

لنختم هذا الفصل باختبارٍ صغيرٍ. السؤال هو التالي: *متى كانت آخر مرةٍ قدمتم فيها هديّة لأحد أفراد أسرتكم، وما هي الهديّة؟* طرحت هذا السؤال في إحدى محاضراتي. أجاب شابٌ من الحضور بالقول: «بالأمس اشتريت أغراضاً من السوق من أجل أسرتي». صحيح، هذا أيضاً عمل منجز من أجل الأسرة، ويمكن اعتباره هديّةً مقدمة إلى أفرادها. لكني أسأل عن أمر آخر هنا. ماذا قدمتم رغم عدم وجود مناسبةٍ خاصةٍ؟ على سبيل المثال، ماذا لو ذهبتِ إلى مكان عمل زوجك وسط النهار، وبيدكِ هديّةٌ يحبّها كثيراً.

ولو أثرتِ دهشته وقلتِ له: «ليس هناك مناسبة. وليس عيد ميلادك أو ذكرى زواجنا. لكن لماذا أنا هنا، هل تعلم؟ عندما توجهت إلى العمل صباح اليوم نظرت من وراءك واغرورقت عيناي. تذهب إلى العمل من أجلنا. تخرج في الصباح الباكر وتعمل حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. أنت إنسانٌ شريفٌ وعلى خلقٍ رائعٍ. وأدركت مرةً أخرى أنني أحبك حباً جماً. ما كان بمقدوري أن أنتظر حتى المساء كي أقول لك ذلك، فجئت على الفور».

إذا استطعت أن تكون المجنون فستكون لك ليلى

لنعدل السيناريو الآن. عملت طوال اليوم. لاحظت في مكان العمل أو في الأخبار خلال اليوم العواطف الإنسانيّة المتلاشيّة. تشتكي من أن عدم التقدير بلغ أوجه. تنتظر حلول المساء بفارغ الصبر. تتجه نحو الملاذ النقي الطاهر الخاص بك. في الطريق، اشتريت باقة من الورد من «**أجلها**». كما هو الحال دائماً، تراها وهي تنتظر عودتك. تستقبلك بأجمل ابتساماتها. من يدري كم ألف مرةٍ تفتح لك باب قلبها، وليس باب الدار. وكما هو الحال كل يوم، ارتدت ملابس وتزينت بعض الشيء من أجلك. تلتف حولك رائحة الطعام الذي طهته ممزوجاً بمحبتها. تقدم الورود ذات العطر الفواح في يدك إلى حبيبتك النضرة التي لم تذوِها السنين.

أصدقائي الأعزاء، بينما أحدثكم عن هذين المشهدين بماذا تفكرون؟ أين أنتم منهما؟ أم أنكم تقولون، على غرار بعض المشاركين في محاضراتنا: «هذه الأمور بقيت في حكايا ليلى والمجنون، وطاهر وزهرة، وفرهاد وشيرين»؟

كونوا على ثقة أن من الممكن أن نكون ليلى والمجنون وطاهر وزهرة في ظروفنا هذه. الأمر المهم هو أن ننجح بأن نكون طاهر أو زهرة في قلبنا أولاً. لا تنسى أنك ستستحق ليلى إذا استطعت أن تكون المجنون. ولا تنسي أنك إذا استطعت أن تكوني ليلى فسيكون المجنون إلى جانبك. وكما قال أوسكار وايلد: «إذا انتظرتم العشق حقاً فستجدونه بانتظاركم».

أتابع حديثي بمبدأ في علوم السلوك شديد الأهمّية: **السلوك ينتج سلوكاً**.

المحاشي رديئة المذاق

الاحترام هو الإصغاء من أجل الفهم؛
هو التعلم حتى نقدر على النقل إلى الآخرين؛
هو تقبل النقد، حتى نقدر على توجيه الانتقاد؛
هو تقبل الفوارق، حتى نتفادى التهميش..

أبٌ متعب يعود إلى المنزل

ترد أدناه حادثة نموذجيّة واقعيّة. تصور بشكلٍ ممتازٍ عدم التواصل الذي نعيشه داخل الأسرة.

كان الرجل في طريق العودة إلى المنزل. أرهقه العمل من جهةٍ، وحركة السير من جهةٍ أخرى. ضغط على زر جرس المنزل ثلاث أو أربع مراتٍ. أدركت ربة المنزل من طريقة ضغط الزوج على الجرس أنه في مزاجٍ عصبيٍ. عندما فتحت الباب ألقى بنفسه على الكرسي بأسرع وقتٍ، كما جرت عليه العادة. حتى أنه لم يلحظ الثوب الجديد الذي كانت ترتديه زوجته، السيدة منوّر. عبّر عن جوعه بواسطة لغة الجسد.

رأت جايدا البالغة من العمر تسع سنوات ومحمد علي وهو في الخامسة من العمر أباهما من خلال فرجة الباب. بصوتٍ هامسٍ قالا: «إنه متعبٌ اليوم أيضاً»، وذهبا إلى غرفتهما. وضعت السيدة منوّر المائدة فوراً، وأحضرت الطعام. جلس الزوج إلى المائدة ومد يده إلى المحاشي التي يحبّها كثيراً. غرز

شوكته وحملها إلى فمه. لاك المحاشي قليلاً، ثم ماذا حدث؟ تأزمت الأمور، وقامت الدنيا ولم تقعد. كانت المحاشي رديئة المذاق إلى حدٍ لا يمكن معه تناولها. كان الأب حانقاً في الأساس، وأخذ يرغي ويزبد. هرعت السيدة منوّر إلى الغرفة على عجل، ودارت المحادثة التاليّة بين الزوجين:

السيدة منور: «ما الخطب؟ لماذا أنت غاضبٌ؟ ما سبب سخطك مجدداً؟».

الزوج: «كيف لي أن لا أغضب؟ ما هذا الذي طبختيه؟».

السيدة منور: «طبخت محاشي. ألست تحبّها كثيراً؟».

الزوج: «أي عملٍ قمتِ به بشكلٍ صحيحٍ، حتى يكون طبخكِ لذيذاً؟».

السيدة منوّر: «ما الذي حدث؟».

الزوج: «المحاشي رديئة المذاق. لم تفهمي ما أريد في أي وقتٍ من الأوقات».

السيدة منوّر: «وكأنك أنت تفهمني إلى أبعد الحدود؟».

الزوج: «هذه المحاشي شبيهة بتلك التي تطبخها أمك، مذاقها رديءٌ جداً وقاسيّةٌ كالحجارة في نفس الوقت. أتذكر. هي أيضاً كانت تطبخ محاشي رديئةً جداً».

السيدة منوّر: «وأنا رأيت المحاشي التي تطبخها أمك. وأذكر أيضاً ما فعل أبوك عندما طلب يدي».

الزوج: «الذنب ذنبي في الحقيقة. نبهتني أمي وحذرتني آنذاك. قالت إنكِ لا تحسنين القيام بأي عمل، ولا حتى طهي الطعام».

السيدة منوّر: «أكل هذا لأن الطعام كان رديئاً ذات مرةٍ؟».

الزوج: «ليس الطعام وحده رديئاً. منذ تزوجنا حتى اليوم أي أمرٍ من أمورنا سار على ما يرام؟ كل ما فيكِ خطأ. لقد أصابني الضجر».

يستمر هذا التواصل الجميل (!) من خلال تبادل الاتهامات بين الأم والأب. وينتهي مع قلب الأب للمائدة ورمي المحاشي في الهواء.

لا يمكن الاستهانة بعدد كوارث التواصل ذات المحتوى الذي لا يكاد يملأ بذرة تين. عندما تتزايد هذه الكوارث يصل الزوجان إلى حد القول: «لا يمكننا العيش معا». ثم توضب السيدة حقيبتها ذات يوم. كنا نقول في ندواتنا في الماضي: «توضب الأم حقيبتها وتذهب إلى بيت أبيها». أما اليوم فهناك جزءٌ من الأمهات اللاتي يوضبن حقائبهن، ويمكنهن أن يذهبن إلى ملاجئ السيدات المسماة بـ«السقف البرتقالي» أو «السقف البنفسجي».

ثم تُرفع دعاوى قضائيّة، ويمثل الزوجان أمام القاضي. المبرر معروفٌ: *خلافات لا يمكن تسويتها. في الواقع، هناك نقصٌ بسيطٌ في التواصل في معظم الحوادث: عدم فهم وسماع بعضهم البعض، الأنانيّة المتعاظمة، السعي للتفوق، صراعٌ بلا هوادة لذواتٍ تجاوزت حدودها، وعدم قدرة الزوجين على تكريس نفسيهما لبعضهما البعض..*

أزواجٌ في خدمة بعضهم

الترياق لكل هذه المشاكل هو أن يعتبر الأزواج أنفسهم في خدمة بعضهم البعض. تحدثنا في كتابنا «القيادة الخادمة» عن أن هذا الأمر هو عمل طوعي.[١]

١ - إ. فندقجي. رحلة قلب: القيادة الخادمة (الطبعة الثانيّة). منشورات ألفا. إسطنبول ٢٠٠٩.

نعم، هل يمكنكم أن تعتبروا أنفسكم في خدمة أزواجكم؟ فكروا قبل أن تطرحوا أسئلة من قبيل «ما معنى الخدمة؟» و«كيف هي الخدمة؟». أعيد ما قلته. لا يباعد بين الزوجين طراز تفكيرٍ وتصرفٌ وسلوكٌ يبدي لهما أن بإمكانهما أن يكونا في خدمة بعضهما البعض. ولا يجعلهما في طرفي نقيض، بل يضعهما جنباً إلى جنب، ويجعلهما منسجمين. يصنع منهما وحدةً متماسكةً.

ترتكز النقاشات والشجارات التي تصل بالأشخاص إلى حد الانفصال، إلى أسبابٍ تافهةٍ في معظم الأحيان. يمكن الحيلولة دون وقوع هذه الحوادث من خلال جهدٍ بسيطٍ جداً على طريق التواصل. يمكن إصلاح المشاهد التي تصل بالأسر إلى الضياع.

لنعد إلى قصة المحاشي آنفة الذكر. أي شكلٍ من التواصل يمكننا من تجاوز المشكلة؟ لنعش الحدث مرةً أخرى. لنعشه حتى نرى كيف تحول بضع كلماتٍ مختلفةٍ في عمليّة التواصل الحالة من شجارٍ إلى مشهدٍ جميلٍ.

الزوج نفسه يعود منهكاً إلى البيت. يمزح كما هي عادته مع زوجته السيدة منّور بعد أن تفتح له الباب. يقول: «تلبسين ثياب الخروج، فهل تعتزمين الذهاب إلى مكانٍ ما؟». قبل أن يجلس إلى الكرسي ينادي: «لقد عدت يا أولاّد، أليس هناك من يستقبلني؟». وهنا يهاجمه طفلاه بأسئلتهما. يحتضنهما ويقبلهما ويبدأ بالإجابة عن أسئلتهما المتتاليّة بسرعة المدفع الرشاش.

المحاشي رديئةٌ جداً ولكن..

أقيمت مائدة الطعام. جاءت المحاشي، وما أن وضع الأب أول واحدةً في فمه حتى أخرجها. لأن المحاشي كانت رديئة المذاق. دار الحديث التالي بين الرجل وزوجته:

السيدة منوّر: «خيرا إن شاء الله، ماذا حدث؟».

الزوج: «مضى على زواجنا ١٢ عاماً. طبختِ حتى اليوم محاشي رائعة المذاق إلى درجة أنني كنت التهم أصابعي وراءها. لكن المحاشي اليوم رديئة الطعم. لم تجدي الوقت الكافي للطبخ على الأغلب».

السيدة منوّر: «نعم، أنا آسفةٌ حقاً. لم أنتبه لذلك. يا إلهي. كنت أساعد الأطفال في دروسهم أثناء طهي المحاشي. يبدو أنها طُهيت أكثر من اللازم».

الزوج: لا بأس عليكِ.

السيدة منور: «سأعد طعاماً آخر فوراً. سأستخدم مهارتي في الطبخ».

في نهاية هذا الحوار الثاني، تعد السيدة منور المائدة في المطبخ. ينام الأطفال في تلك الأثناء. تضع السيدة منور إلى جانب الزيتون والجبن البيض المقلي الذي يحبّه زوجها كثيراً. تطفئ الأنوار الزائدة ويتناولان الطعام على ضوء الشمعة. هكذا تنقلب المشكلة إلى مناسبة جميلة.

اللغة المستخدمة هي الفارق الرئيسي بين الحوارين. في الحوار الأوّل هناك تواصل سلطوي وتهجمي وحتى امتهاني يتجاوز الغاية المأمولة منه ويأخذ منحى لا داعي له، والأهم من ذلك أنه يبتعد عن أصله. بينما كان الخطأ والعيب في المحاشي انعكس الخطأ على من طبخها. وبعد فترةٍ نُسيت المحاشي، أي الخطأ والعيب الأساسي. وضع الزوج شخصيّة السيدة منوّر على المحك فوراً، واتهمها بالتقصير. تصرف وكأن السيدة منوّر هي المخطئة والرديئة، وليس المحاشي. تحولت المحادثة إلى صدامٍ متبادلٍ. لأن الشخصيّة هي من تعرضت للانتقاد وليس التصرفات. السلوك السيئ جلب سلوكاً سيئاً.

أما في الحوار الثاني فهناك شيئان انفصلا عن بعضهما بحدود واضحة. *المحاشي والسيدة منوّر. المحاشي هي منتج، هي نتيجة، هي سلوك. ومن صنعه هي السيدة منوّر. الرديء والخاطئ هنا هو المنتج أي السلوك، وليس السيدة منوّر.*

من أي فئةٍ أنت؟

والآن راجعوا صورتكم في حالات التواصل. في أي فئة من الحوار تجدون أنفسكم أكثر؟ تتمتع الإجابة الموضوعيّة التي تقدمونها بأهميّة كبيرة.

تكشف الدراسات أن الخلط بين الشخص وسلوكه يلعب دوراً مؤثراً في مشاكل التواصل وعدم التوافق في معظم الأحيان. أي أننا نحاكم شخصيّة فردٍ ما على سلوكٍ لا نرغب به. يؤدي هذا النوع من التواصل إلى عدم التفاهم وليس إلى التوافق. ويفسد ذات بين الأشخاص، وينشئ جواً من عدم الثقة، ويقضي على التفاهم.

تنجم مشاكل التواصل في معظم الأحيان عن عدم الثقة والعجز الشخصيّين. وهي نتيجة كسلٍ وحلقةٌ مفرغةٌ شخصيّين. ينبغي أن يكون هدفنا التعبير عن أنفسنا. يتطلب التعبير عن النفس القوة والشجاعة وبذل الجهد والتسامح. الصدام أسهل بكثيرٍ. حسبكم كلمةٌ لا تروق لسامعها وسلوكٌ لا داعي له. حتى نتمكن من النجاح في ذلك لا بد من تجاوز عقبة «الأنا».

تشير الدراسات أيضاً أن من يضعون أنفسهم وثوابتهم في مركز التواصل لا يمكنهم النجاح. *من يحققون النجاح هم من يضعون المخاطب والأجندة المشتركة في مركز التواصل. ليست بيئة التواصل ساحة من أجل*

تحقيق التفوق. التواصل هو فن التفاهم المتبادل. حتى كلمة واحدة نستخدمها في التواصل يمكن أن تؤدي إلى نتائج مختلفةٍ تماماً.

ما أروع قول الشاعر المتصوف يونس:

«**كلمةٌ تنهي حرباً، كلمةٌ تشفي جرحاً**

وكلمةٌ تحيل الطعام السامّ عسلاً»

وينبغي ألا نغفل عن الحكمة القائلة: «إن الرثيئة تفثأ الغضب».

الاحترام رسالةٌ ذات مضمونٍ وظرف

نواجه صعوبات في ضبط جرعة الاحترام في العلاقات الإنسانيّة، وخصوصاً داخل الأسرة.

أجريت مقابلةً مثيرةً للاهتمام مع شابٍ متعلمٍ في السادسة والعشرين من عمره. كان هذا الشاب ولي عهد أسرةٍ نقدم لشركتها العائليّة خدماتٍ استشاريّةٍ، وهي أسرةٌ معروفةٌ ولديها علاماتٌ تجاريّةٌ. درس الشاب المرحلتين الثانويّة والجامعيّة في الولايات المتحدة. كانت الأسرة تعتقد أنها قامت باستثمارٍ شديد الأهميّة. ما أن عاد حتى عينته في منصب نائب المدير العام في الشركة العائليّة.

لنستمع الآن إلى شكوى الشاب: «أستاذي، في البيت أنا وأبي معا، وفي العمل أبي المدير العام وأنا نائبه. نكاد نمضي وقتنا كله مع بعضنا. ما تعلمته في الخارج لا يتوافق مع ما يدور في الشركة. لست أدري ما إذا كانت المشكلة فيّ أنا. لكن لا أستطيع التفاهم مع الموجودين في بيئة العمل وعلى رأسهم أبي. وكأننا لا نتحدث اللغة نفسها..».

«ما يلفت الانتباه أكثر هو أننا لا نستطيع التفاهم في البيت أيضاً. على سبيل المثال أكثر عبارةٍ يرددها أبي هي أنني غير مؤدبٍ. في الحقيقة أنا شخصٌ منسجمٌ. أحب أسرتي وأمي وأبي كثيراً. كما أنني لست شاباً بعيداً عن أسرته. لكن ما يفهمه أبي من الاحترام هو أن أنهض عندما يدخل وأن أترك له مكاني. وأنا لا أفكر بهذه الطريقة. أليس الأساس هو الاحترام الكائن في الصميم؟».

تأثرت بهذا الحديث. ثم شبهت الاحترام برسالةٍ وحاولت أن أوضح له الأمر.

نعم، يمكننا أن نشبه الاحترام برسالة. هناك مرسلٌ ومستقبلٌ للرسالة. ينطبق الأمر على الاحترام. هناك مضمونٌ في الرسالة. المهم هو هذا المضمون. لكن الظرف هو من يحمل هذا المضمون. ينبغي أن يكون الاحترام من الصميم. وينبغي أن يكون رسالةً موجهةً من قلبٍ إلى آخر، وتبادلاً للمشاعر. ينبغي أن يكون المضمون في الاحترام توافقياً. يجب أن لا يقهر طرفٌ الآخر وألا يطغى عليه. وللأمر جانبٌ يتعلق بالحجم على غرار الفارق بين ظرفٍ تضعون فيه رسالة غرامٍ وظرفٍ تضعون فيه رسالةً تتعلق بالعمل. ليس مستحبّاً وضع رسالةٍ صغيرةٍ في ظرفٍ كبيرٍ أو العكس.

يترك الصغار أماكنهم للكبار في الأسرة بالأناضول. يُراعى الأدب في حضور الكبار. على سبيل المثال، الجلوس بشكلٍ مهذبٍ أكثر وعدم التدخين، وحتى عدم إبداء اهتمامٍ أكثر من اللازم بالأطفال.

الاحترام في العلاقات بين الأفراد إجباريٌ أكثر منه ضروري. من المهم هنا أن يكون حس الاحترام الصادر من الصميم منسجماً مع السلوك الذي يعبر عنه، أي مع حالة الجسد.

بالنتيجة، للاحترام ناحيته الجسديّة. تولي المجتمعات الشرقيّة على وجه الخصوص أهميّةً لشكل الاحترام أي للتعبير الجسدي له بقدر مضمونه. أقام الوريث الشاب للشركة العائليّة سنواتٍ طويلةً في الولايات المتحدة، وابتعد بعض الشيء عن ثقافة الأسرة المحليّة. يواجه صعوبةً في الانسجام على الرغم من أنه حسن النيّة.

أوجه السؤال التالي في محاضراتي: «ما هي المؤسسات الأطول عمراً في العالم؟». قلة من الأشخاص تتمكن من تقديم الإجابة الصحيحة. يمكنكم حالياً أن تتوقعوا ما هي.

المؤسسات المعمرة في العالم

المؤسسات الدينيّة ونظيرتها العسكريّة هي الأطول عمراً بين المؤسسات التي أقامها الإنسان على وجه الأرض. هناك بعض الاختلافات في الشكل والوظيفة، لكن تواجدت المؤسستان الدينيّة والعسكريّة دائماً على مر التاريخ الإنسانيّ.

فكيف حافظت هاتان المؤسستان على وجودهما يا ترى؟ هناك الكثير من القواعد والانضباط والاستمراريّة في كلا المؤسستين. والأهم من ذلك هو أن أسباب ومسوغات القواعد ليست محل مساءلةٍ ومحاسبة. نركز باستمرارٍ على هذين النموذجين فيما يتعلق بأهميّة القواعد في رحلة مأسسة الشركات العائليّة على وجه الخصوص. على سبيل المثال، تؤدى التحيّة في الحياة العسكريّة إلى الرتب الأعلى. هناك شكلٌ محددٌ لهذه التحيّة. علاوة على ذلك يكون هذا الشكل واضحاً من خلال معايير موضوعيّة وتعابير دقيقة.

على غرار ذلك، لكل منظومة عقيديّة عباداتها الخاصة بها. هذه القواعد ليست محل نقاش، وإنما يتم تقبلها وتطبيقها كما هي.

أي أن هناك حاجةً للممارسات الشكليّة والجسديّة من أجل الإبقاء على الاحترام كمحتوى وجعله مستداماً. وإذا كان لنا أن نسقط ذلك على السلوكيات اليوميّة فإنه لا ضرر من إبداء الاحترام الذي نكنه للكبار ولمن هم في مواقع معينة، وإنما له فوائد.

عندما كنا نتجول في مقبرة شهداء جناق قلعة روى الدليل حادثةً وقعت خلال المعركة.

حمل الأعداء بكل قوتهم على جيشنا الذي كان أقل منهم عدداً. ذات مساء عندما توقف إطلاق النار، كان قائد الخدمات الصحيّة يجمع برفقة الجنود تحت إمرته جثث الشهداء. حزن القائد كثيراً عندما رأى جندياً سقط مكانه بعد أن قطعت رجلاه. ولما أمعن النظر أدرك أن الجندي ما يزال حياً. رأى الجندي قائداً أعلى منه رتبةً أمامه فحاول النهوض على رجليه اللتين فقدهما. لم يتخل عن الاحترام حتى وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت.

ما هو الاحترام؟

هذا هو الاحترام الخالص، الذي يميز الإنسان والإنسانيّة. الاحترام هو ملاط الأرواح الساميّة البعيدة عن كل تطرفٍ وخداعٍ، وبفضله نتجاوز كل العراقيل. هذا الاحترام هو الشرط المسبق للحب، وهو أساسه ومرشده.

والآن، لنفكر بعصرنا هذا. لننظر إلى مفهوم الاحترام اليوم. لننظر إلى من نحترمهم وكيف ولماذا، وإلى من نبخل عليهم باحترامنا. نرى مع

الأسف أن الاحترام لدينا يتلاشى بسرعةٍ. ينسحب الاحترام من ثيابنا وكلامنا وآدابنا على غرار تلاشيه من تصرفاتنا. بل أصبح من الممكن للتهذيب أن يكون موضع سخريّةٍ على خشبة المسرح.

تحدثت قبل ٢١ عاماً مع **الأستاذ الدكتور يحيى أقيوز**، عميد تاريخ التربيّة التركيّة. طُبع كتاب الأستاذ «تاريخ التربيّة التركيّة» للمرة السادسة عشرة، وهو الكتاب الأساسي الوحيد في مجاله[1]. استمتع بتعلم أشياء جديدة منه كلما التقينا. في أحد لقاءاتنا، ضرب مثلاً عن تلاشي الاحترام فقال: «كان الطلاب والمدرسون على حدٍ سواء يلبسون ربطة العنق. كان الجانبان يتعاملان بحساسيّةٍ كبيرةٍ في مسألة الاحترام. أما الآن فالطلاب لا يلبسون ربطة العنق. كما أن المعيدين أيضاً لا يرتدونها».

ينبغي علينا ألا ننسى بأن الاحترام هو الإصغاء سعيا للفهم. هو التعلم حتى نقدر على النقل إلى الآخرين. هو تقبل النقد حتى نقدر على توجيه الانتقاد. الاحترام هو أولاً العطاء. والالتزام بالقواعد. الاحترام هو التسامح مع الفوارق والاختلافات، هو التسامح معها وتقبلها من أجل تفادي التهميش. هو عدم الانجرار وراء هاجس الأنا. الاحترام هو القدرة على النظر بعين القلب، ليس إلى الإنسان فحسب، بل إلى كافة الأحياء والجمادات والأشياء والطبيعة.



١ – ي. أقيوز. تاريخ التربيّة التركيّة (الطبعة السادسة عشرة) منشورات بيغيم، أنقرة ٢٠١٠.

دورنا على مسرح الحياة

لا يصبح الناس سعداء وناجحين بشكلٍ عامٍ من خلال وضع أنفسهم وذواتهم ومتعهم ورضاهم في صميم أدوارهم. لأن المشاهدين ومن هم حولكم لا يرضيهم أن تلعبوا دوركم من أجلكم ولأجلكم.

الحياة مسرحٌ كبيرٌ نصعد إلى خشبته لفترةٍ معينةٍ. إنها فترةٌ زمنيّةٌ مسروقةٌ من الموت بمعنى ما. نلعب هنا الدور المكتوب لنا. بعضنا ملكٌ والآخر مهرج. بعضنا منتجٌ والآخر مستهلك. قبل العرض الرئيسي في المسرح هناك المئات من البروفات. لكن ليس هناك بروفةٌ على مسرح الحياة. يُدق جرس مسرح الحياة وترفع الستارة مع الولادة. وتُضاء أنوار المسرح التي تسلط الضوء على الممثلين وأدوارهم.

المسألة المهمة هنا هي من أجل من نقدم مسرحيّة الحياة الوحيدة التي ليس لها بروفة ولا يمكن تصحيحها أو تمثيلها مرةً أخرى؟ هل نمثل دورنا من أجلنا أم من أجل المشاهدين الذين يتابعوننا بدقةٍ؟ أي هل الغاية هو أن نكون راضين عن مسرحيتنا؟ أم أن هدف المسرحيّة هو كسب إعجاب الآخرين؟ تؤدي قوة واستمرار التصفيق إلى استمرار المسرحيّة والممثل.

لأجل من نلعب دورنا؟

المهم هو لأجل من وكيف نلعب كل أدوارنا المكتوبة لنا في هذه الحياة الدنيا القصيرة. غير أن لعب الدور بحبٍ وحماسٍ، وليس بلا مبالاةٍ، له تأثيرٌ في النجاح المتحقق. إن تأديّة حق عملنا ودورنا، سواء أقمنا بعملٍ إداريٍّ كبيرٍ أو عملٍ بسيطٍ، ترضي المشاهدين وترضينا على حدٍ سواء. **بذلك تكون إدارة دورنا بأيدينا.**

أقول في كتابي «رحلة قلب: القيادة الخادمة»، من خلال أمثلةٍ، إن كل واحدٍمنا يتمتع بموهبةٍ قياديّةٍ بقدرٍ قليلٍ أو كثير. لكن بينما تنقل هذه الموهبة البعض منا إلى مستوياتٍ رفيعةٍ، يفشل البعض الآخر منا.

أؤكد في كتابي «الشركات العائليّة»[1] خصوصاً على أن الناس يسعون إلى الاهتمام والقرب والتواصل الصادق في عصرنا الذي بلغت فيه اللامبالاة أوجها.

الحياة الدنيا هي مسرحٌ حقيقي. ليس بأيدينا بدء وانتهاء دورنا. كما أنه ليس بيدنا تحديد تاريخ ولادتنا ووفاتنا، وجنسنا وطولنا ووزننا ولون عينينا وما شابه من صفات. معظم ما نعيشه في مسرحيّة الحياة ليس بأيدينا. الحياة والمسرح والدور لنا لكن قدرتنا على إضفاء أشياء على دورنا محدودة. إذن ما هو الذي بأيدينا وإن كان محدودا؟ *ما بأيدينا هو تأديّة حق دورنا. هو صنع الفارق مهما كان عملنا وموقعنا ومستوانا التعليمي. إضفاء لونٍ وإكساب بعدٍ وإضافة جمالٍ. الهدف باختصار هو إيصال دورنا إلى العمق الإنسانيّ.*

١- إ. فندقجي. الشركات العائليّة (الطبعة الثالثة). منشورات ألفا، إسطنبول ٢٠٠٩.

كنت أعمل في ورشات البناء في عطلة نهاية الأسبوع والإجازات الصيفيّة حتى السنة الثانيّة من الدراسة الجامعيّة. كان إخوتي الكبار يعملون مقاولين في حدادة البناء. أحياناً أقول مازحاً في محاضراتي: «إذا ساءت أوضاع العمل فلدي مهنة حدادة البناء». لكن أود التأكيد على وجه الخصوص أن هناك تأثيرات بناءةٌ جداً لتعلم مهنةٍ ما أو القيام بعملٍ ما في سنين الطفولة والشباب حين يتعلم المرء الحياة، وخصوصاً إذا تعلم مهنةً إلى جانب معلمٍ. كونوا على ثقةٍ أن هناك مكاسب كثيرة تفوق مجرد تعلم مهنةٍ ما. تتعلمون الحياة والممارسة والتطبيق والعلاقات الإنسانيّة في وسطها الطبيعي، وأنتم تعيشونها علاوة على ذلك. لهذا نقترح أن يكون الجيل الجديد من الشباب في الشركات العائليّة في خضم العمل قدر الإمكان بدءاً من سنوات الدراسة. ونطلب أن يعملوا في مؤسسةٍ أخرى لفترةٍ معينةٍ قبل بدء العمل بشكلٍ كامل في شركتهم العائليّة.

اشتغلت مع الكثير من المعلمين خلال عملي في مجال البناء. جميعهم يعملون وجميعهم يكسبون المال وجميعهم يجتهدون اليوم كله. لكن البعض منهم كان مختلفاً. كان هناك من يقومون بعملهم بكل طاقتهم ليتجاوزوا فكرة العمل من أجل العمل وتمضيّة الوقت وتسجيل الأجرة اليوميّة. أذكر أن هناك من كانوا يناقشون صاحب البناء قائلين إن هذا هو أداء حق العمل.

أنظر إلى هؤلاء المعلمين اليوم وقد مضى على ذلك ٢٢ عاماً تقريباً. ما أراه هو التالي: ابتلعت الحياة من لم يحسنوا عملهم ورمتهم في إحدى الزوايا. لم يتطوروا ولم يطوروا أنفسهم، يستمرون في أداء أعمالٍ تافهةٍ. أما من أدوا

حق عملهم وثابروا وبذلوا الجهد فقد قطعوا شوطاً بعيداً. طوروا ولونوا أدوراهم على مسرح الحياة. من كانت تطلعاته كبيرة حقق تقدماً.

ما أريد قوله هو أن من اجتهدوا من أجل منح الناس شيئاً ماً ومن أنتجوا من أجل الناس، حصلوا في المقابل على الشيء الكثير من الناس. أما من انشغلوا بأنفسهم فقط فلم يحظوا بتقدير من حولهم. إذا أعطيتم الحياة شيئاً فإن الحياة لا تتخلى عنكم، وتمنحكم ما تستحقون.

الأخ الأكبر يواصل التذمر والأصغر يواصل العمل

نطلب أحياناً من الحياة أكثر مما نعطيها، عن وعي أو بدون وعي. لا تنسوا أن الحياة هي ساحة كفاحٍ. كما قلنا، هي خشبة مسرح. على غرار مقولةٍ شائعةٍ في الأناضول: «**يجني الإنسان ثمار ما يزرع**»، تنظر إليكم الحياة كما تنظرون إليها. بقدر ما تأخذون الحياة على محمل الجد وتثابرون وتجتهدون فيها، بقدر ما تنتج الحياة بدورها قيمةً مضافةً من أجلكم. أو على الأصح، ما تقدمونه للحياة يعود إليكم على شكل طريقٍ وماءٍ وكهرباء.

بيد أن معظمنا في موقع الطلب المستمر دون تقديم شيءٍ للبيئة والإنسان والإنسانيّة. بل إننا نتجاوز الطلب لنبلغ حد الانتقاد. نطلب وننتقد باستمرارٍ دون النظر إلى أنفسنا وإنتاجنا.

كان هناك أحد معارفي يملك ورشة ألبسةٍ جاهزةٍ. عندما توفي الوالد قبل ١٥ عاماً، فصل الأخوان عملهما. كان الأخ الأكبر ذو طبيعةٍ تعشق الكلام ولا تحبّ العمل كثيراً. منذ صغره وهو مولعٌ بإشباع أهوائه. كان من

مرتادي المقاهي ويجيد كل الألعاب فيها. أما الأخ الأصغر فكان دائب العمل. إلى جانب عمله واجتهاده في المحل، كان يتقن الكثير من المهام في البيت أيضاً. كلاهما خريج المدرسة الابتدائيّة.

قسم الأخوان ورشة الملابس الجاهزة إلى قسمين. بدأا خياطة الملابس بخمس ماكيناتٍ لكل منهما. تابعتهما خلال الفترة التي مضت. وكنا نتحدث من حين لآخر. كان الأخ الأكبر يشتكي كلما رأيته: «لدينا مشاكل مع بائعي القماش، أسعار الملابس انخفضت، السوق الصينيّة أصابتنا في مقتل، من غير الممكن أن نصبح علامةً تجاريّةً، الأزمة الماليّة قضت علينا، لم يعد ممكنا القيام بهذا العمل..». كان الأخ الأصغر قليل الكلام كما هو الحال دائماً. لكن عندما يتكلم يلقي الكثير من الأسئلة، ويستشير. أحياناً يتصرف خارج إطار النصيحة، ولكنه يسأل.

توفي أحد أقاربهما في العيد الماضي، فذهبت لزيارتهما. كان محل الأخ الأكبر على حاله. كان اللون البرتقالي للافتة المعلقة منذ ١٥ عاماً شاحباً والدهان متساقطاً. لديه ١٥ ماكينة، ويخيط الملابس بأسلوب التعاقد داخل تركيا. أما الأخ الأصغر فانتقل من منطقة غازي عثمان باشا إلى منطقة إيكي تللي (إسطنبول). ينتج الملابس والقمصان في مساحةٍ مغطاةٍ تبلغ ٣٠٠٠ متر مربع. يصدّر علامته التجاريّة الخاصة إلى رومانيا وبلغاريا. وفي الوقت نفسه يخيط طلبيات بطريقة التعاقد الداخلي. ما لفت انتباهي هو أنهما لم يتغيرا أبداً. **الأخ الأكبر يواصل التذمر، والأصغر يواصل العمل.**

يمكن أن تقولوا الآن إن نصيبهما هكذا، وإن قدراتهما مختلفة. نؤمن بالنصيب والقدر وفارق المقدرات، لا شك أن لكل ذلك تأثير في هذه

النتيجة. لكن هل يمكننا القول إنه ليس هناك تأثيرٌ لجهود الناس في المكانة التي يصلون إليها في الحياة؟ لا يصبح الناس سعداء وناجحين بشكلٍ عامٍ من خلال وضع أنفسهم وذواتهم ومتعهم ورضاهم في صميم أدوارهم. لأن المشاهدين ومن هم حولكم لا يرضيهم أن تلعبوا دوركم من أجلكم ولأجلكم. الأهم من ذلك هو أنكم لن تكسبوا إن لم تعملوا.

علينا تأدية حق إرادتنا

لا تنسوا أن هذا الدور أيضاً مؤقتٌ على غرار هذه المسرحيّة التي لا تتكرر. ستنتهي المسرحيّة ذات يومٍ، وتُطفأ الأضواء، سيلاحظنا المشاهدون. عندها لا أهميّة للأعذار. لذلك لا تفوتوا فرصة الحياة بينما هي في أيديكم وفي نطاق سيطرتكم. ينبغي أن تعيشوا من اللحظات الأولى حتى الأخيرة، وأن تؤدوا حق إرادتكم.

لاحظوا أننا نبدأ الاعتياد على الحياة ونحن في بطون أمهاتنا. نسعى إلى فهم الحياة ونحن نحبو في سن الرضاعة. نمضي قدماً في لعب أدوارنا من خلال التعلم الغزير في الطفولة، والتأثير في مرحلة الشباب، والإنتاج حين نصبح بالغين راشدين، وأخيراً الاستهلاك في مرحلة الشيخوخة.

إرادة تفسير الحياة أو البقاء على هامشها

معظمكم يعرف مسرحيّة «حياة مخمليّة». إن لم تشاهدوها فأنصحكم بمتابعتها. عرضت هذه المسرحيّة الممتعة لأكرم رشيد راي، على مدى سنوات في مسارح المدينة. لعب فيها الكثير من الممثلين الكبار أدوراً رئيسيّة. لكن المسرحيّة تجسدت مع سونا بيك أويسال.

هل هناك دورٌ تلاحمتم معه في هذه الحياة القصيرة؟ هل هناك دورٌ تقدمون من خلاله مزاياكم وحريتكم وجمالكم واهتمامكم وحبكم لإسداء الخدمات؟ هل هناك من هذه الناحية ميزةٌ لكم تبقي ذكراكم محفورة في الأذهان؟ أم أنكم طالبٌ أو أمٌ أو أبٌ أو موظفٌ أو عاملٌ أو طبيبٌ أو محامي أو مزارعٌ عادي؟ نحترم عمل الجميع، لكن هل يجعلكم الابتذال وسط الحشود ممثلاً ثانوياً لا لون ولا نور ولا عمق له؟ في هذه الحالة تصعدون إلى خشبة مسرح الحياة وتمثلون ثم ترحلون. هذا كل شيء. لن ترضوا أحداً بهذا الدور، وفي الطليعة أنفسكم.

مسرحيّة الحياة هي في الواقع عمليّة فهمٍ وتعلمٍ. ستكونون متميزين بفضل إرادة إجبار أنفسكم على رؤية ما ستقدمون عليه بعد ثلاث حملات، من الآن.

أكدنا فيما سبق أن الكثير من المتغيرات المهمة ليست بأيدينا، أي أننا لا نستطيع التحكم بها. لكن ما الذي في أيدينا؟ ما نملكه هو جعل دورنا متميّزاً عن طريق إرادتنا، وتخليص النتائج من الابتذال، والابتعاد عن أن نكون لوناً محيراً. لذلك يجب علينا التفاعل بكل جوارحنا مع الحياة ودخول معتركها. علينا أن نواجه الحياة ونحن في مجرى نهرها، وليس على ضفته، وعلينا أيضاً أن نضع في حسباننا المخاطر التي تقتضيها هذه المواجهة. أي أنه علينا أن نمتزج في هذه الحياة كما يذوب السكر في الشاي. ينبغي علينا بذل الجهد لتجنب إطلاق الأحكام عن بعد، واتخاذ موقفٍ يركز على الانتقاد فحسب، والتجول في عالمٍ يرفض كل شيء، والجمود في عالمٍ يعترض على كل شيء، والتخلص من الابتذال الذي

يجعل المرء أعمىً وأصماً وأبكماً. ينبغي علينا أن نستطيع مخاطبة الحياة قائلين: «أنا هنا ومستعد»، وأن تكون لنا كلمة.

حتى الحجر يضفي لوناً على العالم
«حجر يحمل خبراً من الماوراء»

لست أدري إن كان الأمر قد لفت انتباهكم، لكن ينبغي عدم الاستهانة بالأحجار على وجه الأرض. لدي اهتمامٌ خاصٌ من الماضي بالأحجار، بل كانت لدي مجموعةٌ صغيرةٌ منها. أحجار من بلادنا ومن مناطق مختلفة من العالم. عندما ننظر إلى حجرٍ واحدٍ نقول إنه «حجرٌ عادي». لكن عند النظر إلى بضعة أحجارٍ ندرك الفوراق بينها. بعضها دائري وبعضها الآخر مفلطح، بعضها لونه بنيٌّ غامق والآخر من تدرجات اللون الأزرق وثالثٌ أبيض كبياض الثلج. بعضها خشنٌ يخدش اليد، والآخر ذو سطحٍ أملس زلق. *وكأن كلاً منها يوجه رسالةً مختلفة. حتى الحجر يضفي على هذه الدنيا لوناً وحلاوةً وتميزاً. يقول «أنا موجود». يكسب العيون الناظرة إليه شعوراً. وربما يعزف لحناً، ويحمل خبراً من الماوراء لمن يستمع بقلبه. وماذا عنا نحن؟ ماذا نفعل؟ هل يمكننا أن نكون على قدر الحجر على الأقل؟*

عند الحديث عن الأحجار تبادر إلى ذهني معلم بناءٍ بالأحجار. أعتقد أن الحادثة وقعت قبل بضع سنوات. كنا نعيد بناء جدران حديقة المنزل في القرية بالأحجار والإسمنت. كانت أحجاراً كبيرةً جداً تخرج من بعض الأماكن في الجدار القديم. كان من الصعب جداً تحريكها، وتوجّب

تكسيرها من أجل استخدامها في الجدار الجديد. استخدمنا الأحجار متوسطة الحجم بطريقةٍ ما. لكن لم نجد حلاً لحجرٍ ضخمٍ وجميلٍ وأبيض اللون كان في الوسط تماماً. حاول الكثير من الأشخاص كسره. طرقوه بالمطرقة واستخدموا القوة لكن لم يفلحوا. بعد ذلك قال الجميع: «المعلم يمكنه أداء هذه المهمة»، واستدعوه.

كان المعلم شاباً نحيلاً متوسط الطول ضعيفاً بالمقارنة مع الموجودين. لم يمسك المطرقة فوراً ويبدأ الطرق كما فعل الآخرون. تفحص الحجر أولاً. لمسه، وانحنى لينظر أسفله وعن يمينه وعن شماله. وسط النظرات الفضوليّة طلب تحريك الحجر إلى اليسار قليلاً. ودعمه بأحجارٍ صغيرةٍ من الأسفل. ثم ماذا حدث؟ وجه الرجل الأصغر والأضعف من الحجر ضربةً إليه بالطرف الحاد من المطرقة. كأنه يرسم خطاً طولياً من الأعلى إلى الأسفل. لم يكن أحد يتوقع التوصل لنتيجة. بعد فترةٍ قصيرةٍ انفلق الحجر من الوسط تماماً إلى قسمين. وبشكل منتظم. واصل الطرق، فانقسم كلا الجزئين بالطريقة نفسها إلى قسمين. ليست المهارة في القوة في معظم الأحيان. الذكاء والمواهب والمهارات والتجارب مهمة. حتى يبرز دورنا في الحياة يجب أن نكون مميزين ومهرة ومتعمقين في مجالٍ واحدٍ على الأقل.

معرفة أنفسنا

فهم وجودنا على مسرح الحياة هو أهم عمل لنا جميعاً، وإن لم نبدِ مؤشراتٍ على ذلك. في عالمٍ تخيم عليه المعاني نمضي عمرنا من أجل الإمساك بها ونسبتها لأنفسنا. *السيطرة على عالم المعاني المترامي الأطراف هذا مهمةٌ*

جداً في الواقع من أجل هدفنا المتمثل بمعرفة واغتنام أنفسنا. في الحقيقة، معرفة النفس هي الهدف الرئيسي لدور الإنسان في الحياة.

بدأ مستوى الإدراك بخصوص معنى الحياة مع **سقراط**، وامتزج مع التيارات الدينيّة المختلفة، وفي نهاية المطاف تم تناوله بشكلٍ موضوعي مع تحوله إلى فرعٍ من علم النفس. وهكذا أصبح الإنسان، بوصفه العالم الأصغر، يعشق جر العالم الأكبر أو العوالم إلى نطاق الإدراك. بموجز العبارة، نسعى إلى فهم وتفسير أنفسنا انطلاقاً من بيئتنا، ونعمل على فهم وتفسير بيئتنا وعالمنا وكوننا والماوراء وماوراء الماوراء انطلاقاً من أنفسنا.

ومن خلال عمليّة التعلم هذه كلها، نحاول التخلص من غربتنا ويتمنا على حد التعبير الرائع لمولانا جلال الدين الرومي، ومن عزلتنا على الأرض بحسب قول سي. جي. يونغ. وبالنتيجة فإن البعض منا يقطع شوطاً كبيراً في رحلة فهم ومعرفة نفسه، بينما لا يكفي العمر لدى بعضنا الآخر من أجل بلوغ هذا المعنى.

أنت بطل مسرحيّة حياتك

اغنوا وجمّلوا وحسّنوا الحياة بوجودكم من أجل أنفسكم والآخرين. وليرافقكم الحل والتسامح والوحدة والنظرة الإيجابيّة وحافز النجاح المرتفع، في الأوساط التي تتواجدون فيها. احموا أنفسكم من الأحكام المسبقة الدافعة إلى التعلق بـ«الأنا»، ومن خسوف العقل، ومرض الأنانيّة، وانعدام التواصل.

لا تنسَ أنك لست ممثلاً عادياً في مسرحيّة يتم عرضها بشكلٍ مستمرٍ. أنت بطل مسرحيّة الحياة على خشبة مسرح الدنيا وتلعب فيها دورك. ينبغي أن تكونكما أنت حقاً على هذا المسرح. ينبغي أن تتمكن من تقديم نفسك للناس والإنسانيّة بكل ما تمتلكه من بنى تحتيّة ومقدرات. إذا كنت تلعب الدور الذي يرغب به من هم حولك دائماً، وليس دورك، إذا كنت نسيت نفسك وتلعب دور الشخصيّة المطلوب منك، عندها ستعيش صراعاً على خشبة المسرح. وهو صراعٌ داخلي.

يبعدك الصراع الداخليّ عن نفسك أولاً، ومن ثم عن الآخرين. ويتركك في عزلةٍ وغربة.

يبدو الاغتراب وقد تبوأ موقع الصدارة بين أهم مشاكل عصر المعلومات. وليست الإنسانيّة بعيدةً في الأساس عن مفهوم الاغتراب. فهي تعيش حالة اغترابٍ في كل عصر تحولٍ اجتماعي.

انتقل الناس من حياة البدو إلى الحياة الحضريّة مع تحول الإنسان القديم إلى مجتمع الزراعة، وهنا عانوا من حالة اغتراب. ثم اغتربت الإنسانيّة مجدداً مع الانتقال من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي، لأنها ابتعدت عن الأرض وأصبحت تابعةً للآلة. ولأن وسائل الإنتاج تغيرت، عاش الناس حالة اغترابٍ عندما فقدوا السيطرة على مراحل الإنتاج بشكلٍ كاملٍ، وأصبحوا مسيطرين على جزءٍ منها.

وفي نهاية المطاف، ننتقل من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات. بدأ الناس بالابتعاد عن الحياة الطبيعيّة والاغتراب عن أنفسهم كما لم يحدث في أي عصرٍ من العصور السابقة، مع السرعة الرهيبة لتزايد المعلومات والتواصل والوصول. وهكذا أصبح الإنسان في عصرنا منجراً وراء تطرف النظرة الماديّة المجرّدة. أصاب الضعف جانبه الشعوري وخصوصاً الروحيّ. تمزقت وانهارت قيمه الإنسانيّة. *تسارع التهميش كلما ترسخت الفرديّة في مركز الحياة، وأنا مضطر للقول آسفاً إن الإنسانيّة تخلفت. ضعُف معنى «النعمة» التي هي قيمة أساسيّة.*

نرى ذلك عندما نتمعن في محيطنا بنظرةٍ موضوعيّةٍ أو عندما نشاهد نشرة الأخبار على التلفاز. نرى أن الناس أو الأطفال أو الشباب أو البالغين أو المسنّين، الذين يلعبون دوراً بسيطاً ومتواضعاً على مسرح الحياة، قادرين على أن يتحولوا إلى آلةٍ وحشيّةٍ. في الحقيقة، لا داعي للذهاب إلى مكانٍ بعيدٍ لرؤية هذه المشاهد. *من الممكن أن نرى هذا الاغتراب من مكانٍ لآخر على المستوى الشخصيّ والمجتمعي معاً في بلدنا الذي ولّى وجهه شطر الغرب وقطع شوطاً طويلاً في هذا الطريق.*

يجب أن نقدر على فهم وتفسير موقعنا في عالم الموجودات. لذلك هناك حاجةٌ إلى العمل على أنفسنا وتمحيصها. وعند تقييم حياتنا، يتعين علينا **توسيع ما تحت وعينا**، الذي يوفر لنا وجهة نظرٍ مختلفةٍ على الرغم من النقاش الكثير الدائر حول **فرويد** في الأعوام الماضيّة. سيكون هذا التقييم ناقصاً إن نظرنا إلى حياتنا ومعيشتنا من زاوية واحدة ووضعنا أنفسنا في المركز. *وبعبارة أخرى، يجب علينا أن نقيّم حياتنا، بصفتها نطاقاً للوجود، من خلال نظرةٍ حيّةٍ ومتجددةٍ، وكأن الحياة تولد مجدداً في كل لحظة. ينبغي أن نضع استدلالاتٍ جديدةٍ في كل لحظة. وهذا يقتضي نظرةً داخليّةً بخصوص أنفسنا.*

يتطرق علم النفس الحديث إلى أهميّة تطوير البصيرة حتى يعرف الفرد نفسه بشكلٍ أفضل ويلتقي معها. في الواقع، أكد فلاسفة الشرق والشرق الأقصى على وجه الخصوص، قبل مئات الأعوام على أهميّة معرفة المرء نفسه. تناول **كونفوشيوس** و**ابن سينا** و**الفارابي** وخصوصاً **الغزالي** مقولة إن فهم العالم يمر عبر فهم أنفسنا، على نحوٍ يسلط الضوء على عصرنا.

يؤكد كل هؤلاء الفلاسفة على أنه إذا لم نفهم أنفسنا فلا يمكننا التصالح مع دورنا في الحياة، وسنواجه مشاكل نفسيّة. حتى يتمكن الناس من فهم وتفسير الحياة التي يعيشونها من الضروري أن يجدوا موقع أنفسهم في هذه اللانهاية. والأفراد الذين لا ينجحون في إيجاد موقع أنفسهم يصعب عليهم أن يكونوا في انسجامٍ وسلامٍ مع حياتهم.

«الدنيا خشبة مسرحٍ،
وجميع الناس ما هم إلا ممثلون،
يدخلون ويخرجون،
وجميعهم يلعب الكثير من الأدوار»

ويليام شكسبير

أناسٌ صغارٌ في معابد كبيرة

منذ طفولتي كان لدي اهتمامٌ خاصٌ تجاه المعابد. كما يلفت انتباهي بقدر المعابد، الناس الذين يؤدون عباداتهم داخلها. نرى أن طراز المعيشة والمعتقدات والمعابد في تفاعلٍ متبادلٍ سواء على صعيد الفرد أم على صعيد المجتمع. تتمتع المعتقدات الدينيّة والمعابد بالأهميّة من ناحية الصحة النفسيّة للفرد والمجتمع ومن ناحية الانسجام مع الحياة في آنٍ معاً.

على سبيل المثال، عندما تنظرون إلى مساجد العهد السلجوقي ترون أنها أكثر تواضعاً. الأبنيّة مدفونة بعض الشيء في الأرض، والنوافذ صغيرةٌ، وفوق مستوى النظر بكثير. ينزل القادم إلى المسجد بضع درجاتٍ عند المدخل والأبواب تكون صغيرةً بشكلٍ عام. وكأنها رسالةٌ إلى الداخل تقول: «انحنِ، انزل إلى الأسفل، اترك كل شيءٍ في الخارج، واقطع ارتباطك، أنت لا شيء».

تبدو مساجد العهد العثماني وكأنها تعكس الغنى والعظمة. أبوابٌ كبيرةٌ، صحونٌ واسعةٌ. يصعد درج المدخل إلى الأعلى بضع درجاتٍ، وتهبط النوافذ الكبيرة حتى تلامس الأرض..

للمعابد تأثيرٌ فعالٌ في تحقق الناس من صحتهم النفسيّة على الصعيدين الفردي والجماعي. فالمنظومات الاعتقاديّة والمعابد تلعب دوراً هاماً من ناحية فهم الإنسان وتفسيره لنفسه، ونزوله إليها وبالتالي قدرته على تفسيرها.

كان لدي فضولٌ عندما كنت صغير السن حول سبب بناء معابد كبيرةٍ جداً. اكتشفت في وقتٍ لاحقٍ مسوغاً شديد الأهميّة برأيي. ينشغل الناس بأنفسهم كثيراً مع مرور الوقت. يولون أنفسهم أهميّةً كبيرةً. وبذلك تركز ذواتهم المغرورة على المتع.

وهكذا فإن المعابد الضخمة تبدو وكأنها تكشف للناس القادمين إليها مدى صغرهم على وجه الأرض وأنهم لا شيء في الحقيقة.

من الممكن أن نشعر بهذا الإحساس في الكعبة المشرفة وفي المسجد الأقصى والمسجد النبوي ومسجد السلطان أحمد وأيا صوفيا ومسجد السلطان أيوب، وكاتدرائيّة سان إسحاق (سان بطرسبورغ) وكاتدرائيّة سان بول (لندن)، وكاتدرائيّة دوم (كولن) والكثير من المعابد التي لا مجال لذكرها هنا.

بالنتيجة، ما دامت الحياة خشبة مسرح، علينا ألا ننسى أننا سنمثل مسرحيّة حياتنا على هذا المسرح للمرة الأولى والأخيرة. *يتعين علينا أن نعمل فكرنا لإقامة توازن بين ما نعطيه للحياة وما نأخذه منها. ينبغي علينا أن نبذل جهداً خاصاً من أجل معرفة أنفسنا. يجب أن يكون في مركز هذه الجهود الرغبة والسعي والعشق والحماس من أجل تحقيق الفائدة للآخرين، قبل أنفسنا.* ينبغي علينا ألا ننسى بأننا قادرون على إضفاء عمقٍ، وعلى الخصوص عمقاً إنسانياً بدأنا نفقده، على الحياة من خلال جميع سلوكياتنا بصغيرها وكبيرها. وأود التأكيد على وجه الخصوص أنه ينبغي علينا أولاً جعل إرادتنا تسيطر على

تصرفاتنا، من أجل معرفة أنفسنا. الشرط الأساسي لذلك هو قدرتنا على تجاوز «الأنا»، أي أن لا نتكبر، وأن لا نكون مطيّةً لغرائزنا.

بين الخير والشر

أعتقد أنني كنت في السابعة أو الثامنة من عمري. كان أبي يزيح الأحجار وهو يمشي، ويضعها على جانب الطريق الترابي في القرية. كنت أقلد هذا السلوك وكأنه نوعٌ من اللعب. قبل فترةٍ، كنا نسير في الشارع أنا وأبي وأحمد (ابني). أزحت فوراً حجراً صغيراً رأيته إلى جانب الطريق. وبحث أحمد أيضاً عن حجرٍ من أجل إزاحته إلى جانب الطريق. عشنا، ونحن ثلاثة أجيالٍ، معاً متعة عمل الخير للآخرين.

ستقولون إن هذا عمل خيرٍ صغيرٍ أو أمرٌ غير ذي شأن. عمق الحياة وتنوعها ومعناها متناسبٌ مع هذه الأشياء الصغيرة التي نوليها الأهميّة. نعلم أن «الأشياء الصغيرة» التي جعلها أستاذنا الكبير أوستوندوكمان معروفةً عبر برامجه التلفزيونيّة وكتبه، تتيح لنا اللقاء مع معنى الحياة.

في الحقيقة، المسألة برمتها هي- أقولها مع التبسيط الشديد- خياراتكم بين الخير والشر أثناء أداء دوركم على مسرح الحياة، وعزمكم وقدراتكم وتصرفاتكم وإجراءاتكم في هذه الخيارات. *في أي الطرفين تصطفون أكثر؟ السؤال بسيطٌ للغاية. هل جانب الخير أم جانب الشر أقوى في مسار العلاقة والتفاعل المتجه منكم إلى أنفسكم ومحيطكم والناس والإنسانيّة؟*

ردنا جميعاً، وفي الطليعة مؤلف هذا الكتاب، على الفور هو القول: «طبعاً جانب الخير». نزعم أننا نقدم أشياء خيرة للناس، لكن في الواقع فإن حقيقة

الأمر ليست كذلك. لنمرر حياتنا بأسرها أمام عينينا ولننظر إلى تصرفاتنا، ماذا نرى؟

على سبيل المثال، الوقت منتصف الليل وأنتم تقودون السيارة، ليس هناك حركة مرورٍ تقريباً. هل تقفون على الشارة الحمراء؟ هل تعملون على التملص من دفع ضريبة القيمة المضافة عند تسوقكم؟ ما هي المبررات التي تقدمونها عند تأخركم عن موعد ما؟ عندما لا تذهبون إلى البيت بعد المدرسة ماذا تقولون لأهل بيتكم؟ كيف تفسرون اجتماعاتكم المهنيّة التي لا تنتهي؟ وماذا نقول عن تسللكم إلى مقدمة الطابور في المصرف دون إثارة انتباه أحد؟ كيف تبررون تدخل الأشخاص الذين جعلتموهم واسطةً من أجل حل أي أمرٍ من أموركم؟ وماذا عن الغش في الامتحانات دون أن يشعر بكم أحد؟ وما حال المنزل المستأجر الذي تخلونه دون معرفة صاحبه؟ وماذا عن عادة استخدام حارة الطوارئ المخصصة في الأساس لأصحاب الحاجة الحقيقيّة في المرور؟ فكروا بما تلمسونه مما لا يجب لمسه، وما تنظرون إليه مما لا يجب رؤيته.. يمكننا أن نتوسع في هذا النوع من الأسئلة. كلها تقريباً تشير إلى المكان نفسه.

ليس من السهل كما هو معتقد أن نبرز الخير والصواب في تصرفاتنا. معرفة الخير والصواب شيءٌ والقدرة على تطبيقهما وإدخالهما مجال حياتنا والعيش معهما شيءٌ آخر. لا تنسوا أيضاً أن الإجابات عن كل هذه الأسئلة تتعلق عن كثبٍ بمستوى عمقنا الإنسانيّ.

أن يكون الإنسان كما هو

عيشوا الحياة بشكلٍ صحيحٍ من فضلكم. كونوا مع من يعيشونها بشكلٍ صحيحٍ. كل الناس ممتازون، لكن عدد ذوي السلوكيات السيئة ليس

بقليل. لا تنسوا أنه لا يمكن تجاوز السلوكيات السيئة، وبالتعبير التقني مشاكل الانسجام والسلوك، من خلال المعرفة فحسب. تعلّمنا المعرفة الخير أو الشر. أمّا ما يمزجهما بالسلوك فهو تأثير ما نعيشه معاً.

وعلى حد تعبير مولانا جلال الدين الرومي فإنه حتى الملائكة ترغب بأن تكون بشراً أحياناً. وحتى الشيطان لا يرغب أحياناً بأن يكون إنساناً. لذلك فإن محيطنا يتمتع بالأهميّة.

نبتعد عن الثقافة والقيم الإنسانيّة الأساسيّة التي تتيح للإنسان أن يكون كما هو. نبتعد ولذلك فإن ضميرنا يضعف، وتفقد إرادتنا قوتها. ينمو الغرور والكراهيّة والحقد والشر في هذه الأراضي الجميلة. يضعف الخير والتسامح. يضعفان ولذلك يمكننا التضحيّة ببعضنا البعض بسهولة. ويمكننا أن نكون أبناء العنف.

إذن فكروا أين نحن من مقابلة التصرفات السيئة الموجهة إلينا بالفضيلة العميقة في قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم «**إنهم لا يعلمون**».

نريد في هذه المرحلة تقديم معيار تقييمٍ هام. نهنئكم إذا كانت تصرفاتكم في الأماكن التي لا يراكم أحدٌ فيها تصبّ في الكفة الصحيحة من الميزان وإذا كنتم تعتقدون أنكم موضوعيون في هذا الخصوص. *لكن إذا كان الخير والصواب لا يتجاوزكم، أي إذا كان فهمكم وتطبيقكم للخير والصواب موجه لأنفسكم فحسب، فقد حان وقت تغيير ذلك منذ زمنٍ بعيد.*

الوجدان، الإرادة، الغرائز

هناك حكمةٌ صينيّةٌ قديمةٌ تقول: «الحياة مكانٌ تجتمع فيه المشقات». بالفعل، مسرح الحياة يشبه مساراً حافلاً بالمشقات. الليل والنهار، والزائد

والناقص، والذكر والأنثى، والخير والشر، والجميل والقبيح، والسهل والصعب، والأسود والأبيض، والغني والفقير، والجبل والسهل، والهبوط والصعود..موقعنا مهم في الانتقال بين كل هذه الأضداد التي تمنح الحياة معناها. أي من المهم جداً مكان تموضعنا في منظور الأضداد التي تضفي معنىً على الحياة.

يا ترى إلى أي جانبٍ نحن أقرب في نطاق حياتنا؟ هل إلى الليل أم النهار؟ الخير أم الشر؟ الجميل أم القبيح؟ الجبل أم السهل؟ الأسود أم الأبيض؟ السهل أم الصعب؟ نعم، ما هي نزعتكم، ما هو عمقكم؟

حسبنا أن ننظر إلى الركائز الثلاث التاليّة التي توجه شخصيّتكم من أجل تحديد وجهة نزعتكم الرئيسيّة:

- الوجدان
- الإرادة
- الغرائز

يمكن أن نلائم هذه الركائز الثلاث مع نظريّة فرويد في التحليل النفسي وهي الأنا العليا (*super ego*) والأنا (*ego*) و الأنا السفلى (*id*).

درس الباحثون كثيراً **الغرائز** في علمي النفس والسلوك. هي الدوافع الرئيسيّة الموجهة لإشباع الفرد على الصعيد الشخصيّ- الماديّ. الأمر يتعلق بسلوك يتمحور حول المتع الفرديّة تماماً كالطعام والشراب والجنس، ولا يكترث لوظيفةٍ أو مجتمع.

الإرادة هي مركزٌ حاسمٌ في الأساس، يعمل على إقامة التوازن بين الغرائز والوجدان.

أما **الوجدان** فيتخذ موقفاً يمثل بشكلٍ عامٍ المجتمع والإنسانيّة والأخلاق والقيم الإنسانيّة الكونيّة، ويدافع عن هذا الموقف.

تقع سلوكياتنا تحت تأثير التوازن الذي تشكله هذه الركائز الثلاث. يتحول التوازن بفضل الإرادة القويّة والوجدان القوي إلى سلوك يتحلى بالبصيرة الوجدانيّة. عندما يجتمع الإحساس الوجداني الضعيف مع إرادةٍ ضعيفةٍ يتحول التوازن إلى سلوكٍ لصالح الغرائز.

نؤكّد في كتابنا هذا على أنّ الإنسان بدأ الدخول أكثر تحت تأثير المادة ونزعة «الأنا»، وبموجز العبارة تحت تأثير الغرائز، في كافة مجالات حياته. *فما هو الحل؟ يكمن الحلّ في إقامة توازن الركائز الثلاث المذكورة من جديد، وجعل الوجدان مسيطراً على سلوكنا. سيجلب الإحساس الوجداني السامي إرادةً قويّةً وموقفاً وعمقاً إنسانياً سامياً.*

يبلور طراز المعيشة ذو المركزيّة الوجدانيّة موقفاً يركّز على المجتمع وليس «الأنا». وهكذا يكون الطريق ممهّداً للخروج من «خسوف الأنا» العنصر الأهم لدى الإنسان في عصرنا على مسرح حياة. فخسوف الأنا يفتح مع الأسف الطريق أمام خسوف العقل مع مرور الوقت. وبالتالي يمكن للناس أن يصطفّوا بجانب الشر والليل والسالب في الحياة رغم معرفتهم بمدى ضررهم عليهم. وهذا ما يزيد التوتر النفسي لدى الأفراد.

تجربة

كشفت تجربة أجريت في مجال علم النفس الاجتماعيّ عن الرضى الذي يوفّره الاختيار بين الأنا والآخر. اختيرت مجموعتان من الناس لإجراء

التجربة تتكوّن كلّ منهما من خمسة أشخاص. الخصائص الديموغرافيّة لكلا المجموعتين من قبيل العمر والجنس ومستوى التعليم كانت متوازنة. مُنح كل مشارك في التجربة ثلاثة آلاف دولار. قيل لأفراد المجموعة الأولى أن ينفقوا هذا المبلغ من أجل أنفسهم كما يشاؤون. في حين طُلب من أفراد المجموعة الثانيّة إنفاق المبلغ من أجل الآخرين. أُعطي المشاركون في التجربة مهلة أسبوع. تمّ تزويد جميع المشاركين بأجهزة لا تُرى من الخارج، تقيس ضربات القلب والتيار الكهربائي في الدماغ.

في ختام التجربة، سعى القائمون عليها إلى تحديد الحالة الروحيّة لكلا المجموعتين أثناء إنفاقهما المال من خلال استطلاعات رأي مختلفة. هناك نتيجة مشتركة لتسجيلات أجهزة مراقبة ضربات القلب والتيار الكهربائي في الدماغ أثناء التجربة وللاستطلاعات التي أجريت في ختام التجربة. متوسط ضربات القلب والتحركات في الدماغ كانت أعلى لدى أفراد المجموعة التي أنفقت المال من أجل الآخرين، بالمقارنة مع نظرائهم في المجموعة الثانيّة. كما أنهم أعربوا عن سعادتهم الكبيرة لإنفاق المال من أجل الآخرين في إجاباتهم عن الاستطلاعات التي أجريت بدون ذكر أسمائهم. مَن أنفقوا المال على أنفسهم كانوا أيضاً متحمسين وسعداء. لكن كان هناك فارق ذو مغزى من الناحية الإحصائيّة بينهم وبين أفراد المجموعة الأولى.

اغنِ الحياة بوجودك

بالنتيجة، من يفعلون أشياء من أجل الآخرين يكونون أكثر سعادة وطمأنينة ومتعة بالمقارنة مع من يفعلون أشياء من أجل أنفسهم.

في هذه الحالة فإنّ المسألة برمتها هي- كما أكرر بإصرار- تجاوز الأنا والانتقال إلى الآخر. عند تجاوز هذه العقبة يصبح من الممكن لنا أن نلعب دورنا الرئيسي في مسرحيّة الحياة بشكل أنجح وأكثر فعاليّة وإنتاجيّة. يعمي عائق الأنا عيوننا ويصمّ آذاننا ويبلّد مشاعرنا ويجمّد عقولنا. يتسبب بانشغالنا بأنفسنا وبقائنا هكذا. يمهّد الطريق أمام الاغتراب عن الثقافة الاجتماعيّة.

تجاوُزنا لأنفسنا هو فتح الباب على عالم مترامي الأطراف من الجمال. هو بلوغ المتعة الكبيرة في إنتاج قيمةٍ مضافةٍ من أجل الناس، صغيرةً كانت أم كبيرة. هو بلوغ مستوى الوعي بأننا من «بني الإنسان»، ولسنا مجرّد كائن حيّ. الاهتمام بالآخرين، وبذل الجهد لأجلهم وبلوغ مستوى الغنى المطلوب كي نحلم من أجلهم، كل ذلك هو فضيلة إنسانيّة عليا.

يتطلّب تجاوز «الأنا» في أحد جوانبه، منّا إنتاج فكر. ولهذا يتوجب أن نكون حساسين في التعامل مع ثقافة المجتمع المحلّيّ والعالميّ، الذي نحن فيه. وهذا ممكن ليس عن طريق الحوافز وإنما بامتلاكنا المعلومات وتطوير أنفسنا باستمرار. القِيَم التي تشكّل المكونات الرئيسيّة للثقافة المحليّة والكونيّة من قبيل الأخلاق والإيمان، هي حقيقة لا غنى عنها من أجل تجاوز عائق «الأنا».

يوصلكم فعل أشياء من أجل أنفسكم إلى مرتبةٍ ما. أمّا فعل أشياء من أجل الآخرين فيوصلكم أنتم والآخرين معاً إلى تلك المرتبة. وهكذا يمرّ طريق سعادتكم بموقعكم في العالم واستمتاعكم بأداء دوركم في الحياة عبر فعل أشياء للآخرين وليس لأنفسكم.

اصنعوا الفارق في مجالات حياتكم ومواقفكم وتصرفاتكم. ابذلوا الجهود الكبيرة من أجل ذلك. اضفوا لوناً وعمقاً مختلفاً على حياتكم. وبذلك اغنوا وجمّلوا وحسّنوا الحياة بوجودكم من أجل أنفسكم والآخرين. وليرافقكم الحبّ والتسامح والوحدة والنظرة الإيجابيّة وحافز النجاح المرتفع، في الأوساط التي تتواجدون فيها. احموا أنفسكم من الأحكام المسبقة الدافعة إلى التعلّق بـ«الأنا»، ومن خسوف العقل، ومرض الأنانيّة، وعلّة انعدام التواصل.

يمكنكم أن تفتحوا قلوبكم أمام ثراء التنوّع. والأهمّ من ذلك، ينبغي عليكم أن تتمكّنوا من الانحدار كقطرة ماءٍ من أعالي الجبال إلى الأسفل، إلى نقطة الصفر، إلى مستوى العدم. يتعيّن عليكم أن تتمكّنوا من التخلّي عن أن تكونوا عبئاً بكلّ وجودكم، وأن تقدروا على تحمّل الأعباء، كي تستطيعوا أن تكونوا قطرةً من نهرٍ وأن تتلاشوا في مياهه. لا تنسوا أن الحياة ناقصة بدونكم. اغنوا الحياة بوجودكم ولا تنقصوها.

اللامبالون، المتوسّطون، المجتهدون

ليست الغاية الطيران فحسب،
وإنما فتح أجنحة المحبّة في نفس الوقت

حقلان متساويان بالمساحة مختلفان في العطاء

تتبادر إلى ذهني أمثلة جميلة جداً من أجواء القرية وخصوصاً من الطبيعة على العلاقات والتواصل. قد لا يكون متساوياً المحصول الذي يجنيه أخوان اقتسما بشكل متساوٍ حقلاً ورثاه عن أبيهما. فأحدهما يمضي معظم يومه في الحقل، يختار البذور، ويذهب إلى المدينة بعيّنة من التراب لتحديد السماد المناسب. لا يفوّت وقت الريّ الذي يتطلّب عناية كبيرة. أحياناً ينهض في الليل ويذهب إلى الحقل. يبدي العناية ذاتها في موسم الحصاد. ويكون عطاء الحقل متناسباً مع جهده هذا.

أما الآخر فيقوم بفلاحة عاديّة. ينفّذ المتوسط من الأعمال اللازم إجراؤها في المعتاد بالنسبة لذلك الحقل. سيكون العطاء الذي يحصل عليه من الحقل متناسباً مع جهده. خلال الحديث في غرفة القرية، يتساءل الأخ الأوّل: «ماذا كنتُ لأفعل حتى أجني محصولاً أكبر؟». أما الأخ الثاني فينتقد باستمرار البذور والأمطار وعمل آلة الحصاد بشكل سيئ.

لاحظوا أنّ التراب نفسه، ومساحة الحقل نفسها لكن المحصول مختلف. لأن الجهد المبذول من أجل المحصول مختلف. ينبغي علينا أن نركّز أولاً على

ما إذا كنّا بذلنا الجهد الكافي من أجل حيازة شيء لا يتوفر لدينا لكنّه موجود بيد من هم في محيطنا. لننظر إلى أنفسنا أولاً قبل توجيه الانتقادات إلى الآخرين. ينبغي علينا تركيز اهتمامنا على المتغيرات التي يمكننا السيطرة عليها، وليس تلك الخارجة عن نطاق سيطرتنا.

نريد أن نحافظ على صداقاتنا وعملنا وموقعنا وزواجنا مثمراً ولمدة طويلة. نريد ولكن في معظم الأحيان لا نبذل الجهد اللازم من أجل ذلك. أي أننّا نريد الوصول إلى نتائج طيّبة ودائمة لكننا لا نجتهد بالشكل الكافي.

أودّ زيادة عدد الأمثلة حتى تشعروا أنكم في صميم الموضوع.

تصادفنا ثلاثة أنواع من السلوك الطلابيّ بشكل عام، يعرفها الآباء والأمهات، والمدرّسون والطلاب أنفسهم:

١- **الطلاب اللامبالون:** بشكل عام عديمو الإحساس تجاه المدرسة والدروس والأنشطة خارج الدرس. يكونون دون المستوى الذي تنتظره المدرسة منهم على صعيد النجاح في الدراسة والانسجام. إما أنهم لا يحبّون المدرسة، وإما أنهم لا يهتمون بها وإما أنّ المهارات اللازمة تنقصهم، أو أنّ قدراتهم العقليّة غير كافية. يذهب هؤلاء الطلاب إلى المدرسة ويعودون لكنهم في معظم الأحيان لا يدرون بما يدور حولهم. يذهبون إلى المدرسة متثاقلين. ينتقدون كلّ شيء عدا أنفسهم. يريدون الابتعاد عن المدرسة قدر الإمكان. يحتاجون باستمرار إلى التنبيه والدفع للدرس. ربما يحققون نجاحاً أكاديمياً محدوداً أو قد لا يحققون. يستخدمون القليل جداً من قدراتهم من أجل المدرسة والدروس. وكأنّ عقولهم في أماكن أخرى.

٢- **الطلاب المتوسّطون:** النمط التقليديّ للطلاب. يؤدّون متطلّبات المدرسة والمنهاج، ولكن لا يتجاوزون ذلك بمقدار أنملة. يعتبرون دروس وواجبات المدرسة عملاً وقسراً. نظرياً غالبيّة عظمى من الطلاب تندرج في هذه الفئة. المتوسطون. غايتهم هي الانتقال إلى الصف التالي أكثر من التعلّم.

٣- **الطلاب المجتهدون:** هذه الفئة أقليّة. تكشف عن نفسها، جريئة وطموحة. تسعى لعملٍ أكثر من المطلوب في المدرسة والدروس والواجبات. كما أنها ترغم نفسها على الاجتهاد، وتبذل قصارى جهدها. تهدف إلى الارتقاء فوق المعايير. لا يحتاج أفرادها للتنبيه. رغباتهم الداخليّة متطورّة. حافز النجاح لديهم مرتفع. يتمسّكون بأعمالهم وينكبّون عليها بكلّ همّة.

أيّ الطلاب ناجحون؟

لننظر الآن إلى هذه النماذج الثلاثة. قد تكون اللامبالاة متعلّقة بقدرات الطالب. لكن لننظر إلى الدراسات في هذا الخصوص. وفق نتائج مشتركة للدراسات ١٠ بالمئة فقط من الطلاب الفاشلين لديهم مشاكل في القدرات العقليّة. أي أن هناك أسباب اجتماعيّة أو نفسيّة بنسبة ٩٠ بالمئة تكمن في صميم الفشل. ومن ذلك عدم القدرة على التحفز الكافي، ضعف حافز النجاح، نقص المهارة في أساليب العمل، إلخ.

يجد الطالب اللامبالي صعوبة في أداء مسؤولياته تجاه المدرسة. بينما يحرص الطالب المتوسط على تحقيق المعيار المطلوب. أما الطالب المجتهد

فيشترط على نفسه التفوق على المعايير المطلوبة. لا يكتفي الطلاب المجتهدون بالمعايير المطلوبة، وفي سبيل ذلك يكرسون أنفسهم ومتعهم ووقتهم، ويدرسون كثيراً.

يكون الطلاب المجتهدون أنجح في المدرسة. لكن هذا لا يعني أن الطلاب المجتهدين سيكونون ناجحين دائماً في الحياة أيضاً. بعبارة أخرى، لا يمكننا القول إن الطلاب المتوسطين أو اللامبالين سيكونون فاشلين في الجانب المهني والحياة الحقيقيّة. هناك الكثير من الأمثلة على ذلك. *المهم هو أن نعرف متطلبات المدرسة أو العمل والحياة منا، والنجاح في تحقيقها*. بل عدم الاكتفاء بها وبلورة هدف وتميز وعمق وامتياز شخصيّ يرتقي فوقها.

وهكذا ينبغي علينا معرفة تطلعاتنا من أنفسنا، إلى جانب متطلبات الحياة منا. *بموجز العبارة، أينما كنا في أوجه ومراحل الحياة لا بد من صنع الفارق وإنتاج قيمة مضافة. ستجعلنا القيمة المضافة التي نبتكرها ونحن نفكر بالآخرين وليس بأنفسنا فحسب، ناجحين وسعداء ومميزين. لكن علينا ألا ننسى بأن كل ذلك متعلق بالعمل، بل العمل بجد.*

القيم الإنسانيّة المتحللة

خلاصة القول، هل تعلمون ماذا أقصد؟ من أي الفئات أنتم؟ هل أنتم أناس مجتهدون؟ أم أنكم من الفئة المتوسطة التي تراوح عند المستوى الوسط؟ أم أنكم من النوع اللامبالي؟ يمكنكم تقييم أنفسكم على الكثير من الصعد، مثلا شخصيّتكم، أسرتكم، عملكم، مجتمعكم، إنسانيتكم، أخلاقكم، عقيدتكم.

تؤكد الدراسات بخصوص الإنسان في عصرنا أن العوامل الثلاثة الهامة التاليّة:

١ - اللامبالاة

٢ - الطموحات الماديّة

٣- الاحتياجات الاجتماعيّة والعاطفيّة

في تزايد مطرد.

بينما تتزايد طموحاتنا واحتياجاتنا الماديّة إلى أبعد حد، تتفشى اللامبالاة كالمرض. وكأن ذلك لا يكفينا، يتلاشى الجانب الاجتماعيّ لدينا بالسرعة نفسها. *فما معنى ذلك؟ نبتعد عن أن نكون طبيعيين ونكون كما نحن، نبتعد عن جوهرنا. وهذا ما يجعلنا لا مبالين تجاه كل شيء وفي المقدمة أنفسنا. لا مبالاة كبيرة إلى درجة يضعف ويتبلد معها حماسنا وأملنا ورغبتنا في العمل وحافزنا في النجاح وعزيمتنا على الكفاح. غير أن الأهم من ذلك هو أن قيمنا الإنسانيّة تنهار وتتحلل.*

لكن أود التأكيد على تطور جيد للغاية. يسعى الإنسان المعاصر إلى مجابهة انهيار القيم الإنسانيّة الذي تحدثت عنه، ويبذل الناس مساعٍ جديّة لحماية بعضهم البعض. يتزايد التواصل على الصعيد الدولي منذ انتهاء الحرب الباردة حتى اليوم، كما أن التواصل على الصعيد المحلي يتوسع. على الرغم من كل شيء، أنا على ثقة بأن هذه التطوّرات الإيجابيّة ستتزايد بقوة.

مرض اللامبالاة وجرح القلوب

يدفع مرض اللامبالاة فعليّاً الطالب والفلاح الذي يزرع أرضه والإنسان المؤمن إلى مستوىً أقلّ من العمل وبذل الجهد. يؤدي ذلك إلى انهيار القيم الإنسانيّة وإلى اللامبالاة مجدداً على غرار الحلقة المفرغة.

أبرز عواقب علّة اللامبالاة هي المرض والجمود على مستوى القلب- الفؤاد. *هذه هي المشكلة الرئيسيّة للإنسان في عصرنا: جرح القلوب.*

على سبيل المثال، عندما نعاني من مشكلة في الرؤية نسارع إلى الطبيب فوراً. نبحث عن حلول. وعندما نواجه مشكلة سمعيّة، نهرول مجدداً إلى الطبيب المختصّ.

وحين نواجه مشكلة في قلبنا؟ بطبيعة الحال لا نتحدث هنا عن انسداد الأوعية الدمويّة في القلب أو مرض الضغط. فعندما نصاب بهذه الأنواع من أمراَض القلب العضويّة نبحث فوراً عن الحل.

لكن ماذا نفعل من أجل جرح القلوب؟ بشكلٍ عامّ لا شيء. ينبغي علينا فعل ما هو أكثر من أجل الحيلولة دون عزلة الإنسانيّة المعاصرة واغترابها وابتعادها عن الطبيعة وعدم قدرتها على التعبير عن نفسها، ومنع الانهيارات في العلاقات الإنسانيّة المباشرة والتواصل داخل العائلة والمجالات المشابهة.

ينبغي علينا أن نحوّل الحبّ إلى عشق من أجل النجاح في مجابهة هذه المشكلة الرئيسيّة في عصر المعلومات الحاليّ. يتعيّن علينا أن نقرّب البعيد. ولهذا يتوجب على الناس أن يكونوا قريبين من بعضهم البعض.

احتياجات المسنّين

أجريت دراسة حول المسنّين في بريطانيا. هل تعلمون ما هي أكثر الأشياء التي يحتاجها هؤلاء الناس الذين تجاوزوا سنّ السبعين؟ ها هي على الترتيب:

١ - لمس الآخرين

٢- الحديث مع الآخرين

٣- الحصول على معلومات دينيّة

تقول هذه النتيجة إنّ المجتمع الغربيّ يبتعد عن الناس. من يعيشون بمفردهم أصبحوا يحنّون إلى لمس إنسان آخر. يضعف الحديث والتعبير عن النفس، وهما الحاجة الرئيسيّة الأكبر لدى الإنسان. تتزايد لدى الناس الحاجة إلى الإيمان والولاء، اللذين أهملوهما.

حوّل حبّك إلى عشق

بما أنّ أصل المشكلة هو انهيار القيم الإنسانيّة والنقص على مستوى القلوب، إذن ينبغي أن تكون وظيفتنا الأولى تلافي هذا النقص. لكن كيف؟

سنركّز على قلبنا، وبعبارة أخرى على عين قلبنا، بقدر تركيزنا على عيوننا وآذاننا. أي أنّه ينبغي علينا التركيز بشكلٍ أكبر على قيمنا الإنسانيّة واستحساناتنا الجماليّة واحتياجاتنا العاطفيّة وتطلّعاتنا الاجتماعيّة، باختصار احتياجاتنا الروحانيّة. التركيز بحيث نكتسب العمق الإنسانيّ.

لا أدري إن كانت هناك وصفة، لكن عليكم تحويل الحبّ إلى عشق، حتى تتمكنوا من الخروج من موقع الطالب اللّامبالي وتجاوز مستوى الطالب المتوسّط لتبلغوا مكانة الطالب المجتهد.

لنفكّر الآن بأمثلتنا. ليس لأنّكم طلّاب فقط، ولا لأنّ المدرسة لديها طلبات وتطلّعات منكم، ولا لمتطلّبات العالم، ينبغي عليكم تجاوز كلّ ذلك وأداء هذه المهامّ بمحض رغبتكم وإرادتكم. إذا كنتم تبذلون الجهد من أجل تلبية التطلّعات فقط لن تحصلوا إلا على نتيجة عاديّة. لأنّ الجميع

يفعلون ذلك. لكن إن تجاوزتم سقف التطلّعات عندها ستتميّزون، وستكون النتائج التي تصلونها باهرة.

يكرّس الطالب المجتهد نفسه، ويدرس كثيراً. والفلاح المجتهد الذي يزرع الحقل يقضي معظم وقته فيه، ويوليه اهتماماً كبيراً. *هكذا يتحوّل حبّ المدرسة والزوجة والعمل من حبّ جافٍّ إلى حبّ عميقٍ نقيّ، إلى عشقٍ وإلى محبّة.*

لا تستوي المرأة التي تعدّ الطعام لزوجها لأنه من واجباتها، وتلك التي تكرّس نفسها من أجل زوجها ولا يوجد شيء لا تفعله من أجله، وتعدّ الطعام له بكلّيّتها وبعشقها. لا يستوي الطالب المتعلّق قلبه حقاً بالمدرسة والدروس ويذاكر بكلّ عزمٍ وعشقٍ، مع زملائه العاديين. وكذلك يتميّز الشخص الذي يقوم بعمله بعشقٍ ومحبّةٍ وبإخلاصٍ وصدقٍ عن الآخرين. يوفّر التميّز من الناحية الإيجابيّة النجاح والسعادة والرضى.

هذا يعني أنّ بيت القصيد يكمن فينا. ليست الغاية الطيران فحسب، وإنّما فتح أجنحة المحبّة في الوقت ذاته.

العشق

رحلةُ قلب: العشق

العشقُ هو حماية القيم الإنسانيّة بإصرار. إنّه إنتاج ومشاطرة وحبّ. هو تفضيل العطاء على الأخذ. العشق يملأ الحياة كما يملأ الماء الجاري أرضاً منخفضة. يملأ الحياة ويضفي عليها معنىً. يكسب الإنسان عمقاً من أجل الإنسان والإنسانيّة.

أهلاً بك في ديار العشق

ينبغي علينا معرفة العشق على نحوٍ أفضل اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لأننا نبتعد بشكل مطّرد في يومنا المسمى عصر المعلومات. ننسى تدريجيا العشق الذي هو من أسمى الدلائل على الإنسانيّة وقيمها. كلما تفاقمت الأزمة الإنسانيّة ذاب العشق، الذي هو من أهم القيم الإنسانيّة.

يَرِدُ تعريف العشق في معجم مجمع اللغة التركيّة على أنّه «شعور الحبّ والولاء المفرط». يكاد العشق لا يغادر كلامنا في الحياة اليوميّة. «عَشقَ، وقعَ في العشق، العشق الإلهيّ..». وهناك أيضاً مقولة دارجة «العشقُ لا يُوصف وإنّما يُعاش». كما أننا وزّعنا العشق إلى أجزاء من قبيل عشق الزوج، عشق العمل، عشق المهنة، عشق الوطن، العشق الإلهي. كلّ جزء يعبّر عن الجهة الموجّه إليها الولاء.

سنحاول تفهيم، أو على الأصحّ فهم العشق معاً في إطار كتابنا. ولذلك أرحّب بكم في ديار العشق.

يمكن التساؤل فيما إذا كانت هناك حاجةٌ لإفراد قسمٍ يتناول العشق في هذا الكتاب. لكن لم يكن بإمكاننا المرور دون التعريج على ديار العشق في كتابنا هذا الذي حاولنا فيه معرفة وتطوير الإنسان وخصائصه الشخصيّة الأساسيّة وعلاقاته، والذي سنمضي معه نحو العمق الإنسانيّ. بما أننا سندرس الأزمة الإنسانيّة الناشبة اليوم، فهذا غير ممكن دون فهم العشق.

لأنّ العشق هو إحساس قويّ وشامل وأساسيّ يحيط كوحدةٍ متكاملةٍ بأفكار ومواقف وتصرّفات الإنسان. الطريق إلى فهم الإنسان يمرّ على نحوٍ ما عبر فهم العشق. الأهمّ من ذلك أنّ العشق هو عنصرٌ لا بدّ منه في الرحلة نحو العمقِ الإنسانيّ.

أفقدنا كلمة العشق أيضاً بريقها في اللّغة اليوميّة. لأنّ ذكر العشق حاليّاً يعبّر بشكلٍ أكبر اللقاء الجنسيّ. نالت عاطفتنا الإنسانيّة الصافية والطاهرة هذه نصيبها من رياح عصر المعلومات التي تهبّ من كلّ حدبٍ وصَوبٍ. أصبحتْ مبتذلة، وفقدت عمق معناها من موطنٍ لآخر، وخرجتْ عن مسارها. اتّجه العشق من موقفٍ حياتيّ يسمو بالمرء بصفته إنساناً ويستند إلى العطاء والإنتاج من أجل الناس والعالم، إلى التركيز على الأنا. وهكذا أصبح الغنى الماديّ هو ما يحدّد طول موجة العشق وليس عمق العواطف.

نعيش في زمان يقوّض فيه التحوّل السريع القيم الإنسانيّة بنفس السرعة. بينما يتوسع نطاق هيمنة الاحتياجات الغريزيّة والمُتع الشخصيّة بشكلٍ مطّردٍ، توضع القيود على سلوك الحبّ المبنيّ على المنطق والإرادة. أمّا

العشق الذي يوفّر طمأنينة القلب والروح فيتلاشى على نحوٍ متزايدٍ. الأدهى من ذلك أنّ معنى وصورة العشق في الأذهان آخذان في التغيّر.

«أنتظر يوم اللّقاء»

ذهبنا لقضاء إجازةٍ ثلاثة أيّام عام ١٩٩٩. زرنا القرى الواقعة حول المنشأة السياحيّة التي أقمنا فيها. تعرّفتُ على العمّ عمر في إحدى حدائق الشاي. وُلد في طرابزون عام ١٩٠٩ (إن كان على قيد الحياة الآن فقد تجاوز المئة من عمره، وإن كان قد توفّي فليرحمه الله). عمل راعياً في القرية. بعد ذلك استقرّ في مدينة ادابازاري، وتزوّج هناك. لديه خمسة أبناء. رأى أحفاد أحفاده. كان يمدّ يد العون لأبنائه في أعمال الحقل وجني البندق. تأثّر إلى أبعد الحدود جرّاء وفاة زوجته قبل خمس سنوات. رافقته حفيدته على مدى أربع سنين. وعندما تزوّجت بقي وحيداً. عقله سليم للغاية. تغرورق عيناه وهو يحدّثك عن قيمة الزوجة والأمّ والأبّ. عانى من الفقر وعايش الحروب لكن أياً منها لم يؤثّر بالعمّ عمر بقدر ما أثّرت به وفاة زوجته.

عندما سألته: «هل كنتما تعشقان بعضكما؟»، أجاب: «لا أعرف العشق وما يُقال عنه. لقد كانت كلّ شيء بالنسبة لي. كنّا دائماً معاً منذ يوم تعارفنا. عشنا الفقر والمصاعب معاً. أعطتني كلّ ما أطلب. لا أكترث بضعفي ووحدتي وتحضير الشاي بنفسي. أكثر ما يحزنني هو أني تركتها وحيدة تحت التراب. في الحقيقة أنا أيضاً متُّ حين توفّيتْ. أنتظر يوم اللّقاء».

ربّما لا يعلم هذا الرجل المسنّ العاشق لزوجته معنى الكلمة، لكنه عاش ويعيش العشق. إنه متعلّق بها من كلّ قلبه. كانت عيناه تتألّق عند الحديث عنها.

العشق من أهمّ وأكثر العواطف الإنسانيّة طبيعيّة. سنوضّح في العناوين اللاحقة بالأمثلة أنّ العشق هو احتياج يفوق المُتَع الغريزيّة وإرضاء النفس والحبّ المبنيّ على الإرادة.

مع انتشار علم النفس أصبح من الممكن تعريف الجوانب الجسديّة- المنطقيّة- الروحيّة للإنسان بشكل أوضح. هناك احتياجات تتعلّق بالحياة اليوميّة للجانب الجسديّ من الإنسان. وهذه الاحتياجات لا بدّ منها من أجل استمرار الحياة. وهناك احتياجات محورها المنطق تتطلّب الإرادة وتتعلّق بالحياة اليوميّة الاجتماعيّة. ينبغي تلبية هذه الاحتياجات. وأخيراً هناك الاحتياجات المجرّدة المعروفة بالقلب- الروح. *فالعشق هو حالٌ من الحبّ والولع والولاء المركّز غير الملموس ولا المرئي، ضروريّ من أجل صحّتنا الروحيّة.*

ربّما يأتي العشق في طليعة القضايا الأكثر تناولاً بالدراسة على مرّ التاريخ الإنسانيّ. لأنه يمرّ عبر فهم الإنسان وتحليل وفهم طبيعته الروحيّة. ولأنّ طريق العمق الإنسانيّ يمرّ عبر العشق.

العشق على مرّ التاريخ

اعتبر المفكّرون اليونانيّون القدماء العشق حاجةٌ هامةٌ لروح الإنسان.

احتلّت الأديان صدارة العناصر الرئيسيّة في فهم العشق منذ الإنسان الأوّل حتى يومنا هذا. ربطت المعتقدات الدينيّة بشكلٍ عام الفرد بقوّةٍ فوق الطبيعة، بخالقٍ، ونصّت على الإيمان به والحبّ والولاء والعشق له.

عمّقت الأديان التوحيديّة بشكل أكبر وجود الخالق ووحدته وفرديّته، والولاء له وعشقه. إلى درجة أنّ العشق اعتُبر أهمّ خاصيّة للخالق تعالى في العقيدة اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة.

بحسب العقيدة الإسلاميّة فإنّ العشق هو جوهر الوجود وغاية الخلق. السبب الأصليّ في خلق الكون هو العشق. الإنسان هو خليفة الله في الأرض. لذلك فإنه ليس بعيداً عن العشق الذي هو جوهر الوجود. كلّ شيء في الكون يمثل الوحدة التي هو جزءٌ منها يسبّح بحمد الخالق ويخضع له.

عاش مولانا جلال الدين الرومي ويونس إمرة والحاج بكتاش وليّ العشق في المعتقد الإسلاميّ ونقلوه للأجيال. يقول مولانا: «وحينما لا تكون للعاشق رعاية من العشق فإنه يبقى تعِساً كطائرٍ بلا جناح»[1]، مؤكّداً أن العشق أمرٌ لا بدّ منه للإنسان. «يعتبر مولانا نفسه عاشقاً. يعتقد كلّ إنسانٍ أنّه عاشقٌ بقدرٍ قليلٍ أو كثيرٍ، وأنّه من الضروريّ أن يكون عاشقاً. لم يدع (مولانا) العشق ليبقى فكرة جافّة أو شهوة جنسيّة، بل أنهضه وحوّله إلى عمل. عبّر عن العشق والخلق والحبّ بالدوران. كما أنّ الأرض تدور حول نفسها ينبغي أن يكون الإنسان في حال ديناميّ، حال دوران. ينبغي أن يدوّره ويحمّسه سحرُ العشقِ»[2].

«هل يسلك العقل سبيل اليأس؟
لا بدّ من العشق حتى يحيل الرأس قدماً تجري إليه
العشق لا يكترث لشيءٍ أما العقل فلا..
يبحث العقل عما يستفيد منه
العشق لا يستسلم، يحترق ويُحرق ويذوب، لا يعرف الخجل والحرج..

١- مولانا، المثنوي (ترجمة ولد إيزبوداق). الكلاسيكيات الإسلاميّة الشرقيّة. منشورات وزارة التربيّة الوطنيّة. أنقرة ١٩٩٠. صفحة ٣.

٢- إ. فندقجي. رحلة قلب: القيادة الخادمة. منشورات ألفا. إسطنبول ٢٠٠٩. ص. ١٦٥.

كحال القمح تحت حجر الطاحون
يقع في المحَن لكن لا يشتكي
صفيقُ الوجه لا يلتفتُ وراءه..
قتل في قلبك رغبة البحث عن المفيد..
يرمي بكلّ ثقله، يراهن، يُبتلع، ولا يبحث عن مكاسب..
كما أخذ من الله، يعيد كلّ شيء إلى الله
في مذهب العشق كلّ شيءٍ قربانٌ للعشق»

مولانا جلال الدين الرومي

جعل يونس إمرة من العشق أمراً لا غنى عنه في الحياة اليوميّة بالنسبة لأهالي الأناضول. كان يونس عاشقاً نموذجياً للحقّ تعالى عبر حياته، وزيّن أشعاره بالعشق. تجعلنا قصائده متداخلين مع العشق بجرّة قلمٍ دون الحاجة إلى كتابات طويلة جداً.

اسمعوا أيها المحبّين، العشق كالشمس
والقلب الخالي من العشق كالحجر
ماذا ينبتُ على قلبٍ من حجر، وفي اللسان سمّ زعاف
مهما نطق بعذب الكلام، فهو كالخصام
يرقّ وجه العاشق الصبوح ويصبح شمعة
وتظلم القلوب المتحجّرة لتصبح شتاءً قاسياً

يونس إمرة

لعب الحاج بكتاش ولي دوراً مهمّاً في توعية الناس في الأناضول. وهو أيضاً واحد من السائرين على درب العشق. يضع السلام مكان الحرب،

والصداقة مكان العداوة. يقول في «مقالات»، أحد أهمّ مؤلّفاته: «العشق هو نار وجود الله، عمّ العالم بأسره»[1].

العشق في عصرنا

تغيّرت المعاني المنسوبة للعشق في عصرنا بشكلٍ كبيرٍ. في كتاب عنوانه «ما هو التحليل النفسيّ؟»، يتحدث العالم الاجتماعيّ والطبيب النفسي إيان كريب عن مشكلة فهم وتغيير الإنسان المعاصر لنفسه[2]. ويوضّح كريب أنّ الحياة بالنسبة للفرد ينبغي أن تكون طريقاً لفتح أفقٍ جديدٍ، لكن هذا الأفق ينكمش بشكلٍ متزايدٍ.

يمكننا القول حقاً إننا نفقد بشكلٍ مطّردٍ في عصرنا العشق والولاء اللذين يوفران السكينة الروحيّة. وفي مقابل ذلك هناك حقيقة تقع في مركزها المادة والمال والأضواء الملوّنة للعالم الافتراضيّ، ويخضع الناس والإنسانيّة فيها للتأثير الجامح للرغبات والطلبات الغريزيّة. وبعبارة أخرى يضعف مفهوم العشق المتمحور حول المعنى والممتدّ إلى ما لا نهاية. أما العشق المؤقّت المنصبّ على الحقيقة الماديّة المجرّدة فينمو بسرعة. وهكذا، بينما ينشغل الإنسان المعاصر باحتياجات الجسد والأنا، يهمل في المقابل احتياجاته الروحيّة.

سَئِم رجلٌ من ذوي البشرة البيضاء ضجّة المدينة المزدحمة، وثار فضولٌ شديدٌ لديه حول الهنود الحمر. خالطهم وعاش معهم من أجل فهم طراز

١- دورموشبوزداغ، «السلطان الحاج بكتاش ولي كمتنور من الأناضول». الزمان، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.

٢- إيان كريب، Psychoanalysis. Polity Press. لندن (ما هو التحليل النفسي؟ ترجمة علي قلج أوغلو، منشورات ساي، إسطنبول، ٢٠٠٤).

معيشتهم. أخذ يفعل كلّ ما يفعلونه. ذات يوم، امتطى الجميع خيولهم بناءً على أمرٍ من زعيم القبيلة. توجّهوا بسرعةٍ إلى مكان آخر. والرجل الأبيض يتحرّك معهم. كانوا يتقدمون بسرعةٍ ويُسرٍ. فجأة أصدر الزعيم أمراً. فأوقف الجميع خيولهم ونزلوا بسرعةٍ إلى الأرض. جلسوا على الأرض متربّعين وبدأوا الانتظار دون حركة. أصيب الرجل الأبيض بدهشةٍ عظيمةٍ. توجّه إلى الزعيم وسأله: «كنّا نسير في الطريق بسهولة. لم نصل بعد إلى المكان المطلوب، فلماذا توقفنا؟». كانت الإجابة مذهلة: «قطعنا المسافة بسرعةٍ كبيرةٍ. أرواحنا تأخّرت عنّا. ونحن ننتظرها الآن».

بوّابات سدّ أتاتورك

العشق هو عاطفة مركزيّة لا غنى عنها بالنسبة للإنسان. وفوق ذلك فهو ليس عاطفة بسيطة عاديّة. نتحدّث عن قوّة عاطفيّة مركّزة ومتنوعة وعميقة تتجاوز حدود الجسد.

زرنا قبل بضعة سنين سدّ أتاتورك. تصادفت الزيارة مع يوم فتح بوّابات السدّ لعبور كميّة أكبر من المياه. بعد التجوّل حول السد، شاهدنا فتح بواباته من موقع إستراتيجي للغاية. كان المشهد رائعاً. تخيلوا ملايين الأمتار المكعّبة تتجمّع في بحيرة السدّ. تلك البحيرة المكوّنة من عدد لا يمكن لعقلنا أن يحصره من قطرات الماء. لا تريد هذه المياه المتجمّعة منذ أيام، وربما منذ أشهر، الثبات في مكانها. تريد أن تسيل وتجري وتغيّر مكانها. لكن الأهمّ من ذلك هو أنها تريد أن تكون نافعة. وكأنّ كل قطرةٍ منها تجاهد من أجل القيام بالوظيفة المكتوبة لها. تريد أن تتجاوز حدود جسدها وأن تجري وتسيل. تريد الجريان كي تكون قطرةً في النهر.

تنفتح بوّابات السدّ على غرار رفع الستارة على خشبة مسرح. ليتكم رأيتم انبثاق المياه من ارتفاع مئات الأمتار. ليتكم رأيتم كيف تجاهد قطرات المياه كي ترمي بنفسها إلى الخارج في أسرع وقت. كانت تلك القطرات تتخلّى بسرعة عن حالتها العميقة الجامدة الممتعة كي تجري إلى أماكن أخرى وتكون جزءاً من كلٍّ أكبر. تهجر قطرات المياه الراحة والدعة، وربما تتخلّى عن وجودها وتسيل من أجل منح الحياة للأرض والقيام باكتشافات جديدة. تجري المياه برغبةٍ وحماسٍ ومحبّةٍ وعشقٍ. تمتلئ الفراغات وكلّ أنواع الأواني الفارغة بهذه المياه.

هذا هو العشق. إنه تخلّي قطرة ماء عن كونها قطرةً عاديّةً ومخلصةً للبحيرة التي تنتظر فيها، وانطلاقها في رحلةٍ جديدةٍ. على غرار كفاح نسرٍ بلغ من العمر أربعين عاماً كي يحلّق من جديد. إنه التخلّي عن الراحة المتجذّرة والمعتادة. التخلّي عن حظّ النفس وربّما عن الوجود. العشق ديناميكيّ وحركيّ وهو تركيزٌ على الهدف. هو عدم الضياع في خضمّ ابتذال الحياة اليوميّة وعدم فقدان مركز الحياة. ينبغي ألا تبعدنا الأحداث التي نواجهها وما نعيشه عن كوننا من بني «الإنسان». *العشق هو حماية القيم الإنسانيّة بإصرار. إنه إنتاجٌ ومشاطرةٌ وحبٌّ. هو تفضيل العطاء على الأخذ. والعشق يملأ الحياة كما يملأ الماء الجاري أرضاً منخفضة. يملأ الحياة ويضفي عليها معنىً. يكسب الإنسان عمقاً من أجل الإنسان والإنسانيّة.*

مياه متدفّقة تجاوزت حدودها

يتّجه العشق نحو الذات لدى بعض الأشخاص وإن كان ذلك في نطاقٍ محدودٍ. لكن الأصل هو أنّ العشق ينطلق من ذات الإنسان إلى محيطه والإنسانيّة وما هو بعيد. يحسّن ويجمّل ويزيد.

نسمع أحياناً أنباءً مفادها «ارتكبَ جريمةً بسبب العشق»، أو يقول مذيع الأخبار: «انتحرَ بسبب العشق». أكثر ما يمكن القول في هذا العمل أنّه حقدٌ وكراهيّة وغضب متلبّس بكلمة العشق. أو هو كراهيّة موجّهة من ذات ضعيفة غير قادرة على تحمّل عبء الحياة إلى الذات نفسها. لأنّ همّ العاشق حتى نهاية المطاف هو اللّقاء. ولأنّ العاشق يعتبر نفسه مسافراً يجمّل الطرق التي يمرّ منها. يتقدّم وهو يجمّل ويحسّن. فالعشق ليس مدمّراً. دعكم من إلحاق العاشق الضرر بمعشوقه، بل إنّه لا يتبادر إلى ذهنه سوى ما هو خيرٌ وحسنٌ من أجله. لأنّ ذات المرء غير موجودة في جوهر العشق.

يرغب العاشق بالجريان على غرار المياه المتدفّقة التي تتجاوز الحدود الموضوعة لها. تجري كيلا تبقى راكدةً عاطلةً مترهّلة، وكي تصبح حيويّة. هذا جريانٌ يتّجه من المادة إلى المعنى، ومن الغلاف إلى المحتوى، ومن الجزء إلى الكلّ، ومن الليل إلى النهار، ومن الوجود إلى العدم. إنه جريان متّجه من الحرب إلى السلام، ومن العجز المكتسَب إلى إيجاد الحلول، ومن الحديث إلى السؤال، ومن الاستهلاك إلى الإنتاج، وإلى الرضى بالقليل عوضاً عن الكثير. *العشق هو انسجامٌ وتوافقٌ وتنوّعٌ يتكامل مع الأضداد ويملأ الحياة، والعشق هو رحمةٌ عميقةٌ من صميم الجسد والروح.*

عند التفكير بالانهيار الخطير في القيم الإنسانيّة كالرحمة والشفقة لدى الإنسان المعاصر وابتعاده عن عاطفة العشق، تذكّرتُ إجراءً رائعاً لدى جمعيّة التآخي في الدولة العثمانيّة:

جمعيّة التآخي في العهد العثمانيّ هي تنظيم مهنيّ يندر نظيره. يتلقّى كلّ قطاع مهنيّ تدريبات خاصة في هذه الجمعيّة. يشرف على التدريبات

بشكلٍ مباشر مدرّبون ومعلّمون، كما تنصّ عليه قواعد التربية الحديثة في عصرنا.

يتمثّل الإجراء المذكور آنفاً في توقّف اللّحامين عن العمل لمدة ١٥-٢٠ يوماً في وقت معيّن من العام. يقومون خلالها بأعمال البستنة. الغاية الرئيسيّة هي إعادة تأهيل مشاعر الرحمة المنهارة لدى اللّحامين الذين ينشغلون بالذبح ويريقون الدم طيلة العام.

لنتعرّف على العشق

في البداية، يطالب الجسد الخاضع لسلطة الغرائز بلقاء الحبيب. إذا تجاوز هذا الطلب حدود رغبات الجسد يتدخّل المنطق ويبدأ الحبّ الإرادي. إذا تجاوز الشوق للحبيب في نهاية المطاف الحاجة الجسديّة والمنطقيّة وسَمَا وتحوّل إلى ولعٍ فيكون قد بلغ مستوىً روحيّاً، وهنا يبدأ العشق.

هل العشق أمرٌ معيبٌ؟

ليس من السهل فهم العشق. لأنه أعقد حالة روحيّة لدى الإنسان، الذي نجد صعوبة في فهمه بالأساس. في الحقيقة، نبتعد بشكل مطّرد عن العشق الذي هو مركز الإنسان والحياة. وهكذا نبدو نحن أبناء العالم الحديث وكأننا قد قلّمنا أظافر العشق أيضاً. نخلط في معظم الأحيان هذه الحالة العاطفيّة البريئة السامية والقويّة، وهي من المؤشرات التي لا غنى عنها للإنسانيّة. نخلط بينها وبين الحبّ تارةً وبينها وبين الغرائز تارةً أخرى، وأحياناً نخلط بينها وبين المحبّة أو الرغبة.

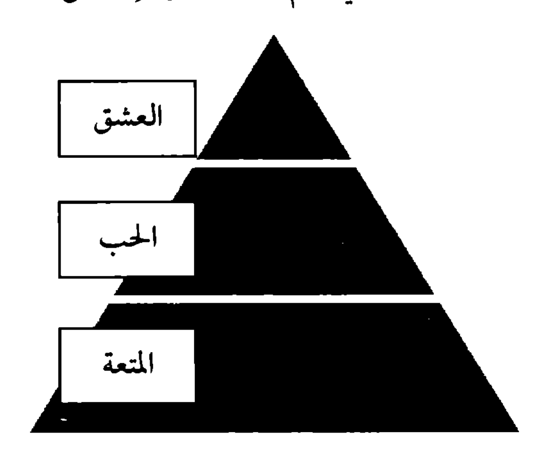
في دراسةٍ أُجريت بين طلاب المرحلة الثانويّة سُئل المشاركون عن العشق. ٦٠ بالمئة من الإجابات في الاستطلاع الذي أُجري بدون ذكر أسماء، كانت «حبّ مفرط»، و«حبّ إلى درجة الهيام»، و«الرغبة الشديدة»،

و«التولّع» و«رغبة جنسيّة لا تقاوم». ٢٥ في المئة رفضوا الإجابة عن السؤال، وهذا أمرٌ ذو مغزى. أما البقيّة (١٥ بالمئة) فمن الملفت أنهم أجابوا بأنّ «هذا أمرٌ معيبٌ» أو إجابات من هذا القبيل.

نتائج الدراسة نفسها ملفتة بين ربّات البيوت. تبنّى ٧٠ بالمئة من ربّات المنازل مقاربة باردة متشائمة لامبالية تجاه العشق. كانت بعض الإجابات الملفتة على النحو التالي: «عاطفة من الصعب جداً امتلاكها في الحقيقة»، و«أفنى العمر في فترة ما»، و«ليس هناك شيء من هذا القبيل»، «شيء أمضينا شبابنا في البحث عنه، وفقدناه عندما حصلنا عليه»، وكان من الملفت أيضاً أنّ ٣٠ بالمئة من السيدات أدلين بإجابات تحدّثت عن العشق الإلهيّ.

المتعة (الغرائز)، الحبّ (المنطق)، العشق (الروح)

تشير هذه الإجابات إلى أنّه من الضروريّ أن نتعرّف على العشق بشكلٍ أفضل. ربما هناك حاجة لأن نتعرّف عليه ونواجهه من جديد. سيكون الشكل الوارد أدناه مفيداً في فهم العشق بطريقةٍ أسهل.



يا ترى من أيّ المراحل يمرّ الإنسان حتى يصل إلى العشق؟ أو أيّ مستوىً عاطفيٍّ يصل الإنسان بعده إلى ديار العشق؟

حاول الأخصائيّون ترتيب المراحل المتّجهة إلى العشق الذي هو حالة عاطفيّة رئيسيّة.

توجد المتعة في قاعدة الهرم. وفي الوسط الحبّ، وفي الأعلى العشق.

تشير الدراسات المتعلّقة بعلم النفس وعلوم السلوك إلى وجود المتعة كشعورٍ رئيسيٍّ أوليٍّ لدى كلّ إنسان. يمكننا القول إنّ الحالة المتطورّة للمتعة هي الحبّ، والحالة الأكثر نقاءً هي العشق. كما هو ملاحَظ، بينما تسري المتعة على جميع الأفراد، يتناقص عدد الذين يصلون إلى الحبّ الذي هو مرحلة أعلى. أما من يبلغون العشق بعد تجاوز مرحلة الحبّ فهم مجموعة أقليّة تتربّع على قمّة الهرم.

لنتوسع بالمخطط على نحوٍ أكبر:

٣- الفؤاد القلب	←	**العشق** حاجة ورغبة الروح	← روحي (عاطفي)	← الأنا العليا	← العطاء	أ
٢- الإرادة	←	**الحب** حاجة ورغبة العقل	← منطقي (عقلي)	← الأنا	← العطاء/ الأخذ	ب
١- الغرائز	←	**المتعة** حاجة ورغبة الجسد	← فيزيولوجي (جسدي)	← الأنا السفلى	← الأخذ/ الاستهلاك	ج

نعلم أنّ كلّ إنسان، وحتى كلّ كائنٍ حيٍّ، يتمتّع بغرائزَ منذ الولادة. بحسب هـ. هارتمان، المعروف بدراساته في هذا الخصوص، فإنّ الغرائز هي احتياجات ضروريّة تكون تلبيتها إجباريّة أحياناً من أجل استمرار حياةِ الكائن[1]. بعبارةٍ أخرى، يتصرّف الكائن الحيّ بموجب هذه القدرة المتوفّرة لديه منذ الولادة من أجل البقاء على قيد الحياة وحماية نفسه. يأتي الطعام والشراب والحماية والسكن والجنس في طليعة الاحتياجات الغريزيّة.

الهدف الأصليّ للاحتياجات الغريزيّة هو الرغبة في تلبيتها بأيّ حال وتحت أيّ ظرف. بمعنى أنّ هذه الاحتياجات فرديّة، موجّهة للشخص. لا تهتمّ بالمحيط خارج الشخص، ولا بظروف المحيط وتطلّعاته ولا التأثيرات وردود الأفعال القادمة من الخارج. تلعب القيم من قبيل أخلاق المجتمع والعدالة والثقافة والتقاليد دوراً في تقييد تلبية الاحتياجات الغريزيّة.

تعرّفتُ على شابّ قبل بضع سنوات. طلب مني أبواه أن أُجري لقاءً معه. لا يريد الشابّ الزواج. يبلغ من العمر ٢٧ عاماً، أنهى الدراسة الجامعيّة ويعمل في شركة تأمينات. سألته بإصرارٍ عن سبب عدم زواجه أو عدم قدرته على الزواج. خلال لقاءٍ دام ساعة كاملة كان يلفّ ويدور ويكرّر الكلام نفسه. *تحدّث عن احتياجاته الجسديّة وعن أطوال الفتيات اللواتي يلتقيهن وأوضاعهن التعليميّة. فهمتُ من حديثه أنه يبحث عن شخصٍ ليأخذ منه باستمرار.* الملفت في الأمر هو أنه لم يتحدث أبداً عن الحبّ والعشق وتقديمه أشياء للآخرين.

---

١ - هـ. هارتمان، Ego Psychology and the Problem of Adaptation. Hogarth Press. لندن ١٩٥٨.

الغرائز واحتياجات الجسد
(المرحلة الأولى)

كما هو ملاحظ في الشكل، الخطوة الأولى لرحلة العشق هي الاحتياجات الغريزيّة الرئيسيّة التي لا يمكن للمرء بمعنىً ما صدّها، ويواجه مصاعب في ضبطها. *الغرائز هي المصدر الرئيسيّ في هذه المرحلة. يتخذ السعي إلى المتعة الذي يستمدّ مصدره من الغرائز، شكل الاحتياجات والرغبات الرئيسيّة للجسد. الغاية الرئيسيّة في هذه المحطة الأولى للعشق* هي *تلبية الاحتياجات الطبيعيّة اليوميّة للجسد.* يتمّ توجيه هذه المرحلة الأولى من خلال الأنا السفلى (*id*)، وهي الإضافة الأولى لتحليل الشخصيّة لدى فرويد. هذه المرحلة الأولى هي نطاق سيطرة «النفس» من وجهة نظر المنظومات الاعتقاديّة. كما هو ملاحظ، هذا مجالٌ للكسب لدى الشخص تجاه نفسه وإشباع رغباته الجسديّة.

كلّما تمّت تلبية الاحتياجات الغريزيّة تظهر طلبات ورغبات أرفع مستوى، وتتّجه الاحتياجات الغريزيّة رويداً رويداً إلى اتّباع قواعد معيّنة وإلى الانضباط. وهكذا تتحوّل الغرائز الموجّهة نحو الكسب الماديّ إلى رغبات وطلبات أولاً، ثم تخرج من إطار الطلبات الماديّة لتصبح طلبات اجتماعيّة.

المنطق، الإرادة واحتياجات العقل
(المرحلة الثانيّة)

المحطة الثانيّة في طريق العشق هي الحبّ. هذه حالة عاطفيّة قويّة يتدخّل فيها المنطق النابع من الإرادة، والانضباط والقواعد التي يتعلّمها الإنسان.

تصبح القوة العاطفيّة الخاضعة لسيطرة الغرائز والموجّهة إلى المتع والرغبات الجسديّة، تحت سيطرة الإرادة. *وبمعنىً ما، يتّخذ التقدم على طريق العشق حالاً أكثر منهجيّة وانضباطاً ويتحوّل إلى رغبة وحاجة العقل.*

يخرج الشخص من الإشباع المجرّد للغرائز ويرتبط بالحبّ مع من يرغب بلقائه. تتدخّل في هذه المرحلة الضرورات الرئيسيّة للحبّ، الذي هو سلوك ذو جانب مكتسَب. تقع هذه المرحلة في نطاق «الأنا-ego» في الشخصيّة. الأمر هنا يتعلق بإشباع تطلّعات الفرد ذاتيّة المركز أي الموجّهة لنفسه من جهة، وهناك علاقة أخذ وردّ بين الشخص ومحيطه من جهة أخرى. العاشق والمعشوق معاً على مستوى متماثل وفي المقدمة.

الوجدان، القلب واحتياجات الروح (المرحلة الثالثة)

نحن هنا أمام جيشان عاطفيّ قويّ ومتراكم ومتزايد يتجاوز الجسد ويتحوّل إلى حبّ، لكنه لا يقف عند هذا الحدّ بل يتخذ صفة الولع الذي لا غنى عنه ولا يعترف بالحدود ولا يمكن مجابهته. هذا ما يسمى بالعشق. يكون العاشق هنا في الواجهة. وتتواجد في هذه المرحلة المتعة والمنطق في آن معاً. أي أنّ العشق المتربّع على أعلى مرتبة يشتمل على المرحلتين اللتين تسبقانه.

كما هو ملاحظ، تتحوّل رحلة العشق لدى الإنسان من الحاجات والرغبات الجسديّة للغرائز الرئيسيّة التي تطالب بالإشباع على نحوٍ لا يمكن مقاومته إلى حبٍّ تسيطر عليه الإرادة، ومن ثمّ إلى عشقٍ تكون فيه الرغبة القلبيّة والروحيّة والطمأنينة.

ربما يكون الجانب الأكثر وضوحاً في المرحلة الثالثة عدم توجّه الرغبات والطلبات الأساسيّة للفرد من الآن فصاعداً نحو ذاته فقط. نعم أصبح الشخص عاشقاً، لكنّه لا يفكّر بنفسه فقط. ربما يفكّر بمعشوقه أكثر مما يفكّر بنفسه. تتجاوز رغبة اللقاء حدود الأنا لديه.

تتضمّن هذه الخطوة الأخيرة بوّابات التوجّه نحو الإله، كما صوّرته كل الأديان تقريباً. وبِلُغة التصوّف هي مؤشّر القدرة على النظر إلى الحياة والوجود بنظرة مختلفة.

عند الحديث عن العشق في الحياة اليوميّة أوّل ما يتبادر إلى العقل مباشرة الجنس الآخر أو ممارسة الجنس. وبمناسبة الحديث، أودّ التأكيد بالبنط العريض أنّ العشق الذي نتحدّث عنه هنا لا يقتصر على الجنس. العشق الذي لا يتجاوز الجنس لا يمكن إلا أن يكون واقعاً تحت تأثير عالم المُتَع والغرائز في المرحلة الأولى. في حين أنّ العشق الحقيقي، الذي يتجاوز الحبّ الإرادي من وقت لآخر، هو عاطفة قويّة تتّجه من الفرد إلى محيطه والأحياء والجمادات وعالم الموجودات بأسره، ويمكن أن تتمتّع بمسحة إلهيّة. وتبقى حقيقة وجديّة العشق المرتهن بالجنس موضع نقاش.

يمكننا القيام بالتشبيه التالي إذا اعتبرنا رحلة العشق مراحل للّقاء مع الحبيب: يرغب الفرد في المرحلة الأولى بالوصول إلى الحبيب مهما كلّف الأمر. توجّه الغرائز والمُتع والاحتياجات الجسديّة هذه الرغبة. هذه مرحلة الرغبة والإشباع من جانبٍ واحدٍ. الهدف الأصليّ هنا هو الإشباع الماديّ.

إذا تجاوز طلب اللّقاء حدود رغبات الجسد يتدخّل المنطق. تتحوّل الرغبة باللّقاء إلى حبٍّ إراديٍّ. ليس الجسد وحده من يرغب باللّقاء، بل إنّ المنطق أيضاً أصبح طرفاً في هذه الرغبة.

يتجاوز الشوق للحبيب في المرحلة الأخيرة الحاجة الجسديّة والمنطقيّة ويسمو ويتعزّز ويبلغ مستوىً روحياً. يصل الشخص إلى رغبة في اللقاء على المستوى القلبي، إلى الولع وربما إلى حبٍّ جيّاشٍ ضلّ طريقه، أي إلى العشق الحقيقيّ. تبلغ الرغبات الماديّة في هذه المرحلة مستوىً يفوق بكثيرٍ التطلّعات التي هي في مقياس المنطق. تتّخذ رغبة اللقاء حالاً لا يمكن مقاومته. يؤكّد بعض الأخصائيّين أنّ هذه المرحلة تُمنح إلى عددٍ قليلٍ جداً من الأشخاص. لذلك فإنّ بلوغ العشق الحقيقيّ ليس في متناول يد أيّ كان.

هناك أيضاً شروط تقيّد كلاً من المراحل الثلاث. على سبيل المثال، في مرحلة المتعة قد يقيّد مستوى الرغبة والجهد في الجسد اللقاء مع الحبيب. وفي مرحلة الحبّ الخاضع لسيطرة الإرادة تلعب القواعد والانضباط دوراً مقيداً. وفي النهاية قد تقيّد الأخلاق والثقافة والعادات والتقاليد الراسخة في المجتمع، العشق.

الحبّ حاجةٌ أساسيّةٌ

أخاف
تقول إنّك تحبّ المطر،
وعندما يهطل تحتمي منه بشمسيتك..
تقول إنك تحبّ الشمس،
وحين تطلع تفرّ إلى الظلّ..
تقول إنك تحبّ الريح،
وعندما تهبّ تغلق نافذتك..
لهذا أخاف،
فأنت تقول إنّك تحبّني..

- ويليام شكسبير

الحبّ حاجةٌ أساسيّةٌ

هناك أيضاً من يخافون من العشق والحبّ. هناك من يتجنّبون الحبّ ويتفادون العشق. هناك من طرحوا من حياتهم العشق والحبّ. وليس عدد هؤلاء بقليلٍ مع الأسف.

يقول أبراهام ماسلو إنّ احتياجاتنا تقع في تسلسل معيّن حسب الأولويّة. يرتفع هذا التسلسل على شكل هرمٍ من الاحتياجات الرئيسيّة ليصل إلى الاحتياجات الأرفع. مستوى الاحتياجات الأساسيّة الأدنى هو الطعام والماء

والجنس. الاحتياج الثاني هو الأمان، والثالث هو السكن والمأوى، والاحتياج الرابع هو الحبّ والانتماء والتقدير، والاحتياج الأخير هو تحقيق الذات. بحسب ماسلو فإنّ هذه الاحتياجات مرتّبة بشكلٍ متسلسلٍ. من أجل تحقيق احتياج أعلى ينبغي أن يكون الأدنى منه قد تمّت تلبيته[1].

هناك تسلسل احتياجات مماثل بخصوص الحبّ الماديّ الذي نسعى لتطويره ويستمد مصدره من الغرائز، والحبّ الموضوعيّ الذي يستمدّ مصدره من المنطق، والحبّ النقيّ والعشق الذي يستمد مصدره من الروح والقلب.

يتعيّن علينا في هذا السياق التأكيد على ناحية تثير جدلاً كبيراً في علم النفس. كان من المقبول في دراسات فرويد وخصوصاً نظريّة ماسلو في التسلسل الهرمي للاحتياجات أنه كلّما تمّت تلبية الاحتياجات الأساسيّة للناس كلّما ارتقوا إلى مستويات أعلى. لكن الدراسات في السنوات العشرين الأخيرة أظهرت أن الناس يمكنهم الارتقاء إلى مستويات أعلى على الرغم من عدم تلبية احتياجاتهم الأساسيّة. هذا يعني أنّ بإمكان الأفراد التوجّه إلى احتياجات من مستوىً أعلى سواء أتمّت تلبية الاحتياجات الغريزيّة الرئيسيّة أم لا.

عدم وضع العشق والحبّ في المقاربة الشخصيّة يدفع الفرد إلى المستوى الأدنى، أي إلى المطالب الغريزيّة. علينا ألا ننسى بأنّ فقدان الحبّ والعشق سيجمّد احتياجاتنا في هذا المجال. بيد أنّنا بشر، والحاجة أساسيّة لدينا لأن نحبَّ ويحبّنا الآخرون. ولأنّ المجتمعات الغربيّة لم تلبِّ هذا الاحتياج

١- أ. ماسلو، نفسيّة الإنسان (ترجمة أوكتان كوندوز)، منشورات كورالديشي. إسطنبول ٢٠٠١.

بالشكل الكافي تتأثر الصحّة النفسيّة فيها. فهي توجّه حبّها إلى الأحياء والجمادات المختلفة من أجل ملء هذا الفراغ.

قد يؤدّي عدم تلبية حاجة الفرد للحبّ إلى مشاكل عاطفيّة وروحيّة شديدة الخطورة حقاً. لذلك من الضروري والمهمّ أن يلبّي الأفراد احتياجاتهم المتعلّقة بالحبّ مهما كانت الظروف. لأنّ الحبّ فعّال في حل الكثير من المشاكل الفرديّة من قبيل الانتماء والفهم والتعبير عن النفس وعدم العزلة. وإلا فإنّ الفرد سيختزل حاجته إلى الحبّ في المستوى الفيزيزلوجيّ الأساسيّ أي الغريزيّ فحسب. وهذا ما سيحول دون إشباع الحبّ اللازم من أجل الصحة الروحيّة.

ما الفائدة إن عشقت؟

من المهم ألا نتساءل عن جدوى حبّنا وعشقنا، وأن نتمكّن من التوجّه بمحبّة إلى محيطنا بعزيمة وإصرار. يمكن لمن ينظرون بعين الحبّ أن يحبّوا ويكونوا محبوبين. لا تنسوا أنّ عود الثقاب وشرارته قد يكونان صغيرين جداً. لكننا نرى أنّ الشرارة تكون أحياناً أقوى من غابة. ولا تنسوا أيضاً أنكم ربما تغيّرون العالم بأسره من خلال تغيير مكان حجرٍ صغيرٍ على قمّة جبل.

تتلوّن الحياة من خلال إضفاء أشياءَ من أنفسنا على هذا الطريق والرحلة. هناك نبعُ حبٍّ صغيرٍ أو كبيرٍ لدى كل إنسان، وما ينمّيه ويطوّره ويقوّيه هو توجّه هذا الحبّ نحو الواقع والممارسة وانعكاسه على الحياة اليوميّة. لذلك يجب علينا أن نتغلّب على الأحكام المسبقة بحقّ الحبّ والعشق، بقدر ما نتصدى للحبّ.

يفضّل بعض الناس التحمّل وليس الكفاح. الأمر المهمّ هو إدامة عزمنا على الكفاح في مواجهة الأشياء التي نعتقد أنّها لا تسير على ما يرام في حياتنا، وليس تحمّلها. يتطلّب الحبّ والعشق أيضاً الكفاح. وخصوصاً مرحلة العشق، فالوصول إليها يتمّ عن طريق الكفاح. سينمّي الكفاح من أجل الحبّ السلام الذي أصبح العالم يحنّ إليه بشكل متزايد ومعه بقيّة الأشياء الجميلة. استخدمت صورة منتشرة على شبكة الإنترنت في الكثير من ندواتي. تعبّر الصورة بعمقٍ عن الحبّ والولاء والانتماء والأهميّة الممنوحة للحبيب.



السؤال المطروح هو التالي: من لديهم الكثير من الأسباب للابتعاد عنكم هل ينتظرونكم على الرغم من ذلك؟

أجريتُ التنقيحات على هذا الجزء من الكتاب وأنا على متن الطائرة. كنتُ مسافراً في الجوّ من أجل إلقاء محاضرة بعنوان «الأزمة الإنسانيّة والقيادة الخادمة» في المركز الثقافيّ التركيّ في نيويورك. لم تستطع السيّدة

الجالسة إلى جواري كبت فضولها حتى النهاية، وسألتني عما أفعله. حاولتُ أن أشرح لها وطلبتُ منها مقترحات من أجل عنوان الكتاب، فاقترحت بدورها «العمق الإنسانيّ» أيضاً. عندما حدثتُها قليلاً عن المحتوى كان تعليقها مثيراً للاهتمام: «لكن إذا كان الإنسان سيعطي دائماً إلى محيطه ماذا سيحدث؟ سينهار. لن يبقى لديه ما يعطيه».

أنا على ثقة أنّ الكثيرين يتشاطرون هذه الفكرة. لكن علينا ألا ننسى بأن الحبّ لا ينضب بالعطاء، على العكس يزداد. والأمر نفسه ينطبق على المال. وكذلك الجهد المبذول من أجل الناس.

فكّروا بمن لا يقيمون وزناً لحياتهم ويبذلون الجهد من أجل الإنسان والإنسانيّة. سأذكر لكم البعض ممن تبادروا إلى ذهني فوراً. الأنبياء الذين جاهدوا من أجل خير ورخاء الإنسانيّة. على سبيل المثال ما أودى بحياة سقراط هو إصراره على مناقشة الأفكار المخالفة التي لا غنى عنها من أجل الديمقراطيّة. يصيخ العالم بأسره السمع إلى نداء مولانا «تعال». ألم يتجوّل يونس إمرة في الكثير من البلاد وهو يحمل العشق؟ هل كان كفاح غاندي المؤلم له عن عبث؟ هل يمكن نسيان مدام كوري التي توفيت بمرضٍ أصيبت به بعد أن أجرت آلاف التجارب في سبيل إبداع قيمة من أجل الإنسانيّة؟ ألم تفز «نينة خاتون» بتضحياتها بعد أن تركت رضيعها وسطّرت ملاحم بطوليّة عندما سمعت باحتلال أرضروم؟ وهل دخل مصطفى كمال حرب الاستقلال من أجل نفسه فحسب؟

يمكننا التوسع بهذه الأمثلة. قد نكون أشخاصاً عاديين. لكن يمكننا على الأقلّ القيام بأمور عاديّة من أجل الآخرين. وعلاوة على ذلك فإننا إذا

أكثرنا ما نفعله من أجل الآخرين وأصرّينا على ذلك فمن يدري، قد نتخلّص من كوننا أناساً عاديين.

«أين كانت هذه الفتاة منذ أربع سنين؟»

كان أدهم البالغ من العمر ٢٣ عاماً في غاية الانفعال. لأنّه أنهى دراسته في كليّة الحقوق وهو من الأوائل على دفعته. لم يبقَ إلا بضعة أيام حتى يفي أبوه بوعده في شراء سيارة له. كانت الخطط جاهزة من أجل التقدّم بشكلٍ أكبر على الصعيد المهنيّ.

حدثت معه حادثة غريبة في اليوم الذي توجّه فيه إلى الجامعة من أجل تبرئة ذمته. التقى صدفة فتاةً في ساحة بيازيد (إسطنبول). لم تكن تلك فتاة عاديّة بالنسبة لأدهم. كانت جميلةً جداً. ولم يكن قد رآها من قبل. كانت نظراتُها بريئةً جداً، وعيناها لامعتان ومظهرها رقيق. في الحقيقة، لم يكن أدهم، بطبيعة شخصيّته، من النوع الذي يبدي عواطفه كثيراً. لكن ربّما للمرة الأولى كان هناك صوت داخله يقول له: «تعرّف عليها، لا تفوّت الفرصة». ومن جهة أخرى كان يفكّر «أين كانت هذه الفتاة منذ أربع سنين؟». في النهاية رأى الفتاة تدخل إلى محلّ تصويرٍ ضوئيٍّ. فدخل بدوره، وأدرك أنّ الفتاة الجميلة تعمل هناك. أخرج صفحةً من دفتره. لم يكن بحاجة لذلك لكنه أعطى الصفحة للحسناء وطلب تصويرها. كان يجد صعوبةً في النظر إلى وجه الفتاة. لأن شخصيّة وأخلاق أدهم كانت تملي عليه شيئاً، بينما تنطق عواطفه بشيء آخر.

خرج من المحلّ بعد ذلك. تغيّرت خطّة العمل بالنسبة له في ذلك اليوم. أجّل الحصول على وثيقة براءة الذمة. تجوّل لفترة، ثم استنسخ بعض الأوراق غير اللازمة. في كل مرة تحدّث ولو ببضع كلمات مع الفتاة.

عندما عاد إلى المنزل في المساء فكّر بأنه يرغب بشدة في أن يكون صديق الفتاة التي رآها وأن يمضي الوقت معها. وكلّما فكر فيها زادت نبضات قلبه. تحدّث مع أخته الكبيرة عمّا حدث معه.

كانت أخته ذكيّة. طرحت عليه السؤال تلو الآخر. «من هي هذه الفتاة؟ كم عمرها؟ هل لديها أسرة؟ أين تقيم؟ هل هي طالبة في الجامعة؟». لم يكن أدهم يعرف إجابات هذه الأسئلة. عندما فكّر بكلّ ذلك أصبح موقفه أكثر تحفظاً تجاه الفتاة الجميلة. وكأنّ بصيرة المنطق وضعت قيوداً أمام الرغبات الجسديّة. ثم اتخذ قراراً بأن يحصل على إجابات عن هذه الأسئلة. وبعد ذلك يقرر فيما إذا كان سيقيم صداقةً مع الفتاة أم لا.

إذا لاحظتُم، تجاوزت رحلةُ العشقِ لدى أدهم المرحلة الأولى وقطعتْ مسافةً نحو المرحلة الثانيّة. أي أنّ الرغبات الغريزيّة للجسد برزتْ في البداية، ثم تدخّل المنطق.

ننظر إلى الأحداث أولاً بشكلٍ ملموسٍ وماديٍّ في جميع المسائل تقريباً في حياتنا اليوميّة. بعد ذلك ترسم بصيرة المنطق والانضباط والقواعد لنا إطاراً. وفي نهاية المطاف تبحث الروح عمّا يرضيها. *يتقدم الإنسان من رغبة المتعة والإشباع المحسوسة الملموسة المرئيّة إلى الحبّ المبنيّ على الإشباع الإراديّ والمنطقيّ، ومنه إلى العشق الموجّه إلى الإشباع الروحيّ. لكن ينبغي علينا ألا ننسى أنّ هناك الكثير من الخسائر في هذا الطريق الدقيق.* أي أنّه بينما تندرج الرغبة في الإشباع الماديّ على الجميع، يكون عدد من يبلغون مرحلة الحبّ أقلّ. أمّا من يصلون مرحلة العشق فيكونون أقلّ بكثير.

عند النظر من هذه الناحية، يمكننا القول إننا جميعنا تقريباً نسعى وراء متعنا ودوافعنا الجسديّة المحسوسة والماديّة، وجزءٌ أقلُّ من بيننا يعتاد على

حبٌّ منطقيٌّ، وجزءٌ أقلُّ أيضاً يبلغ الحبّ القويّ الذي يروي ظمأ الروح، أي العشق. يكشف هذا التسلسل في الوقت نفسه أبعاد عمقٍ إنسانيّ. من يصل من البشر إلى الإشباع الروحيّ من خلال تجاوز غرائزه ثم فتح أبواب المنطق المجرّد، يكون قد بلغ مستوى السلوك الذي يقتضيه العمق الإنسانيّ.

من أيّ فئةٍ أنت؟

من الممكن التفكير بالرحلة التي نحاول القيام بها من أجل العشق، لتطبيقها على كافة مناحي الحياة. أي أنه يمكننا النظر إلى كافّة أدوارنا في الحياة بالتركيز على الناحية الماديّة المجرّدة أو القواعديّة المجرّدة أو الروحيّة المجرّدة. لننظر إلى مستوى الانتماء لأدوارنا في الحياة كطلاب وعاملين وأزواج وسياسيين ومؤمنين، ومدى جودة هذه الأدوار.

على سبيل المثال، المدرسة هي مهمّة الطالب. أداء المسؤوليات التي تفرضها المدرسة من دروس وامتحانات وما شابه، هو الواجب الوحيد للطالب. يمكن للطالب أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة وفق ثلاث فئات رئيسيّة للرغبة:

١- أنا موجود في هذا الصف بمقتضى عمري. ينبغي عليّ تحمّل هذه المدرسة كيلا أرسب في الصف وحتى لا أتلقّى عقوبات.

٢- ينبغي عليّ أن أتعلّم حتى أكسب مهنة وأتمكّن من الدخول إلى الجامعة.

٣- يتعيّن عليّ تطوير نفسي من أجل بلوغ مكانة في هذه الحياة، من أجل ترك أثر، ولكي أكون ناجحاً.

من المهمّ أن تعرف إذا كنتَ طالباً إلى أيّ الفئات الثلاث أنت قريب.

يمكن لعاملٍ ما أن يفكّر بعمله وفق ثلاث فئات رئيسيّة للرغبة:

١- ينبغي عليّ أن أكسب المال وأن أعمل ولا أفصل من العمل حتى أعيش.

٢- ينبغي عليّ العمل والإنتاج وكسب المال كما يفعل جميع الناس.

٣- هذا العمل جزء مهمّ من حياتي ولا يمكنني التخلّي عنه. هكذا أكون ذا فائدة للناس.

تتمتّع الفئة التي يمتلك السياسي مقاربة فيها بالأهميّة:

١- ينبغي على الجميع أن يعرفوا حجمي وقيادتي وسلطتي، أنا أفضل من الآخرين.

٢- يجب عليّ العمل وفق فكري السياسيّ والنظرة العالميّة والنظام الداخليّ للحزب.

٣- يجب أن أخدم الناس.

يمكن الحديث عن ثلاث فئات رئيسيّة من ناحية الحساسيّة في الجانب الديني:

١- ينبغي عليّ أداء العبادات كي أتّقي نار جهنم.

٢- العبادة تدخل الجنة، ينبغي عليّ الالتزام بأوامر الدين.

٣- ينبغي عليّ أن أكون إنساناً محبّاً للخير ومتطوّراً وكاملاً وصاحب فضيلة وأن أكسب رضا خالقي.

ولنفكر الآن على مستوى إخلاص الأزواج تجاه بعضهم:

١- زوجي/ زوجتي يلبّي كل احتياجاتي.

٢- يتزوّج الناس ويؤسّسون أسرة. نحن أيضاً تزوّجنا، أحبّه/ أحبّها.

٣- أعشقه/ أعشقها، لا يمكنني العيش بدونه/ بدونها، أفعل كلّ شيء من أجله/ أجلها.

في هذا الحال، تنطبق الحلقة في هرم العشق على كافة نواحي حياتنا. بوجيز العبارة، ننظر إلى الحياة وجميع المجالات المحيطة بها من ناحية مادّيّة (فيزيولوجيّة)، وقواعديّة (عقليّة) وروحيّة، ونتصرّف بما يتوافق مع ذلك. لا تنسوا أنّ هذه النواحي موجودة لدينا جميعاً، لكن إحداها تكون سائدة أكثر. إذن عليكم أن تجدوا الناحية السائدة في حياتكم.

العشق يشمل الحبّ ولكن..

هناك قناعة شائعة بخصوص العلاقة بين الحبّ والعشق. «يبدأ العشق أولاً. بعد ذلك يتباطأ ويذوب ليبدأ الحبّ. يكون مسار الحبّ مضطرباً، ولكنّه دائم».

أودّ التأكيد أولاً أني لا أوافق على هذه القناعة. ولهذا أقول وفق منطقٍ بسيطٍ: «جميع العاشقين يحبّون بطريقةٍ ما. لكن جميع المحبّين قد لا يكونون عاشقين». أي أنّ العشق هو عاطفة واقعيّة، لكنها أكثر خصوصيّة ورفعة وتطوّراً وحساسيّة. الحبّ هو حالة عاطفيّة وتفضيليّة أكثر عموماً وتبقى في الصف الخلفيّ بالمقارنة مع العشق. وهكذا فإنّ العشق يشمل ويتضمّن الحبّ في كل الأوقات تقريباً، لكنّ الحبّ لا يشمل العشق دائماً.

يمكن أن نحبّ الكثير من الأشخاص في حياتنا اليوميّة. لكن هذا لا يعني أننا عاشقون لهؤلاء الأشخاص. في المقابل، نحبّ في نفس الوقت

الشخص الذي نحن له عاشقون. لهذا فإنّ الأمر يتعلق بالرغبة الجسديّة والفيزيولوجيّة في المستوى الماديّ، ثم الحبّ المنطقي والإرادي، وأخيراً العشق الناجم عن الحبّ القوي.

والآن تعالوا ننظر إلى وضعنا. لننظر إلى أنفسنا وعشقنا ومستوى جودة وموقف العشق الذي نمتلكه. مثلاً، هل أنتم عاشقون؟ ماذا هناك في صميم عشقكم؟ هل تحبّون؟ من أو ماذا تحبّون؟على سبيل المثال، راجعوا في ظلّ المعلومات الواردة أعلاه عشقكم تجاه شريك حياتكم وعملكم. تأكّدوا ممّا إذا كان ما تسمّونه عشقاً هو في الحقيقة حبّ، وممّا إذا كان ما تعتقدونه حبّاً مكوّن من مجرّد رغباتٍ ومُتعٍ.

لننهي هذا القسم مع نقطةٍ حساسةٍ أخيرة. ينبغي علينا ألا نتجاهل عدم إمكانيّة تصرفنا وفق مقتضيات العشق دائماً وفي كلّ نواحي الحياة. المهمّ هو أن نحافظ على توازن الركائز الثلاث، وهي الجسد والعقل والروح، في كلّ مراحل حياتنا. ما نقترحه هو الإبقاء على الجانب الروحيّ قوياً. لكنّ المهمّ في الأمر هو القدرة على إقامة نظام حياة يمكنه المحافظة على هذا التوازن.

أذكر كلمةً لربّ عملٍ شابٍّ وحيويٍّ وناجحٍ للغاية، يمتلك مجموعة شركات نقدّم لها خدمات استشاريّة في مجال الشركات العائليّة: «أستاذيّ، أعدّ الدقائق من أجل الذهاب إلى البيت في المساء ولقاء الأهل. وفي البيت أقول ليت الصباح يحلّ بسرعة حتى أعود من جديد إلى عملي».

التحوّل النمطيّ للعشق

هل زوجتك هي الشخص الذي يلبّي رغباتك واحتياجاتك الماديّة المجرّدة؟ أم أنّها الشخص الذي توافق عليه منطقياً وتحبّه إرادياً؟ وهل لديك عشقٌ وحيدٌ لا تتردّد في فعل أيّ شيءٍ من أجله، وتجدُ نفسك في خدمته، ويحقّق لك الإشباع الروحيّ؟

عشقُ البلبلِ، عشقُ الفراشة

بما أنّ العشق هو حالٌ من الحبّ يتقاذفه الوله والولع وسيلٌ من المحبّة الجيّاشة، إذن لنعمل على ترتيب خصائصه الرئيسيّة من أجل معرفته وربما الإحساس به بشكلٍ أفضل.

- *الأخذ والاستهلاك فقط موجودان في عالم المتع الذي تحكمه الغرائز.* أما في الحبّ فهناك أخذٌ وعطاءٌ، لكن في العشق هناك العطاء فقط.
- *العشق هو حالٌ يتجاوز فيه الفرد رغباته وطلباته الجسديّة، وينظّم علاقاته مع العالم، ويرتقي فوق كلّ ذلك ليتخطّى حدود فرديّته.* وهكذا فإنّ العشق هو عمليّة التحرّر من «الأنا» والانضمام إلى «النحن»، ومنها إلى الإقدام على خطوةٍ نحو انعدام الذات.
- *يتقدّم العشق على طريق الحبّ في العالم الواقعيّ الخاضع لسيطرة المنطق والإرادة بعد التحرّر من المُتَع والطّلبات والرغَبات الماديّة التي*

تحكمها الغرائز. وفي نهاية المطاف يحول عمق القلب وولعه في عالم المجرّدات إلى حالة روحيّة فوق إنسانيّة. وهكذا فإنّ العشق فرحٌ غامرٌ باللقاء في عالمٍ مجرّدٍ يكون أعلى من ميول الحبّ المبنيّ على المنطق فيما يتعلق بالرغبات المحسوسة الماديّة للأنا وعلاقات الفرد مع العالم.

- *العشق هو تحرّر الفرد من ضغط الرغبات الغريزيّة كما هو الحال بالنسبة لجميع الأحياء، وهو قمّة النضوج لرحلة الإنسان كي يكون إنساناً.*
- *وهكذا فإن العشق بمعنىً من المعاني هو تجاوز الإنسان فرديّته الجسديّة وقدرته على الانفتاح على ذوات أخرى.* وبعبارة أخرى، هو تحرّر المرء من الحبس ضمن ذاته المجرّدة.
- *العشق هو رحلة المجازفة حتى بالموت عند الضرورة ليس من أجل أنفسكم، وإنما من أجل الآخرين والمجتمع وبعض القيم المشتركة.*
- *العشق هو التحرّق شوقاً مع حلم اللقاء، والقدرة على التخلّي عن الكثير من الأشياء من أجل المحبوب.* وهكذا فإن العشق هو نوعاً ما مسيرة المرء من عالمه الماديّ إلى العالم الاجتماعيّ العاطفيّ المعنويّ الروحيّ. أي أنّ العشق هو بمعنىً من المعاني تجاوزُ الذات.
- *العشق هو الدوران حول مصدر النور كفراشة ضعيفة تركّز اهتمامها على النور وتعتبره منبع اللّقاء النهائيّ، وتفتح جناحيها أمام النار.* وفي نهاية المطاف فإنّ اللقاء مع النور هو المجازفة بالتلاشي فيه. يدور البلبل حول الوردة، لكنّ الفراشة تتخلّى عن ذاتها كي تتّحد مع النور.
- *العشق هو تقدّم الفرد على الطريق من الأنا الماديّة إلى الأنا الاجتماعيّة، وهو كسب الفرد لنفسه من جديد.*

- *كون المرء عاشقاً هو حال روحيّة تتجه للعطاء أكثر من الأخذ.* هناك مقولة دارجة في الأناضول مفادها «يتجلّى عشق القلوب من خلال ما تمنحه اليد».
- *العشق هو حالة خاصّة من الرحمة والفرح والحيويّة والتسامح.* إلى درجة أنّ المرء يبدي شجاعة في رؤية نفسه في مستوى العدم ونقطة الصفر.
- *العشق هو القدرة على وقف «الأنا» ورغباتها اللامنتهيّة التي تحدّث عنها الكاتب الأمريكي جان إم. توينج في كتاب اسمه «جيل الأنا»*[1]. هو التوجّه إلى الآخر، وهو الرغبة في حماية المرء حبيبه من الأضرار التي يمكن أن تصيبه، وليس حماية نفسه. وهكذا فإنّ العشق هو توجّه من «الأنا» إلى «العدم».
- *العشق هو عدم التخلّي عن الحبيب ولو كان الثمن تجاوز الذات.* وكأنه هروب للروح الراغبة في الابتعاد عن المنطق.
- *العشق هو القدرة على التوجّه بكليتكم إلى الحبيب الذي تتحرّقون شوقاً إليه.* وهكذا فإنّ العشق هو أفق متجه إلى وجهٍ باسمٍ ونظرةٍ جميلةٍ ومستقبلٍ مشرقٍ.
- *العشق هو أن يكون المرء واثقاً وكفؤاً وشغوفاً، ويعمل على زيادة الحياة والإضافة عليها وتطويرها وإغنائها وإكمالها.*
- *العشق هو العمل من أجل الحبيب، وبذل الجهد مع الرغبة في لقائه، والقدرة على خدمته.* هو تقبّل الحبيب واحتضانه ككلٍّ بجميع جوانبه.

---

١ - جان إم. توينج، جيل الأنا، منشورات كاكنوس، إسطنبول ٢٠٠٩.

♦ *العشق هو خسوف عقلٍ وتمرّد منطقٍ، هو ارتقاءٌ للتعبير عن أنفسنا بطريقة مختلفة.* إنه نوعاً ما القدرة على العيش ليس لأنفسنا وإنّما من أجل الآخرين، من أجل قيم أخرى. أي أنّ العشق هو بلوغ ذروة العمق الإنسانيّ.

رحلة عمقٍ إنسانيّ

♦ *العشق هو القدرة على التحرّر من الأحكام المسبقة المعتادة، وعلى المشاركة في الخير والجمال.* وهو القدرة على التمسّك بالحبيب وجعله مرشداً، في كلّ الرحلات.

♦ *العشق ليس مصدر نورٍ مشتّت في كلّ الاتجاهات بلا هدفٍ وبشكلٍ عشوائيٍّ، وإنّما يتمتّع بالوعي والهدف ويركّز على نقطة واحدة كالليزر، ويتّجه نحو أهدافه.*

♦ *لا يكتفي العشق بالمكاسب الدنيويّة الزائلة بالموت، وإنّما ينكبّ على الحقائق القائمة بعد الموت.*

♦ *العشق هو «لحظة ذوبان»، وشفوف حبل الروح ببطء، وانقطاعه أمام وجه الحبيب الذي لا يرى/ لا يمكن أن يُرى*[1].

♦ *العشق هو القدرة على أن نضع أنفسنا مكان الآخرين (التعاطف).* هو القدرة على النظر من كلّ مكانٍ وليس من مكانٍ واحدٍ. وهو الانتقال بالرحمة والعدل والأخلاق والأدب والقواعد لتتجاوز حدود الأقوال.

---

١ - إسكندر بالا، مقابلة، ٢٠٠٩.

◆ *العشق ليس فرض ذاتنا على الآخرين.* على العكس، هو الشوق لنصبح قادرين على التعامل بحساسيّة مع الذوات الأخرى. ينضج المرء ويتطوّر ويتجاوز نفسه كلّما كان حساساً في التعامل مع الآخرين وحقائقهم.

◆ *العشق هو فنّ القدرة على أن نكون متاحين للوصول إلينا والحديث والتوافق معنا في الحياة اليوميّة والأسرة، ومع الزوجة وفي العمل ومحيطنا الاجتماعيّ.* الذبذبات الصادرة عن أرواح المسافرين على طريق العشق واسعة وشاملة.

◆ *العشق هو السعي لإعادة اكتشاف الإنسان الذي أنقصته وأضعفته حشود يجرّها عصر السرعة.*

◆ *العشق في الحقيقة هو صحوة.* إنّه تجاوز المرء للحبّ الماديّ، وصحوة من أجل نفسه والآخرين. هو تخطّي الحبّ المعتاد اليوميّ الصوريّ المفعم بالمادّة. إنه حبٌّ بطريقة أخرى. بدون إضافات وبلا مقابل. تجمع هذه الصحوة المحبّ والمحبوب في النار ذاتها.

◆ *العشق هو دوران.* يشير إلى الحركة والحيويّة والانسياب. هو استغناءٌ في طريق اللقاء. العشق هو دوران المرء حوله. دورانٌ بإصرارٍ ورغبةٍ وصبرٍ. كما تدور الفراشة حول النور. كما يدور راقصُ السماح. كما يطوف الناس حول الكعبة. كما تدور الأرض حول الشمس..

◆ *العشق هو استغناء.* هو الوصول إلى لذّةٍ خاصةٍ بكم. وهو الاستغناء عن ممتلكاتكم في هذا السبيل. العشق هو ذوبان الروح لتتلاشى في عينيّ المحبوب. بل إنه ذوبان بكلّ بطء. هو استغناء المجنون حتى عن ليلى.

- *العشق هو قدرة المرء على أن يكون لا شيء.* هو توجّه إلهيّ. وتقبّل العدم. هو قدرة المرء على أن يكون ميتاً قبل أن يذهب الموت بالروح. هو التقدم بسرعةٍ إلى نقطة الصّفر، والانتقال من الصفر إلى الواحد.
- *العشق هو الوقوع في العشق.* هو الاستغناء عن كلّ المحبوبين وردّهم. هو التحرّق بشغف، والوله بالعشق. هو النظر بعينٍ أخرى إلى الأشياء والدنيا والإنسان.
- *وأخيرا العشق هو المكان الذي تعجز فيه الكلمات.* إنه سموّ إلهيّ يفضي إلى وراء الماوراء. العشق هو حزن للناس العاديين وفرحة للعاشقين الحقيقيين.

بما أنّنا مسافرون على طريق العشق

العشق في الحقيقة هو السعي من أجل إضفاء لون على الحياة، وصنع التميّز. هو الارتقاء من الطلبات والرغبات الغريزيّة إلى عالم الحبّ، ومنه إلى فتح أبواب طمأنينة روحيّة جديدة ومترامية الأطراف.

يتمتّع موقعنا بأهميّة شديدة على صعيد وجهة النظر والموقف المتخذ في المسار ذو المراحل الثلاث، التي شرحناها بخصوص العشق. انطلاقاً من هذا الهاجس، ستوفر لكم مراجعة حالتكم ومواجهة وضعكم الحالي بشأن العشق قيمةً مضافةً هامةً. حتى تتمكنوا من معرفة موقفكم أو تكوين فكرةٍ عنه يتوجب أن تتمعنوا جيداً فيما ننقله في هذا القسم، وهذا أيضاً لا يكفي فعليكم تبنيه.

سواء أكنت طالباً أو عاملاً أو أماً أو أباً أو رجل أعمالٍ أو سياسيا، بالنتيجة أنت إنسان، وبالتالي فأنت مسافرٌ على طريق العشق. يجب أن نتقبل

ذلك أولاً. لبّ الأمر هو موقعنا في هذه الرحلة، في أي مرحلةٍ من مراحلها نحن، وكيف هو موقفنا الذي نواصل معه هذه الرحلة.

ربما يكون من الممكن أن نسلط الضوء على موقعكم في رحلة العشق من خلال بعض الأسئلة المعينة التي سنطرحها.

على سبيل المثال، بصفتك طالباً أو عاملاً أو أماً - أباً أو رجل أعمالٍ أو سياسياً في أي من المستويات ترى عملك؟ يمكنك التعاطي مع عملك من قبيل تلبيته احتياجاتك الملموسة الغريزيّة الماديّة المجرّدة. وربما يكون موقفك إرادياً محوره المنطق ومحتواه الحب. كما يمكن أن يكون موقفاً يستمد مصدره من رغبتك في الإشباع الروحيّ. في أي مرحلةٍ تضع نفسك، هذا هو المهم.

ستواجه صعوبةً قليلاً ولكن أجب عن الأسئلة التاليّة بصدقٍ، فهي ستتيح لك مواجهة نفسك.

ارتباطك بزوجتك وأسرتك ومدرستك وعملك

ما هو موقع زوجتك في رحلة العشق؟ لنزد الأمر صعوبةً، هل زوجتك هي الشخص الذي يلبي رغباتك واحتياجاتك الماديّة المجرّدة؟ أم أنها الشخص الذي توافق عليه منطقياً وتحبّه إرادياً؟ وهل لديك عشقٌ وحيدٌ لا تتردد في فعل أي شيءٍ من أجله، وتجد نفسك في خدمته، ويحقق لك الإشباع الروحيّ؟ إن لم تكن متزوجاً قم بتمارين ذهنيّة حول زوجة المستقبل، وسترى الفائدة.

أود تقديم بعض أطراف الخيوط من أجل تقييمك الوضع بخصوص زوجتك. فكر من فضلك، مستواك السلوكي قريبٌ من أي فئةٍ من الفئات

المذكورة أدناه. بطبيعة الحال عليك خلال عمليّة التفكير هذه ألا تميل كل الميل لنفسك وأن تسعى لتكون موضوعياً.

- **أعيش مع زوجتي.** تلبي احتياجاتي كزوجة. تقوم بالأعمال المترتبة عليها من المهام داخل أو خارج المنزل، من قبيل طهي الطعام وغسل الأطباق. تقدم لي ما يجب تقديمه.
- **أحب زوجتي،** أنا بحاجةٍ إليها وهي بحاجةٍ إليّ. نساعد بعضنا البعض. نحترم حقوق بعضنا. لدينا أسرةٌ ونعيش معاً. نواصل حياتنا هذه في إطار ثقافتنا والقواعد الاجتماعيّة الساريّة.
- **أنا عاشقٌ لزوجتي.** ليس لها مثيلٌ. لا أدري إن كنت لبيت طلباتها ورغباتها في هذه الحياة الدنيا. لا غنى لي عنها. إنها شغفي وشوقي. أفعل كل شيءٍ من أجلها. أثمن ما لدي ملكٌ لها.

في أي موقعٍ أنت؟ إذا كانت إجابتك «هناك بعض من كل ذلك» إذن أي واحدة من هذه الصلات الثلاث التي تجمعكما أقوى؟

اطرح مجموعة من الأسئلة المشابهة حول المجالات الأخرى من حياتك أو عن أدوارك الأخرى في الحياة. وبعد ذلك اجب عنها.

على سبيل المثال، *الذهاب إلى المدرسة، حبّ المدرسة، مواصلة التعلم بعشق..أين أنت من ذلك؟*

مثالٌ آخر، *الذهاب إلى العمل، حبّ العمل، عشق العمل أو العمل بعشق..في أي فئةٍ أنت؟*

والآن لنتكلم بكل صراحةٍ. لنتحدث عن ضعفٍ، بل عن مرضٍ، في الإجابات التي تقدمها عن هذه الأسئلة. إذا كنت تجد عبارات تبريرٍ تبدأ

بكلمات من قبيل «لكن» و«لو» و«غير أن» فحذارِ. ابتعد عن تلك الكلمات وتجنبها. ابتعد عن عبارات من قبيل «لو أن زوجتي كانت كذا، لو أن عملي وفر لي كذا، لو أن المدرسة لا تفعل كذا إذن لأحببتها، أو لعشقتها طبعاً». حتى لو كان لهذه العبارات جانبٌ من الحق والواقعيّة، المهم هو أن تراجع وضعك، وأن تقوم بما يقع على عاتقك.

يعرف معظمنا هذه القصة المشهورة. ألقى نمرود بسيدنا إبراهيم عليه السلام في نارٍ شديدةٍ. بعض الموجودين في محيطه صاحوا أسفاً وحزنوا. والبعض الآخر فرح واستبشر. كان هم البعض زيادة استعار النار، فيما البعض الآخر يريد إخمادها. يأتي عصفورٌ صغيرٌ وفي منقاره قطرة ماءٍ يلقيها على النار. يسخر الموجودون من العصفور.

ويتساءلون: «هذه نارٌ شديدةٌ، فماذا تفعل قطرةٌ من الماء؟». إجابة العصفور ذات مغزىً هام: «غايتي أن أوضح بأنني أقفُ إلى جانب من يخمدون الحريق».

تروي لنا هذه القصة الشيء الكثير. بعد كل ما قلناه عن العشق، يجب علينا أن نراجع وضعنا.

سألنا الناس عن العشق

أثناء كتابة هذا القسم من الكتاب، سألت الكثير من الناس حولي عن العشق. طرحت السؤال على الأطفال والشباب والكبار والمسنّين والأغنياء والفقراء والطلاب والمرضى: «ما هو العشق؟ ماذا تفهم من العشق؟». سجلت باختصارٍ الأجوبة التي حصلت عليها من المجموعات المتوازنة على

صعيد العدد، دون الوقوع في هاجس إجراء استطلاعٍ مملٍ. ثم جمعت الإجابات المتشابهة في فئاتٍ بطريقة تحليل المحتوى.

بالنتيجة، ذهلت مع تشكل فئات الإجابات الأكثر وروداً عن هذا السؤال الرئيسي. قدمت هذه النتائج، التي كنا نتوقعها في الحقيقة، دلائل هامةً حول كيفيّة فهم وتفسير الإنسان المعاصر للعشق، وأين يقف في الطريق إليه.

جاء ترتيب مجموعات المفاهيم الرئيسيّة الأكثر تكرراً في فئات الإجابة عن سؤالي «ما هو العشق؟» و«ماذا تفهم من العشق؟» على النحو التالي (تبدي هذه الإجابات توازياً مع نتائج الدراسة التي تحدثنا عنها في العناوين الفرعيّة السابقة):

١ - المال، القيم الماديّة، النجاح، الكسب، أداء عملٍ ما، السياسة، المحيط الشخصيّ..

٢- الحبيب، الجنس، الصداقة، الاستمتاع، قضيّةٌ حساسة، فاتنا القطار..

٣- العشق الذي لم نصل إليه، له اسمٌ، صعب المنال، بقي في الماضي، سعينا وراء الرزق..

٤ - الدين، الإيمان، التصوف، التوجه إلى الله، حبّ الناس، نفع الناس، الأنبياء، مولانا، يونس إمرة، حبّ الروح، الإنتاج، بذل الجهد، العمل..

تقدم هذه الدراسة الصغيرة، التي شملت ١١٠ أشخاصٍ، فكرةً هامةً. كما هو ملاحظ، يختصر الناس العشق بالقيم الماديّة أولاً. بعد ذلك الجنس،

ثم يصورونه على أنه عاطفةٌ جديرةٌ بالانتقاد ولا يمكن الوصول إليها. أما الفئة الرابعة فتقدم إجاباتٍ تربط الموضوع بعشق إلهي فوق البشر.

انطلاقاً من ذلك، هل نبالغ حين نقول إننا لطخنا حتى العشق، تلك العاطفة الساميّة، بالمال والنقود. أترك لكم التقدير.

لو أن السؤال وُجه إليكم فماذا كنتم ستجيبون؟ أو إلى أي فئةٍ تشعرون أنكم أقرب؟

لاحظوا أن العشق الذي هو عمليّة ابتكار قيمةٍ مضافةٍ ويمكن أن يروي ظمأ الناس كلما ابتكروا، يُصور في البداية على أنه سببٌ ونتيجةٌ للغنى الماديّ. هكذا نفقد بسرعةٍ طريقاً ورحلةً تتجه من قلب إلى آخر.

في هذه الحالة، لننظر إلى أنفسنا كأشخاصٍ بسيطين وعاديين رغم كل مؤهلاتنا ومواقعنا الاجتماعيّة. لنحاسب أنفسنا حتى نتمكن من بلوغ هذه النظرة. ينبغي علينا فوراً محاسبة ومراجعة قوالب أحكامنا وسلسلة القيم التي شكلتها، بل رسختها بسرعةٍ التكنولوجيا المتقدمة وعصر المعلومات والحداثة والتلفزيون والإنترنت وما شابه. يا ترى هل جرفنا نحن أيضاً سيل الذاتيّة والفرديّة الذي يتدفق بلا هوادةٍ ويقضي على ما في طريقه؟

انظر إلى محيطك وزوجتك وأسرتك ومدرستك وعملك ورب عملك وزعيم حزبك السياسي وجارك وأستاذك. انظر إلى شبكة العلاقات التي أنت فيها. هل هناك وجودٌ ساحقٌ للقيم الماديّة في شبكة العلاقات هذه؟ هل توفر لك هذه الشبكة طمأنينة الروح؟ ما هو مدى قدرتك على التعبير عن نفسك حقاً في مسار هذا التفاعل والتواصل؟ بعبارةٍ أخرى، ما هو مدى تطابق «ذاتك» التي يرغب بها من حولك مع «ذاتك» الحقيقيّة؟

ماذا يمكننا أن نفعل؟
إسهامكم في بناء الشخصيّات

سعدي الشيرازي هو مفكرٌ ومربٍّ وكاتبٌ سلّط الضوء بشكلٍ رائعٍ على طريق العشق. يروي الشيرازي حكايةً في «غلستان» أحد أهم مؤلفاته[1]. يقول: «أعطاني أحدهم صلصالاً طيب الرائحة. سألت الصلصال: أأنت مسكٌ أم عنبرٌ؟ رائحتك جميلةٌ جداً، لقد أسكرتني. أجابني الصلصال: أنا في الحقيقة قطعة أرضٍ عديمة الشأن. لكني كنت بجوار وردةٍ لفترة. انتقلت إليّ رائحة صديقتي الوردة وجمالها ونضجها».

تأثرت كثيراً بهذه الحكاية. لأنني أرى بشكلٍ واضحٍ في الحياة اليوميّة، وخصوصاً في فترة عملي في الاستشارات المستمرة أكثر من ٢٠ عاماً، تأثيرات الناس على بعضهم. يمكننا أن نرى الناس يصبحون عميقي التفكير وحيويين بقدر أصدقائهم المقربين. حيثما نرى شخصيّةً ذات عمقٍ إنسانيّ، تغرد خارج السرب وتطور نفسها وتتميز، نلاحظ التأثير الكبير لمن حولها في تشكل هذا التميز. نرى أن إلى جانب هذا العقل الاستثنائي هناك عقولٌ استثنائيّة. نرى أن هناك مرشدون للأشخاص القادرين على التحكم بغرائزهم، والذين نالوا نصيبهم من بحر الحبّ، وقطعوا شوطاً على طريق العشق وليسوا غرباء عن طمأنينة الروح.

تناولت في كتابي «رحلة قلب: القيادة الخادمة» قصص حياة بعض الزعماء الذين كان لهم تأثيرٌ في تاريخ العالم. وفي التحليل هنا أيضاً نرى أن

١- سعدي الشيرازي، غلستان، منشورات بارلتي، إسطنبول ٢٠٠٤.

الزعماء الناجحين حقاً يوجد حولهم شخصيّاتٌ ناجحةٌ ومتقدمةٌ في مجالات اختصاصها.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: من حولك؟ فكر من فضلك، مع من أنت؟ مع من تتشاطر وقتك؟ تحمل أثر من؟ من تشرك في عواطفك؟ على أيّ كتفٍ تضع رأسك وتبكي عند الضرورة؟ مع من تتشاطر قضيّةً ما ومع من تتنافس وإلى من تلجأ للاستشارة؟ من يضيئون دربك حقاً؟ من يمسك بيدك ويثري حياتك؟ لمن منحت قلبك؟ لمن تتحدث عن حياتك العاطفيّة؟ إلى من تهمس بعيوبك وآثامك؟ من هو توأم روحك في طريق الحياة المعقدة هذه؟ على سبيل المثال، لو تحدث الناس والأحياء والبيئة والأمكنة وحتى الجمادات، فماذا سيقولون عنك؟

ما هي الكتابات والمؤلفات والألوان والمشاهد والأصوات التي توجهك؟ من هو الذي يدعمك ويشجعك في رحلتك كي تكون وتبقى إنساناً؟

نعم، ما هي إسهاماتك في عثور من هم حولك على الشخصيّة، وفي بناء الشخصيّات؟

يقول شاعرٌ إيراني: «يحترق الجناح الطائر إلى العشق»، في حين يقول مولانا: «بماذا يفيد جناحٌ لا يطير إلى العشق».



التطوّر الشخصيّ

التطوّر الشخصيّ: تطورٌ من أجل من؟

التطوّر الشخصيّ ليس هرولةً وراء حلمٍ يتجاوز قدراتنا عبر شعاراتٍ من قبيل «هيا أيها البطل، بإمكانك فعل ذلك». كما أنه ليس تجاوز الناس وكسب المال وتحقيق الشهرة مهما كانت الظروف. التطوّر الشخصيّ هو تحويل الحياة إلى ساحةٍ للتعلم والتطوّر من أجل الآخرين بقدر ما هو لأجلنا.

موضة التطوّر الشخصيّ

أعيش منذ عشرين عاماً مع مفاهيم الإنسان والأسرة والتربيّة والتواصل والشركات العائليّة والقيادة. التطوّر الشخصيّ هو أحد المراكز التي تتقاطع فيها المفاهيم آنفة الذكر. لذلك فإن التطوّر الشخصيّ هو أحد الأهداف الهامة لكتابنا، وعنوانٌ رئيسيٌ له.

من ناحيةٍ أخرى، يمر طريق الوصول إلى العمق الإنسانيّ المأمول في عصرنا هذا والذي حددنا إطاره في الكتاب، عبر التطوّر الشخصيّ. فهناك دورٌ كبيرٌ للتطور الشخصيّ في تجاوز الفرد عقبة الأنا واكتسابه الوعي لإنتاج قيمةٍ مضافةٍ من أجل الآخرين.

أعيش منذ سنين ضمن هذه القضايا. لكنني واجهت مصاعب خلال كتابة هذا القسم. لأننا نرى أن التطوّر الشخصيّ، شأنه شأن معظم القضايا الراهنة، يخرج عن مساره الأصلي من حينٍ لآخر جراء مخاوف تجاريّة.

وفق مقاربةٍ أساسيّةٍ أتبناها، أعتقد أنه من الضروري إعمال الفكر في الضروريات عوضاً عن توجيه النقد إلى الأعمال والدراسات الأخرى.

لكن لا بد لنا من الإشارة إلى ناحيةٍ هامةٍ وهي أن رياح التطوّر الشخصيّ المتنامية قبل ٤٠-٥٠ عاماً في البلدان الغربيّة على وجه الخصوص، بدأت تهب بسرعةٍ في بلدنا في الأعوام العشرة الأخيرة. ما هو مدى تطور الأفراد وبلوغهم السعادة والنجاح جراء البرامج التلفزيونيّة والكتب والتدريبات كالدورات والندوات والمحاضرات المتعلقة بالتطوّر الشخصيّ؟ هذا ما يتوجب علينا البحث فيه. تتعلق المنشورات والدراسات في هذا الخصوص بنفسيّة الأفراد بشكلٍ مباشرٍ. وهنا يُطرح سؤالٌ هامٌ حقاً حول ما إذا كان هناك إرشادٌ صحيحٌ لنفسيّة الأفراد.

احترم جميع العاملين في مجال التطوّر الشخصيّ وجهودهم. لكن دعكم من فائدة الدراسات التي نجريها، لا يمكننا أن نغض الطرف عن أضرارها. تتزايد أعداد من يتركون أسرهم ويتخلون عن أعمالهم ويقعون في مآزق عقب مشاركتهم في برامج التطوّر الشخصيّ ودوراته التدريبيّة وندواته. تتزايد أعداد من يؤلفون الكتب بعد قراءة بضعة مقالاتٍ. وهناك من يتجاوزون حدود الفكر التجاري الحالي وهم يقولون: «يمكنني كسب ١٠٠ ألف دولار في ليلةٍ واحدةٍ». الأدهى من ذلك هو أن هناك أيضاً من يتأثرون بكتب التطوّر الشخصيّ التي يقرؤونها، فيقولون: «لماذا لا تسير أمورنا كما يجب؟»، وتضطرب صحتهم النفسيّة.

يتزايد عدد الطلاب الذين يهملون المدرسة وهم يقولون «لا داعي لكل هذه الدروس. سأكون ناجحاً من خلال إظهار تميزي الشخصيّ للآخرين».

شاهدت حواراً مع سيدةٍ شابةٍ، أعتقد أنه عرض على شاشة القناة التركيّة الثانيّة. شاركت في دورة تدريبيّة لمختصٍ في التطوّر الشخصيّ عندما كانت في الصف الأخير من الثانويّة. تأثرت بالدورة فتركت المدرسة، وكرست نفسها لهذا المجال. بعد ذلك ألفت كتاباً لكنه لم يُطبع. حاولت تنظيم بعض الدورات لكنها لم تنجح. بعد ذلك، عثرت على المختص التي تأثرت به، وعملت مساعدةً له فترة من الوقت. لم تسر الأمور كما يجب. أما الآن فهي تعمل على استكمال الدراسة الثانويّة من الخارج. لفتت نظري كلمات السيدة الشابة: «لا أؤمن بالتطوّر الشخصيّ والنجاح. بل إنني لا أؤمن بأي شيء. أهدرت ثلاثة أعوامٍ عبثاً. لقد تعبت وتألمت كثيراً».

بطبيعة الحال، ليس من الصواب التعميم من خلال هذا المثال وما يشابهه. لكن علينا أن نكون يقظين حتى لا يؤدي تطوير الأشخاص والجهود الراميّة إلى جعلهم ناجحين إلى نتائج عكسيّة. لأن التدريب بشكلٍ عامٍ، ونفسيّة الأفراد بشكلٍ خاصٍ يتمتعان بأهميّةٍ كبيرةٍ. ويتطلبان دقةً كعملِ الطبيب. لا يمكننا القول: «ما بيدنا حيلةٌ. هذا ما حدث».

«هيا أيها البطل، يمكنك فعل ذلك»

ينبغي علينا الحذر إزاء الكتب المكونة من تجميعة أمثلةٍ، والتي تؤدي إلى صراعات ثقافيّة. *علينا أن نحذر من دفع الأشخاص إلى الهرولة وراء حلمٍ يتجاوز قدراتنا عبر تجاهل المواهب والمؤهلات الفرديّة وطرح شعاراتٍ من قبيل «هيا أيها البطل، بإمكانك فعل ذلك» أو «ايقظ المارد بداخلك» أو «أنت*

ولدت لتكون ناجحاً». وربما يكون أهم ما في الأمر أن التطوّر الشخصيّ هو التخلص من الحلقة المفرغة للتملقحين يقتضي الأمر من أجل تجاوز الناس وكسب المال وتسيير الأعمال والتفوق والتميز مهما كانت الظروف.

وفي هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى تقديم أساتذتي وأصدقائي من خلال دراساتهم، خدماتٍ جليلةٍ عبر تعريف آلاف بل ملايين الأشخاص بديناميكيّة التطوّر الشخصيّ. هناك زملاءٌ يجتهدون باستمرارٍ ويجرون دراساتٍ هامةٍ في الخارج من أجل التفوق في هذا المجال، ويصنعون الفارق حقاً من خلال مؤلفاتهم، ولا شك أنهم سيحافظون على وجودهم.

لا يمكننا إهمال تطورنا الشخصيّ. من المهم تبني عادة التعلم مدى الحياة في يومنا هذا الذي نعيش فيه عصر المعلومات. ومن الضروري أن يتخلص الأفراد من العقم الفكري الذي يصابون به مع مرور الوقت. التطوّر الشخصيّ حلٌ شديد الأهميّة لكل هذه المشاكل.

ينبغي اعتبار التطوّر الشخصيّ وسيلةً وعمليّةً للمضي قدماً في رحلة الإنسانيّة والعمق الإنسانيّ وليس لإرضاء الرغبات الغريزيّة. وإلا فإن رياح التطوّر الشخصيّ المبني على الطمع الفردي الماديّ ستؤدي إلى مفاقمّة الأزمة الإنسانيّة الناشبة في يومنا هذا. *يتعين علينا اعتبار أن التطوّر الشخصيّ يهدف إلى التطوّر الإنسانيّ. وإلا فإن التطوّر الشخصيّ سيكون خطاب دارجاً وعابراً يؤدي إلى زيادة فرديّة واغتراب وابتعاد إنسان عن المجتمع، في عصر العولمة.*

أشاطر من كل قلبي هذه الكلمات للأستاذ أوستون دوكمان الذي أضفى بصمةً متميزةً على عالم التطوّر الشخصيّ: «لا شك في أن حادثة التطوّر الشخصيّ لها الكثير من الإيجابيات. التطوّر الشخصيّ أمرٌ جيدٌ لكن لماذا لا نتطور على

صعيد الأسرة والمجتمع؟ أنا شخصياً أفضل أن أتطور وأطوّر الآخرين في إطار أسرتي وبيئتي وبلدي والعالم، عوضاً عن التطوّر الشخصيّ»[١].

تطورٌ شخصيٌ أم رمزٌ للمكانة؟

ليس التطوّر الشخصيّ موضةً، بل طراز معيشةٍ. إنه في الحقيقة تعبيرٌ آخر عن مفهوم «**التعلم من المهد إلى اللحد**» المتوارث في ثقافتنا. يهرول بعض رجال الأعمال من محاضرةٍ إلى أخرى، ويدفعون مبالغ طائلة أيضاً من أجل المشاركة فيها. مما لا شك فيه أن لكل تدريبٍ فوائده، كثرت أم قلت. لكننا نرى أن هذا النوع من الدورات التدريبيّة في بعض الأحيان يصبح هادفاً ليكون رمزاً للمكانة أكثر منه تطوراً شخصيّاً.

دفع أحد رجال الأعمال من أصدقائي ٦٠٠ دولار من أجل حضور إحدى المحاضرات. استمع إلى المحاضر الأجنبي عبر الترجمة الفوريّة. تحدثنا بعد عدة أيامٍ عن المحاضرة، فقال لي: «أستاذي، لم أفهم شيئاً من الأحاديث. أنا خريج ابتدائيّة، ولذلك ظننت أني لم أفهم. كان الكثير من الأصدقاء المتعلمين يشكون من عدم الفهم سواء في الاستراحة أو بعد انتهاء المحاضرة. لم تكن الأمثلة الواردة أيضاً مناسبةً لنا. الناحية الجيدة في المحاضرة كانت رؤية بعض الأصدقاء وتجاذب أطراف الحديث معهم».

يتجاوز التطوّر الشخصيّ مسألة المشاركة الصوريّة والراميّة لكسب الاعتبار في الدورات. *التطوّر الشخصيّ هو تحويل الحياة إلى ساحةٍ للتعلم. وهذا موقفٌ وطراز معيشةٍ لإنسانٍ عرف كيف يتعلم ومارس ما تعلمه في حياته.*

---

١ - أ. دوكمان، أشياء صغيرة ٢. منشورات سيستم، إسطنبول ٢٠٠٦، ص ٧٩.

هناك الكثير من رجال الأعمال وطلابي وأصدقائي يعيشون التطوّر الشخصيّ كطراز حياةٍ مستمرٍ. يتبادر إلى ذهني فوراً أسماء من هؤلاء المدراء ورجال الأعمال أمثال فتحي شيمشك وحامي قوج ومدحت سامساما، نشهد على انتقالهم من نجاحٍ إلى آخر.

لا شك أن هناك الكثير من العوامل وراء هذه النجاحات. ولكن يمكننا أن نذكر على وجه الخصوص الشخصيّة المتواضعة برفقة تطورٍ شخصيٍّ مثابرٍ.

تقدم هذه الشخصيّات التي تغرد خارج السرب خدماتها للمدراء على رأس المؤسسات.

يقرأون الكتب الصادرة حديثاً، ويشاركون في المحاضرات. يناقشون المسائل التي يقفون عندها مع الأصدقاء. يمتلكون أدمغةً منتجةً. باختصارٍ يعيشون التفكير والتساؤل والقيام باكتشافاتٍ جديدةٍ والتطبيق بكل كيانهم ويحثون الآخرين على ذلك.

ما نريد أن نقوله هو أنه ينبغي علينا أن نفهم ونعيش التطوّر الشخصيّ على أنه طراز حياةٍ. هذا خيارٌ واعٍ نعيش فيه بكل كياننا. هو التخلّي عن الراحة وتفضيل العمل. إنه فضيلة وضع حتى الأوقات الخاصة بكم في خدمة التعلم. التطوّر الشخصيّ هو نوعاً ما تقليل الفارق بين الحدث والتصور.

المواظبون على ندوات التطوّر الشخصيّ

أصادف أحياناً مشاركين يحضرون إلى الندوات للتسليّة. مشاركةٌ بلا وعيٍ ولا هدفٍ. هناك من يهرولون من ندوةٍ إلى أخرى ومن دورةٍ تدريبيّةٍ إلى أخرى دون التفكير جيداً بما يبحثون عنه وبما يريدون الوصول إليه.

وأعلم أن هناك بعض ربات البيوت يهرولن من هنا إلى هناك بشكلٍ ممنهجٍ دون التفكير ملياً بضرورة الموضوع أو المحاضر أو المحاضرة. ونرى أنهن يتسابقن في مجال الدورات التي يحضرنها والشهادات التي يحصلن عليها.

يمكننا القول إن الدورات التدريبيّة مفيدةٌ على أي حال. هذا صحيحٌ ولكن تطوراً شخصيّاً واعياً سيكون مفيداً بشكل أكبر. لأنه في عصر المعلومات الذي نعيشه من المهم التخلّي عن المعلومات الفاقدة لصلاحيتها بقدر الوصول إلى المعلومات الجديدة. *والأهم من ذلك هو أن هدف التطوّر الشخصيّ ليس جعل المرء مستودع معلومات، وإنما اكتساب المعلومات والمهارات الواعيّة والهادفة والقابلة للاستخدام والتطبيق.*

فنحن نلاحظ أن بعض الأشخاص الذين يهرولون من دورةٍ تدريبيّةٍ إلى أخرى يعانون حتى في اكتساب بعض المهارات البسيطة جداً. لذلك فإن الهدف ليس أن يرى الناس مشاركتنا في المحاضرات من جهة، ولا تحقيق مكاسب لأنفسنا فقط من جهةٍ أخرى. *الهدف الأصلي هو صنع فارقٍ يطور حياتنا اليوميّة ويقوي سلوكياتنا ويرفع جودة تفاعلنا مع الآخرين ويقدم إسهاماً لمسيرتنا المهنيّة وبالتالي ينتج قيمةً مضافةً من أجل الآخرين.*

أود التذكير بطرفةٍ لنصر الدين جحا الرومي في سياق الحديث عن إضفاء نشاط التطوّر الشخصيّ قيماً فعلية على الفرد.

كان جحا يحبّ كثيراً تناول الكبد. ذات يومٍ اشترى كبداً وأعطاه لزوجته قائلاً: «اطهيه لنأكله في المساء». لكن زوجته طهت الكبد في النهار وتناولته بشهيّةٍ مع جاراتها. عندما عاد جحا في المساء إلى البيت رأى أنه لا يوجد كبدٌ مطهي، فسأل زوجته، التي لم تصدقه القول. وأجابت: «لقد أكلته القطة».

وزن جحا قطة المنزل الهزيلة فوجد أنها بوزن الكبد الذي اشتراه. وقال لزوجته: «إذا كانت هذه قطة فأين الكبد، وإذا كان هذا الكبد فأين القطة؟».

ينبغي أن يصنع الجهد المبذول للتطور الشخصيّ الفعال والواعي فارقاً لدى الفرد، سواء أكان هذا الفارق ضئيلاً أم كبيراً. كما سبق وأوضحنا، كسب المعلومة عن طريق التطوّر الشخصيّ، ضروريٌ لكنه ليس كافياً. يجب أن نكون أصحاب فكرٍ في الوقت ذاته. وبذلك نتحول من استهلاك المعلومة إلى إنتاجها.

«وعدٌ من شابٍ مدمنٍ»

قد يؤدي الإيمان بالقدرة على النجاح أحياناً إلى نتائج أشبه بالمعجزات. كل ما علينا فعله هو الإيمان فعلاً ومن القلب.

أرسل صديقي رئيس بلديّة المدينة التي أقيم فيها إلي شاباً مع أمه، راجياً تقديم المساعدة له وتوجيهه إلى مؤسسةٍ ما إذا تطلب الأمر. كان الشاب البالغ من العمر ٢٧ عاماً في حالةٍ يرثى لها. كانت أمه دامعة العينين ومتعبةً أكثر منه. كان الشاب الابن الوحيد للأسرة ومدمناً على المخدرات. توفي أبوه وكانوا يعيشون في بيتٍ مستأجرٍ. كانت أمه تعمل في تنظيف المنازل، أما الشاب فكان عاطلاً عن العمل. لم يكن يستمر في الأعمال التي يدخلها أكثر من شهر.

باءت كل جهود الأم بالفشل. تعرف الشاب على المخدرات من صديقٍ له ثم بدأ بتعاطيها. كانت الأسرة تواجه الكثير من المشاكل على جميع الصعد.

تصوروا أن السبب وراء كل هذه المشاكل هو ارتهان الإرادة. مصادقة الشاب لرفيق السوء، واتباعه طريقه وتعوده على المخدرات ومن ثم إدمانه عليها.

لكن عينا الشاب كانتا تنظران برغبةٍ. كان يرغب بالتخلص فوراً من هذه المصيبة التي أوصلت جسده إلى حافة الانهيار. لو كانت المسألة تقتصر على الجسد فقط لهان الأمر لكن صحته النفسيّة وعالمه العقلي كانا في غاية التشويش.

أجريت لقاءاتٍ مع الشاب وأمه على مدى ثلاثة أسابيع. بذلت جهداً كبيراً كي يقوي إرادته ويبدأ كفاحاً كبيراً للتخلص من المخدرات. حدثته عن أن إمكانيّة النجاح في حال الرغبة به، وضربت له أمثلةً عن أشخاصٍ تمكنوا من التغلب على هذه المصيبة. وأكدت له أنه إذا استمر في العيش على وضعه الحالي فإن هناك أخطاراً أكبر تنتظره وأمه.

وفي آخر لقاءٍ قال: «أعدكم». وأضاف: «لقد انتهت (المخدرات) بالنسبة لي». في الواقع، أتخذ موقفاً متحفظاً من الوعود المبذولة في هذه الحالات. لكنني تابعت الشاب. تخلص بجهده الشخصيّ على نحوٍ أذهلنا جميعاً من مصيبة الإدمان على المخدرات. بدأ العمل، وأصبحت حياته مع أمه منتظمة. ربما أكون وجهته قليلاً، وصورت له حالته كما هي. ساعدته على تطوير البصيرة، لكن النجاح الحقيقي يعود له، لأنه آمن بقدرته.

ينبغي أحياناً عدم التراجع والاستسلام مهما كانت الظروف. إذا كان هناك من تخلصوا من المحنة التي تعيشونها فيمكنكم أنتم أيضاً أن تنجوا منها. وإذا كان هناك من بلغوا مستوى النجاح الذي ترومونه فبإمكانكم أنتم أيضاً بلوغه. من الضروري أن تؤمنوا بقدرتكم على فعل ذلك. إذا آمنتم بأنفسكم فإن الآخرين أيضاً سيؤمنون بها.

الحاجة للتطور الشخصيّ

ما هي مكانة وأهميّة المعلومة والتعلم في حياتنا؟ نشبع معدتنا ثلاث مراتٍ في اليوم بشكل منتظم. لكن ما هو مستوى جهدنا للتعلم، الذي هو حاجة عقلنا؟ لنذهب بعيداً أكثر فنقول، ماذا نفعل من أجل إشباع روحنا؟

التطوّر الشخصيّ
من الإنسان الأوّل إلى مجتمع المعلومات

الإنسان كائنٌ اجتماعي. منذ أن ظهر على وجه الأرض وهو في تطورٍ مستمرٍ. تعلمنا في البداية الاحتماء من الحوادث الطبيعيّة، وهذا كان أمراً لا مفر منه من أجل البقاء على قيد الحياة. نجح الإنسان الأوّل، الذي تمكن من المحافظة على حياته في زراعة الأرض، محققاً اكتشافاً شديد الأهميّة. وبعد ذلك انتقل إلى حياة الحضر. وهكذا سادت قيمٌ اجتماعيّةٌ جديدةٌ للمجتمع الزراعي. دخلت الآلات بين الإنسان والعمل للمرة الأولى مع انطلاق الثورة الصناعيّة في خمسينات القرن التاسع عشر، وهكذا ولد المجتمع الصناعي. ومع دخول الحواسيب، التي كانت في ثلاثينات القرن العشرين بحجم الثلاجات الحاليّة، حياة الإنسان أصبحنا في مواجهة تداعيات الزيادة السريعة للمعلومات. أطلقنا على هذا العهد الجديد اسم مجتمع المعلومات.

كانت القوة الرئيسيّة ورأسمال **الإنسان الأوّل** نفسه **وقوة عضلاته.** انتقل إلى حياة الحضر في **المجتمع الزراعي**، وأصبحت الأرض والمحاصيل الرأسمال الأساسي. كانت الخلافات في هذه الفترة حروباً للاستيلاء على الأراضي. دخل التمدن وطبقة العاملين والأبنيّة العاليّة والآلات حياة الإنسان في **المجتمع الصناعي**، الذي أصبحت فيه **الآلة** القوة الرئيسيّة والرأسمال الأساسي. وبدأت الحروب الصناعيّة. أصبحت المعلومة القوة الرئيسيّة والرأسمال الأساسي في **مجتمع المعلومات**، الذي سرّع حياة الإنسان وأثار حروب المعلومات.

كان التعلم لدى الإنسان الأوّل ناجماً عن الممارسات الحياتيّة الرئيسيّة تجاه الاحتماء من الحوادث الطبيعيّة. بدأ التعلم المنتظم والمدارس التي نقلت المعلومات والمهارات المتعلقة بالآلات المستخدمة في المجتمع الزراعي. زاد المجتمع الصناعي بشدةٍ من الحاجة إلى المدرسة، بسبب تزايد المعلومات وخصوصاً المهارات المهنيّة الواجب نقلها. أصبح التعليم والتعلم حقيقةً لا غنى عنها في كل لحظة من الحياة في مجتمع المعلومات الذي تصنع فيه الآلات آلات، وتسود فيه التكنولوجيا المتقدمة.

شكلت العمليّة التعليميّة القسم المنتظم والمنهجي للتعليم منذ خمسينات القرن التاسع عشر حتى اليوم، وتطورت كعمليّة ومحتوى.

وبحسب الدراسات فإن تراكم المعلومات التي تمتلكها الإنسانيّة يتزايد متضاعفاً كل عامين أو ثلاثة. ومن الزيادة السريعة للمعلومات إلى التغير والتطوّر السريعين للمهن والتواصل السريع والتحوّل الاجتماعيّ السريع، كل هذه الحقائق جعلت من الحاجة للتعليم والتعلم أمراً هاماً ولا مندوحة عنه، كما لم يكن في أي وقتٍ من الأوقات.

تطورت مفاهيم من قبيل التعليم المستمر، وتعليم الكبار، والتعليم مدى الحياة منذ ثلاثينات القرن العشرين حتى اليوم.

هل لديك هاجس التعلم؟

التطوّر الشخصيّ هو نتيجةٌ للسعي من أجل تلبية هذه الحاجة المتزايدة بسرعة للتعليم. وعلى الرغم من أنه أحد القضايا الرئيسيّة لعلوم التربيّة في الأساس، إلا أنه اكتسب أهميّةً مع رياح الانتقال إلى عصر المعلومات.

يشمل التطوّر الشخصيّ كل الأعمال والجهود الراميّة إلى الاستغلال الأكثر فعاليّة وإنتاجيّة وتركيزاً على النتيجة للقدرات العقليّة والعاطفيّة والفيزيولوجيّة لدى الفرد. يمكننا القول إنه نوعاً ما جهود التطوّر الواعي التي تميز الفرد عن الآخرين وتكشف مزاياه الشخصيّة. وباستطاعتنا القول أيضاً إن التطوّر الشخصيّ هو الرغبة في ركوب موجة الابتكارات التي من شأنها تعزيز الثقة لديكم وليس النظر بعين الريبة إلى الناس والحياة بشكلٍ عام.

سأقدم تعريفاً أبسط. يتضمن التطوّر الشخصيّ كافة الأنشطة والجهود الراميّة إلى تحويل المقدرات المتوفرة أصلاً لدى الفرد إلى التطبيق العملي على نطاقٍ أوسع.

التطوّر الشخصيّ هامٌ مهما كان عملنا ومهنتنا ووضعنا الاجتماعيّ ودرجة تعليمنا. إنه ضروريٌ سواء أكان من أجل عدم التخلف عن الركب في مسيرتنا المهنيّة أم كي نكون الإنسان المعرفي الذي يتطلبه عصر المعلومات.

السؤال المطروح هو التالي: هل أنت إنسانٌ معرفي؟ ما هي مكانة وأهميّة المعلومة والتعلم في حياتنا؟ وما هو الوقت الذي خصصناه من أجل التعلم؟

نشبع معدتنا ثلاث مرات في اليوم بشكل منتظم. هذا ما يحافظ على وجودنا المادّي. لكن هل نبذل الجهد من أجل التعلم، الذي هو حاجة عقلنا ومنطقنا ودماغنا؟ لنذهب بعيداً أكثر فنقول، ماذا نفعل من أجل إشباع روحنا؟

بالنتيجة، عندما نسأل «هل لديك هاجس التعلم» في هذه الحياة؟ معظمنا يجيب بـ«نعم». لكن عملياً لا نرى كثيراً هذه الـ«نعم».

لذلك فإن التطوّر الشخصيّ، أي أنشطة التعلم إزاء متطلبات عقلنا وروحنا، تتمتع بأهميّةٍ أكبر في عصرنا هذا. فحياة الإنسان تتنوع وتتلون وتتعمق بشكلٍ مطردٍ. هناك حاجةٌ إلى جهد تطورٍ شخصيّ ممنهجٍ من أجل الانسجام مع ذلك وعدم الاغتراب والضياع بين الحشود.

الحياة ساحةٌ من أجل صنع الفارق

يمكننا أن نرى بسهولةٍ أكبر الحاجة إلى التطوّر الشخصيّ وأهميته في حياتنا من خلال بضعة أمثلةٍ بسيطةٍ.

لنفترض أنكِ ربة منزلٍ، وتعطلت غسالة الملابس التي تستخدمينها واعتدت عليها منذ سنين. لم يكن بالإمكان تصليحها. وهي قديمةٌ على أي حالٍ فاستبدلتيها بأخرى جديدة، ذات جهاز تحكم عن بعد وقابلةٍ للبرمجة. مرفقٌ بها دليل مستخدمٍ ضخمٍ مكتوبٍ بأحرفٍ صغيرةٍ. مظهرها في غاية الجمال. جاء المختصون وركبوها. تريدين استخدامها الآن لكنك تجدين صعوبةً. ليست الغسالة التي اعتدت عليها. وكأنه لم يكن يكفيكِ تعقيدات جهاز التحكم والبرمجة، لتجدي أمامكِ تعليماتٍ بالإنكليزيّة لأن الماركة أجنبيّة. الغسالة جميلةٌ جداً وجذابةٌ، لكنك لا تستطيعين استخدامها، وأنتِ حزينةٌ لذلك.

ماذا تفعلين؟ دعونا ممن يقلن أنا لا أشتري غسالة من هذا النوع. بشكلٍ عامٍ يمكن الحصول على ثلاث إجابات عن السؤال:

١- لا أشتري هذه الغسالة أو استبدلها.

٢- أطلب المساعدة من الأسرة أو الجارة عندما أريد استخدام الغسالة.

٣- أتعلم استخدام هذه الغسالة.

لا أعرف ما هي إجابتكِ، لكن سأذكر نسبة الإجابات. واحدة من كل ثلاث ربات منزل شاركن في استطلاعٍ للرأي، أجابت «لا أشتري هذه الغسالة أو استبدلها»، والثانيّة أجابت «أطلب المساعدة»، والثالثة قالت «أتعلم استخدامها».

تفضل الغالبيّة العظمى من الناس فعلاً الالتفاف حول المشكلة وعدم الدخول في صميمها أو عدم التواجد عندها أو أشياء أخرى، عوض التغلب عليها من خلال التعلم. لم تترسخ لدينا عادة استخدام قدراتنا العقليّة المتوفرة لدينا في عمليّة حل المشاكل.

نجد ذلك صعباً ونلجأ إلى طرقٍ ثانويّةٍ كي لا نتعب أنفسنا. لكننا على العكس نتعب أكثر.

التطوّر الشخصيّ هو الجهد المبذول من أجل التغلب على المشاكل التي نواجهها في مجالات الحياة، من خلال المعلومة والمهارة. لا يقتصر التطوّر الشخصيّ على ذلك، فهو حتى عندما لا يكون هناك مشكلة، يمكن أن يدخل في إطار فعاليّة تعلمٍ نشطةٍ، وعملٍ مكثفٍ كي يتطور الفرد بشكلٍ أكبر ويصنع الفارق ويطور مسيرته المهنيّة وباختصار لكي يكون أفضل.

طراز تفكيرنا يؤثر على التطوّر الشخصيّ

يختلف الناس من ناحية طرازات تفكيرهم. ويؤثر طراز التفكير بشكل إيجابي أو سلبي على التطوّر الشخصيّ. على سبيل المثال، من لديهم نزعةٌ إلى التفكير المرتاب يركزون طاقاتهم على الشك. يتخذون موقفاً مرتاباً من أنفسهم ومحيطهم وعلاقاتهم. تسيطر الخيالات والأسئلة والسيناريوهات باستمرارٍ على هذا الشكل من التفكير. وفي حال كون طراز التفكير هذا قوياً جداً فإنه لا يتيح الوقت للتطور الشخصيّ والإبداع. لأن الشخص يعيش وسط الشكوك والخيالات بخصوص الأحداث والأشخاص الموجودين.

طرازات التفكير المأمولة من ناحية التطوّر الشخصيّ هي تلك الطرازات المنتجة والمثاليّة والإبداعيّة والتنفيذيّة.

المفكرون المنتجون هم بشكلٍ عامٍ حركيون. يركزون على النتيجة الناجحة. يحللون الوسائل والطرق والمناهج اللازمة من أجل الوصول إلى النتيجة.

المفكرون المثاليون يركزون بشكلٍ عامٍ على الوقائع والأحداث التي تتجاوز المعدل الوسطي للمجتمع. أهدافهم فوق المعدل. يطورون مبادئ خاصة بهم. لا تفوتهم التفاصيل.

المفكرون المبدعون يصبون اهتمامهم على الفوارق وعلى ما هو لازمٌ أكثر من ما هو متوفر. وضع مخططٍ للمستقبل أمرٌ مهمٌ بالنسبة لهم.

المفكرون التنفيذيون أقوياء على صعيد التنفيذ والإجراء والوصول للنتائج والتحرك. هدفهم الرئيسي هو التمكن من نقل المعلومات والمفاهيم المتوفرة إلى صميم الحياة.

من المهم مراجعة طراز تفكيركم من أجل المضي قدماً في عمليّة التطوّر الشخصيّ. يضع بعض الناس لأنفسهم أهدافاً يصعب على الآخرين تحقيقها. أما البعض الآخر فلا يحددون لأنفسهم هدفاً. بل إنهم لا يقبلون حتى الأهداف المتواضعة التي يحددها الآخرون لهم. ولا يبذلون جهداً من أجل الوصول إلى هذه الأهداف.

أنت كنزٌ متحركٌ

هناك عددٌ لا يُستهان به ممن يصنفون بين أهم الشركات والأغنياء في العالم اليوم بسبب أفكارهم المنتجة والمبدعة على وجه الخصوص.

يعرف معظمكم قصة نجاح بيل غيتس. يحتل موقعاً بين أغنى أغنياء العالم اليوم بفضل برنامجٍ سهّل استخدام الحاسوب وجعله في متناول حتى الإنسان العادي. لكني أود لفت الانتباه إلى ناحية أخرى. إنتاج أفكارٍ إبداعيّةٍ وحده لا يكفي. يجب تطبيقها بعزم. أي أن الإتيان بأفكارٍ مبتكرةٍ ضروريٌ لكنه غير كافٍ. النجاح الحقيقي هو السعي وراء الأفكار القابلة للتطبيق. عندما أضرب أمثلةً معروفةً على الصعيد العالمي في محاضراتي قد يقول الحاضرون: «هذه الأمور تحصل مرةً واحدةً. ساعدهم الحظ. لا يمكننا أن نكبر بمقياس العالم». هذا صحيح، لا يمكن أن تكون أفكار الجميع ماركةً عالميّةً. لكن هذا لا يمنع من السعي وراء النجاح في حدود القدرات المتوفرة.

لا تنسوا أن هناك عدداً لا يُستهان به ممن يصنعون الفارق من خلال الأفكار المميزة والمواقف الراسخة والأهم من ذلك العمل الجاد في الكثير من المجالات كالفن والسياسة والرياضة، وليس في عالم الأعمال فحسب.

تعرفت على رجل أعمالٍ من هذا القبيل، وهو صلاح الدين قره قاش. شريكٌ في مقهى «Masal Cafe» وسط نيويورك. السيد صلاح الدين في الرابعة والثلاثين من العمر، وأصله من مدينة سيواس. هو الابن السابع لأسرةٍ أناضوليّةٍ نموذجيّةٍ لديها سبعة أبناءٍ. توفيت والدته وهو في سن الخامسة، تبعها والده عندما بلغ صلاح الدين العاشرة من عمره. كان من الصعب أن يدرس ويبلغ مكانةً مرموقةً في الأحوال العاديّة. لكنه أبدى عزماً وسعى دائماً وراء الأشياء الجديدة. أنهى دراسته في قسم التاريخ بجامعة إسطنبول، وعمل خلال الدراسة في المطاعم. سافر بطريقةٍ ما إلى نيويورك عام ١٩٩٩. واجه صعوباتٍ كبيرةٍ في البداية لكن شغله الشاغل كان دائماً فتح محلٍ تجاريٍّ. لنستمع إلى كلماته: «لم أكن أريد العمل بالراتب الشهري، وإنما ممارسة التجارة. لأنني كنت ألاحظ خلال تجولي في الشارع أن هناك الكثير من الأعمال التي يمكن القيام بها. بدأت العمل في محلٍ صغيرٍ مساحته بين ٥ و٦ أمتار مربعةٍ فيه ثلاجة. كنت أبيع المثلجات والفطائر والشاي. بعد ذلك وسعت المحل. مقهى «Masal Cafe» نظيفٌ للغاية، ويفضله الأجانب كما الأتراك».

لدى السيد صلاح الدين فكرة إنشاء سلسلة محلاتٍ دوليّةٍ. تحدث معي عن التفاصيل. سيعمل على تطبيق هذه الفكرة في المستقبل القريب. يناقش في الوقت الحالي هذه الفكرة. يعرف الجميع في نيويورك. أقام علاقاتٍ طيبةٍ جداً مع الجميع.

لاحظوا أن التفكير بطريقةٍ مختلفةٍ والجد في العمل والتحلي بالأخلاق الحميدة والتركيز على العمل وليس الآخرين وبذل العزم والإكثار من الاستشارة، كل ذلك يجلب النجاح في نهاية المطاف.

أكبر خطرٍ هو الاستخفاف بالنفس. لا أقول لك أن تعظم نفسك وتعتبرها عملة نادرة. ينبغي عليك أن تكون متواضعاً من ناحية الشخصيّة والسلوك، لكن عليك أن تهدف للتنفيذ المحكم في مجال العمل والاجتهاد. لا تستخف بنفسك، لأنك في الحقيقة كنزٌ متحركٌ. أنت أكثر الكائنات الحيّة تطوراً. لديك مقدراتٌ خاصةٌ متعددة النواحي. مقدراتٌ عقليّةٌ وعاطفيّةٌ وفيزيولوجيّةٌ.

تمتلك قدراتٍ فيزيولوجيّةٍ لا يمكن حصرها. عيناك وأذناك وأنفك ويداك وأعضاء جسمك الأخرى، فكر بقيمة كل منها. ماذا كان سيحدث لو فقدت أحدها، وماذا كنت ستفعل من أجل تلافي هذا الفقدان؟ ماذا كنت ستعطي مقابل استرجاعه. فكر من فضلك.

يكمن ذكائك المجرد في قدراتك العقليّة. تمتلك قدراتٍ مصممةٍ خصيصاً لك من قبيل التكلم والمحاكمة والحساب. يمكنك أن تتعلم بسهولةٍ الكتابة والجمع والطرح وعلاقة السبب- النتيجة. فكر بحياة لا يمكنك فيها تعلم كل ذلك. لا بد أنه كان من الصعب تحملها.

ولديك أيضاً قدراتٍ روحيّةٍ. أي أنك تمتلك عواطف وفؤاداً وقلباً. تتمتع بعالمٍ روحيٍّ وقلبيٍ من شأنه إدراك عالم الوجود وإقامة علاقةٍ مع الأحياء والجمادات. فكر لو أنك لم تكن تعرف الحبّ ماذا كان سيحدث؟ على سبيل المثال، لو أن عصفوراً يرتعش في البرد لم يعنِ بالنسبة لك أي شيء. أو لو أنك لم تستطع إغماض عينيك والغوص في ما وراء الماوراء، ماذا كان سيحدث؟ فكر لو أن هناك خللاً بسيطاً في هذه القدرات لا سمح الله. فكر لو أنك تدرك الموجودات والأحداث بشكلٍ غير عادي.

بما أنك لا تعاني من محنةٍ في كل هذه المجالات، فأنت إذن كنزٌ. لكن كيف ستستغل هذا الكنز؟ على الأصح، هل تدرك ماهيّة الكنز الذي تحمله؟

من الخمول إلى هاجس التفوق

كانت نورتان طالبةً الصف الأخير في الثانويّة تتمتع بطراز تفكيرٍ عميقٍ وتحليلي ومتفاءل. وكانت متصالحةً مع نفسها والآخرين. كانت إنسانةً شديدة التفاؤل. لكنها كانت كالأحرف الساكنة في الأبجديّة، أي أنها ليست حاسمةً. ولا تتمتع كذلك بالفعاليّة والتوجه نحو النتيجة وتحديد الأهداف. كانت تعيش حياةً طيبةً لكن بدون مسؤوليّة ولا هدف. كانت تترك الحبل على الغارب في كل أعمالها وكأنها ليست إنسانةً من هذا العصر. دعكم من وضع هدفٍ للدراسة الجامعيّة والتركيز عليه، كانت تتبنى مقارباتها من قبيل «سأفعل عندما يحين الوقت»، «أفكر بذلك»، «معظم الأمور ليست في يدنا». لذلك كانت هدف سهام الانتقاد في الأسرة. كانت أمها تنظر إلى أهداف صديقات نورتان وعزمهن في هذا الاتجاه، وتحزن كثيراً إزاء تراخي ولامبالاة ابنتها.

يكون بعض الناس أكثر تراخياً من الآخرين بطبيعتهم الشخصيّة. يعيشون الحياة كما هي وبقدر ما هي. حتى لو كانوا قادرين على إضفاء لونٍ أو الإتيان بجديدٍ أو ابتكار شيءٍ ما فرغبتهم في القيام بذلك ضعيفة.

أما البعض الآخر فكأنهم يعيشون من أجل الانتقال من نجاحٍ إلى آخر. يسعون باستمرارٍ وراء الابتكار والتوصل إلى نتيجةٍ. يحبّون أن يثبتوا

أنفسهم. يقويهم فعل شيءٍ ما حتى لو كانت قدراتهم الحقيقيّة محدودةً أحياناً. هذه الرغبة هي ما يجعلهم مميزين.

قد يجلب الوقوف على طرفي نقيضٍ أيضاً متاعباً مختلفةً. أي أن الموقف المتراخي الذي يؤجل عمله ويبحث عن الأسباب في مكانٍ آخر قد يترك المرء متخلفاً عن ركب رحلة الحياة، ويجعله حزيناً. وعلى غرار ذلك، قد يتعب بسرعةٍ ويصاب بالتعاسة من يعتبرون الحياة عمليّةٌ لإثبات أنفسهم ووضعها في المقدمة.

تخلصنا منهجيّة التطوّر الشخصيّ من خمولٍ يؤخرنا عن الركب أو من هاجس التفوق. الغاية هي قبول مقدراتنا المتوفرة واستخدامها على أكمل وجه وتطويرها باستمرارٍ، والقيام بأفضل ما يمكننا فعله.

مرض الجهل

«الجهل مرضٌ تجب معالجته»

- يوسف خاص حاجب

التعلم لكي «نكون»

إذا اعتبرنا التطوّر الشخصيّ أبجديّةً فإن أول حرفٍ فيه هو التعلم. لماذا نتعلم؟ لكي لا نكون جاهلين. لكي لا نكون عاديين. لكي نتمكن من التفكير العميق. لكي نبتكر مفاهيم جديدة. بمعنى أننا يجب أن نتعلم لكي «نكون». كما أن النار تلزم من أجل الطهي فإن هناك الكثير من الأشياء اللازمة من أجل التطوّر الشخصيّ لكن الأوّلويّة للتعلم.

ولذلك فإن محاربة الجهل هي سبب وجود جميع الأديان تقريباً وهي من القضايا ذات الأوّلويّة بالنسبة لها.

أكد ديننا أيضاً بشكلٍ قويٍّ على أهميّة التعلم، وسلوك سبيل العلم، وتطوير النفس. طلب العلم فريضةٌ على كل رجلٍ وأمراةٍ، وكان أول أمر في الدين هو اقرأ. فرّق ديننا بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وحثّ على تحصيل العلم أينما كان.

لدينا كتابٌ شديد الأهميّة من ناحية تاريخ اللغة والثقافة. كُتب في عام ١٠٦٩، أي قبل نحو ألف سنة. إنه كتاب «Kutadgu Bilig» (علم

السعادة) **لصاحبه يوسف خاص حاجب**[1]. يروي الكتاب، من خلال اسمه وهدفه، سبل الوصول إلى السعادة. خلال بحثٍ يتعلق بكتابي «القيادة الخادمة» عملت على دراسة هذا الكتاب فيما يتعلق بمسألة القيادة[2]. «إذا كنت تريد أن تكون سعيداً فعالج مرض الجهل». تثير هذه العبارة التي كتبت قبل ألف عام، الحماس في النفس. تصوروا أن الجهل اعتُبر آنذاك بمثابة مرضٍ. بما أن الجهل مرضٌ فالتطوّر الشخصيّ لا مفر منه.

لا بد من التعليم ولكن..

التعلم هو أمرٌ أهم بكثيرٍ مما هو معتقد. ينبغي أن لا تكون إقامة الدورات التعليميّة وعقد الندوات وإلقاء المحاضرات، أمراً بسيطاً وعادياً. لذلك يتوجب عليكم الانتباه بخصوص الدورات التعليميّة التي تلتحقون بها. ما هو موضوع الدورة؟ من هو المحاضر؟ ماذا هناك في سيرته الذاتيّة؟ هل هو ممن يقولون عن أنفسهم إنهم مختصين؟ ما هي القيمة المضافة التي ابتكرها؟ هل مارس الحياة وعلى الأخص الحياة المهنيّة عملياً؟ ما هو محتوى برنامج الدورة؟ وما هو هدفها؟ هل يؤمن المعلم بما يعلمه؟ وهل طبقه؟

يمكن التوسع في هذه الأسئلة. لكن بعض مساعي التطوّر الشخصيّ، سواء على صعيد المنشورات أو التدريب، محل نقاشٍ حول ما إذا كانت وفرت الوصول إلى النتيجة المأمولة أم لا. ينبغي *أن يكون التعليم هادفاً*

١- يوسف خاص حاجب، Kutadgu Bilig، (ترجمة رشيد ر. أرات) منشورات TTK، أنقرة ١٩٩١.

٢- إ. فندقجي. **رحلة قلب، القيادة الخادمة** (الطبعة الثانيّة). منشورات ألفا..إسطنبول ٢٠٠٩.

وواعياً، وأن يكون المحتوى غنياً. يتعين أن يتخلص التعليم من الخطاب النظري والكلام التجميعي. يجب أن يكون المعلم قدوةً حسنةً. ينبغي أن يكون التعليم عملاً ينتقل على مدى سنوات ويتخلص من مرض الابتذال من خلال التحديث، ويتجاوز المعلومات المخزنة.

«ضاع خاتم جحا»

صاح نصرالدين جحا الرومي قائلاً: «أضعت خاتمي». استنفر جميع الأهالي في القرية، وبحثوا عن الخاتم في كل أنحائها. لكنهم لم يجدوه. تعبوا من البحث عن الخاتم، وفي نهاية المطاف. سأل أحد الأهالي جحا قائلاً: «هل أنت متأكدٌ من أنك أضعت الخاتم في الخارج؟». فأجاب جحا إجابته الشهيرة التي تتعلق بموضوعنا: «أضعت الخاتم في المنزل لكن لأن داخله مظلمٌ فالأسهل البحث عن الخاتم في الخارج».

من أهم العقبات القائمة أمام التطوّر الشخصيّ عادة عدم البدء بأنفسنا. أطرح السؤال على العاملين والطلاب والمدراء وأصحاب الشركات: لماذا لا تبذلون جهداً من أجل التطوّر الشخصيّ؟ يأتيني الجواب التالي وكأنهم جوقةٌ: «في الحقيقة نرغب بشدةٍ ولكن..». كما تتوقعون، هناك الكثير من الذرائع بعد «ولكن». وفوق ذلك فإن معظم الذرائع لا تتعلق بتطوير الذات.

في معظم الأحيان لا نبحث عن سبب العيب والأزمة والمشكلة في مكانها الحقيقي، وندور حول المسألة. عندما يتعلق الأمر بالتطوّر الشخصيّ والاستثمار في الذات والنجاح فإنه يصبح حساساً أكثر. لأن الرغبة بالتطوّر الشخصيّ تتعلق بذات الشخص وجهده وفعاليته.

لكن ماذا نفعل نحن؟ يرى الطالب الفاشل العيب في عبء الدروس وفي المدرس والنظام التعليمي والمنزل. وجراء البحث عن أسباب الفشل في الخارج، لا يأتي الدور على نفسه التي هي السبب الحقيقي وراء الفشل. بالنسبة للعامل أيضاً أسباب الفشل جاهزةً: مكان العمل، رب العمل، الحياة المهنيّة، الأزمة الاقتصاديّة، الحكومة، إلخ.. الأسباب معلومةٌ أيضاً بالنسبة لمن لم يكرسوا أنفسهم لتحقيق هدفٍ ما، وتتقاذفهم الرياح كأنهم أوراق الخريف: «ليس لنا مكانٌ في هذه الدنيا. مسحوقون، فقراء. على الحكومة أن تستقيل..». انعكس هذا الأمر حتى على أغانينا من خلال عباراتٍ من قبيل «فليسقط هذا العالم».

لكن هناك ما يفعله الإنسان مهما كانت الظروف. لا داعي للانشغال بالمتغيرات التي ليست في أيدينا، وتقديمها كمسوغاتٍ، والاحتماء وراءها. لا فائدة ترجى من ذلك. لا يمكننا بالتأكيد تجاهل تأثير العوامل المحيطة في حياة الإنسان. هناك عبارةٌ أحبها كثيراً في خطاب مصطفى كمال أتاتورك إلى الشباب، وكأنها تدفع الإنسان إلى التبصر: «..واجبك حتى في هذه الأحوال والظروف..» أي عليك الاهتمام بواجبك مهما كانت الظروف.

قضايا نفشل في معالجتها

المبدأ التالي هو واحدٌ من المبادئ الرئيسيّة في علم النفس: نتبنى ثلاثة نماذجٍ سلوكيّةٍ أساسيّةٍ بخصوص القضايا التي نفشل في معالجتها:

- ندفعها إلى ما تحت الوعي
- نبحث عن العلة في الآخرين
- نحاسب أنفسنا

السلوك الأوّل هو أننا ندفع المسألة التي لا تروقنا إلى ما تحت الوعي. هذا أشبه ما يكون بتكنيس البيت وإخفاء ما يتجمع تحت السجادة. نغطي المشكلة ونبعدها عن عقلنا انطلاقاً من فكرة أننا غير قادرين على معالجتها. نظن أننا نفكر بها. لكن تتراكم المشاكل، ويصبح البيت غير صالحٍ للسكن يوما ما. أي أن شرارةً صغيرةً تكشف فجأة عن كل ما يكمن في ما تحت الوعي. في هذه الحالة، يصبح عقلنا مثل الساحة التي تهطل عليها أمطارٌ أكثر بكثير من المعتاد. أي أن كوارثَ عقليّةً يمكن أن تحدث.

السلوك الرئيسي الثاني تجاه المسائل التي نعتقد أننا لا نستطيع معالجتها، **هو أننا نبحث عن السبب بعيداً عنا**، كما هو الحال في طرفة نصر الدين جحا. أحياناً نلجأ للمراوغة، وأحياناً أخرى نتذرع بالفقر. في بعض الأحيان ننحي باللائمة على السياسة فوراً. القضيّة واضحةٌ والمسألة جليّةٌ: الآخر هو المذنب دائماً.

السلوك الثالث الذي نفضل اتباعه عندما نوجه صعوبة في معالجة المشاكل على الصعيد العقلي، هو محاسبة أنفسنا. أي البحث عن العيب في أنفسنا أولاً. نتحرك لحل المشكلة انطلاقاً من أنفسنا. نتخذ موقفاً ديناميكياً من أجل تغيير الوضع. نشكل جزءاً من الحل الفعال مع وضع الظروف بعين الاعتبار.

كما تلاحظون، في نموذج السلوك الأوّل ندفع بالقضايا إلى ما تحت الوعي، وبعد ذلك تظهر في مواجهتنا بصورة مشاكل في الطرق والماء والكهرباء، متراكمة ومتزايدة. وفي النموذج الثاني ربما لا نواجه مشكلةً في ما تحت الوعي وفق فكرة «لم نرتكب ذنباً على أي حال». لكننا ننعزل عن

الحياة الواقعيّة. نتعب من إلقاء الكرة خارج خطوط ملعب الحياة. يمكن أن نصبح لاعبين عديمي الفائدة بالنسبة لأنفسنا وللجمهور، وهكذا نغادر الملعب. الأهم من ذلك أننا نصبح جزءاً من المشكلة.

في حين أن الحل في السلوك الثالث. هذا هو الطريق الأمثل من أجل مجابهة المشاكل من خلال تطوير أنفسنا في القضايا التي تصعب الأمور علينا ونتخبط في مواجهتها. بطبيعة الحال يمكن الحصول على المساعدات من الآخرين إذا احتاج الأمر. لكن المسألة المهمة هي أن يبدأ الشخص انطلاقاً من نفسه بحل مشكلته التي خلقها بنفسه في معظم الأحيان سواء عن قصدٍ أو عن غير قصد. أي التركيز على الجانب الذي توجد فيه المشكلة.

والآن لنراجع موقفنا من فضلكم، مهما كان دورنا سواء أكان طالباً أو عاملاً أو أماً أو أباً أو مديراً أو ربَّ عملٍ. من خلال موقفنا العام في الحياة، نحن أقرب إلى أي نموذج سلوكٍ في رحلة التطوّر الشخصيّ؟

الشباب، المسنون، فاترو الهمة

ليست المشكلة في جعل طموحاتنا كبيرةً من الحياة وتطوير حافز النجاح لدينا وجهدنا من أجل امتلاك الكثير من الأشياء. المشكلة هي اختزال كل شيءٍ في أنفسنا وجسدنا وذاتنا وطلبنا كل شيء من أجل أنفسنا فقط. المشكلة الحقيقيّة هي عدم وضع مصلحة الآخرين أبداً أمام مصلحتنا.

مرض الابتذال

اكتسب مصطلح التطوّر الشخصيّ أهميّةً أكبر مع مجتمع المعلومات. فالزيادة السريعة في المعلومات سرّعت أيضاً من الحاجة للوصول إلى هذه المعلومات والانسجام معها. وعندما وجدت المناهج المدرسيّة الكلاسيكيّة صعوبةً في تلبية هذه الحاجة، عادت إلى الواجهة مجدداً مسألة تعليم الكبار والتعليم مدى الحياة. انتشر مفهوم التعلم مدى الحياة المتمحور حول المعتقد لدى المجمعات الشرقيّة كمنهجٍ علميٍّ مع تطور التكنولوجيا في المجتمعات الغربيّة.

اعتبر **الغزالي**، الفيلسوف والمربي الشرقي، التعلم عملاً واعياً يعبر عن استمراريّة الحياة. أما **الفارابي** فاقترح أن يغوص الشخص في أعماقه الداخليّة وأن يمضي قدماً في هذا الطريق. بدوره، أكد **جان جاك روسو** على وجه

الخصوص أن كل إنسانٍ مسؤولٌ عن تطوير معلوماته ومهاراته. تبرز في التطوّر الشخصيّ نظريّة **كونفوشيوس** على أنها مقاربةٌ تقليديّةٌ في فلسفة الشرق الأقصى. تنص هذه النظريّة على أن يكون الفرد في عمليّةٍ مستمرةٍ لاكتساب المعلومات من أجل التحرر من أطماعه واكتساب الثقة بنفسه.

لا مفر من التطوّر الشخصيّ من أجل مجتمعاتنا المعاصرة. بصفتك طالباً أو عاملاً أو موظفاً أو مدرساً أو ما شابه، هل يمكنك أن تبقى خارج إطار فعاليّة تطوير نفسك؟ بل إن السير السريع للحياة يدفعك بشكلٍ قسريٍّ إلى تطورٍ شخصيٍّ، بل يجبرك عليه.

يعيش بعض الناس مع معوقات التطوّر الشخصيّ في دوامة حياةٍ عاديّةٍ تجعلهم صمٌ بكمٌ عميٌ. المسألة برمتها هي القدرة على تجاوز هذه المعوقات. *الحياة المبتذلة هي مرضٌ خطيرٌ جداً يصيب الحياة الاجتماعيّة. والابتذال بمثابة مرض يقضي على حيويّة الفرد ويعيق إنتاجيته ويقلل حماسه في الحياة.*

من المهم جداً التغلب على العطالة الشخصيّة، وهي من أخطر مشاكل الإنسان المعاصر. والأهم من ذلك هو توصلنا إلى الحركيّة اللازمة دون أن نضيع في ثنايا الحياة ودون أن نكون مجرد موظفين فيها. هكذا ينبغي علينا أن نصنع الفارق. *التطوّر الشخصيّ هو قطع شوطٍ بوقتٍ أقل بالمقارنة مع الناس الذين نوجد معهم في نفس المسار، وهو التعمق واتخاذ موقفٍ أميز وأقوى وأوسع أفقاً. التطوّر الشخصيّ هو نوعاً ما الجهد المبذول لإضفاء ثرائنا الداخليّ على ساحة الحياة.*

لننظر بتمعنٍ إلى محيطنا. نرى أن الأشخاص الذين يبدون الاهتمام حقاً بالتطوّر الشخصيّ يمكنهم أن يصنعوا الفارق في الحياة. لا يكتفي الطالب

الذي لديه هاجس تطوير نفسه، بمتابعة المنهاج المطلوب فقط. يصنع الفارق من خلال الارتقاء لمستوى أعلى منه. والعامل المؤمن بالتطوّر الشخصيّ يجعلك تشعر بتميزه في بيئة العمل. يتقدم إلى الصفوف الأماميّة ويحصل على ترفيعٍ خلال فترةٍ قصيرةٍ.

خصائصنا الخَلْقيّة؟ أم ما اكتسبناه لاحقا؟

طرح أحد الحاضرين سؤالاً مثيراً للانتباه في ندوة تناولت فيها التطوّر الشخصيّ: «يولد الناس وهم يتمتعون بذكاء وبنيّة تحتيّة شخصيّة مختلفين. في هذه الحالة، ألسنا مقيدين بخصائصنا الخَلْقيّة، مهما فعلنا طوال حياتنا؟».

أجيب بـ«نعم» للوهلة الأولى. فالخصائص العقليّة والشخصيّة الأساسيّة التي يولد بها الأفراد هي المقدرات الخاصة بهم. يمكن تطوير هذه الخصائص طوال الحياة إلى حدٍ معينٍ. لكن يمكن التفكير بأن العامل الحاسم بالنتيجة هو المورد الأصلي.

تبدو مشكلةً عويصةً. ولأنها عويصةٌ فهي واحدةٌ من القضايا الرئيسيّة محل النقاش، والتي لا غنى عنها في التربيّة وعلم النفس: ما هو الأكثر تأثيراً هل هي الخصائص الخَلْقيّة أم ما يُكتسب لاحقاً من المحيط؟ لا نريد مناقشة هذه المعضلة التي تنطوي في داخلها على تناقضٍ. لكنني ألفت الانتباه إلى المثال أدناه. المثال مثيرٌ للاهتمام من ناحية تأثيرات الخصائص الخَلْقيّة وما نكتسبه من خلال عمليّة التعلم.

لنتصور شخصيّن. ليكن الأوّل متمتعاً بخصائص ذهبيّةٍ بشكلٍ وراثيٍّ منذ الولادة. أما الثاني فيحمل من الولادة خصائصاً فضيّةً أقل قيمةً. يعيش

الشخص المتمتع بخصائص ذهبيّة حياةً مريحةً ومترهلةً وعاطلةً. هو في الحقيقة يتمتع بخصائص شخصيّةٍ بقيمة الذهب لكنها لا تنعكس على نواحي الحياة. لا تتحول إلى مهنةٍ ولا تحقق النجاح. تبقى مخفيّةً هذه القدرة العاطلة للفرد الذي يعيش البطالة. تماماً كما هو الحال بالنسبة لشخصٍ يمتلك كيلوغرامات من سبائك الذهب، ويخفيها تحت الوسادة في المنزل.

أما الشخص المتمتع بخصائصٍ فرديّةٍ فضيّةٍ فهو يدرك قيمة ما يمتلكه من خصائص ويعمل على التعرف عليها ويحللها. يفكر فيما يمكن الحصول عليه منها وكيفيّة الاستفادة منها، ثم يضع الخطط ويطبقها. ينهمك في عملٍ محمومٍ على الخصائص الفضيّة، ويعالجها ويطورها. تماماً كما هو الحال بالنسبة لتاجرٍ سبائك الفضة، لا يخبئها تحت الوسادة وإنما ينقلها إلى الحياة ويعالجها. يصنع من سبائك الفضة أساور وعقود وما شابه. أي أنه يعكس مقدراته التي هي بقيمة الفضة على نواحي الحياة، ويوفر مكاسب للاقتصاد.

عندما يقف الشخصان إلى جانب بعضهما البعض أيهما يبدو أكثر تطوراً أو نجاحاً؟ هل هو الشخص الذي لديه مقدراتٌ ذهبيّةٌ لكنه يخبئها في المنزل ولا تبدو عليه أي من علاماتها من الخارج ولا يقدمها لفائدة البشر؟ أم الشخص الذي يستغل الفضة بشكلٍ جيدٍ ويطورها ويعالجها بحيث يلاحظها من هم حوله ويقدمها لفائدة البشر؟

بطبيعة الحال تتقدم الفضة المعالجة من حيث كونها موجودة في الحياة وتوفر المنفعة وتنتج قيمةً مضافةً، على الذهب المورد العاطل. الذهب هامٌ وثمينٌ لكنه لم يتحول من مؤهل خام إلى ممارسة. أما الفضة فقد خرجت من حالتها الخام وتخلصت من بطالتها وجمودها وأصبحت بحالة معالجة.

في الحقيقة، الكثير من الناس يولدون ومعهم خصائصٌ مختلفةٌ وحيويّةٌ ومتطوّرةٌ جداً ومتفوقةٌ ومميزةٌ، لكنهم لا يبذلون جهداً للتطور الشخصيّ الفعال بسبب تأثير نماذج التعليم والتعلم خلال مراحل النمو والأهم من ذلك ضعف الرغبة الداخليّة لديهم. ولذلك لا يستطيعون أن يبرزوا تميزهم.

كشفت الدراسات في مجال المهارات العقليّة أيضاً هذا الأمر تماماً. على سبيل المثال، هناك اختبارات تسمح بقياس مستوى الذكاء (IQ test)، يعتبر اختبارا **ستانفورد- بينيت** و«WISC» الأكثر انتشاراً بينها. هناك الكثير من الدراسات حول ما إذا كانت القدرات العقليّة للأشخاص قابلةً للزيادة عن طريق التدريب والتعليم. *الاكتشاف المشترك لجميع هذه الدراسات هو أن القدرات العقليّة للشخص مهمّةٌ وحاسمةٌ ومصدرٌ رئيسيٌّ. لكن مستوى الاستفادة من هذا المورد وحيويّة العمل في هذا الخصوص يتمتعان بنفس القدر من أهمّيّة المصدر على أقل تقدير.*

بعدما أوردنا كل ما سبق يتوجب علينا طرح الفكرة التاليّة: لا بد لنا من مراجعة العوائق التي نتذرع بها في معظم الأحيان إزاء التطوّر الشخصيّ. لأن غالبيتها ليست عوائق حقيقيّة، وإنما هي بمثابة عجزٍ مكتسبٍ.

عجزٌ مكتسبٌ لدى الضفادع

ربما يكون من المفيد أن نتذكر تجربةً مطروحةً في سياق التطوّر الشخصيّ ومنقولةً بأشكالٍ مختلفةٍ. يضع علماءٌ عدداً من الضفادع الصغيرة في طنجرة من الزجاج، ويبدأون بتسخينها من الأسفل. تقفز الضفادع باستمرارٍ كيلا تصاب بالحرق. تسخن الطنجرة بشكلٍ أكبر مع مرور الوقت وهنا تقفز فراخ الضفادع من حلاوة الروح إلى خارج الطنجرة وتنجو بنفسها.

في المرحلة الثانيّة من التجربة، يضع العلماء غطاءً زجاجياً فوق الطنجرة، ويبدأون بتسخينها مجدداً. تقفز الضفادع التي تسخن أرجلها، وعند قفزها تصطدم بالغطاء. لا تتمكن الضفادع من تعلم شيءٍ في عشر محاولاتٍ بالمتوسط. لكن بعدها تبدأ بتعلم القفز على ارتفاع أقل بحيث لا تلامس غطاء الطنجرة، وهكذا تتخلص من الاصطدام به.

في المرحلة الثالثة للتجربة، تكرر المرحلة الأولى من جديد. أي أنه يتم رفع الغطاء الزجاجي ويبدأ تسخين الطنجرة. لكن الضفادع لا تقفز هذه المرة بحيث تتمكن من الخروج من الطنجرة التي لا يوجد غطاءٌ فوقها أصلاً. فهي تقفز بارتفاعٍ أقل وكأن الغطاء الزجاجي ما يزال موجوداً.

زال العائق الذي قلب حياة الضفادع رأساً على عقب وحال دون نجاتها من التعرض للحرق. لكن العائق الموجود في أذهانها ما يزال قائماً. الأمر نفسه ينطبق علينا نحن بني البشر. على الرغم من أن العوائق الطبيعيّة الموجودة في حياتنا تزول في معظم الأحيان إلا أننا نتصرف وكأنها ما تزال موجودة. على الأصح، حتى لو زالت بعض العوائق التي تقيدنا إلا أننا نستمر في الغالب بالعيش مع عوائق مصطنعة.

الشباب، المسنّون، فاترو الهمّة

عقدت ندوة في مطلع التسعينات من القرن الماضي بعنوان «الإدارة في الشركات العائليّة». وصادف أنني كنت مدير الجلسة. كان من بين المتحدثين في الجلسة **عُزير غاريه** (طيب الله ثراه). تعرفت إلى السيد عُزير غاريه قبل ذلك بكثيرٍ. كان إنساناً مميزاً حقاً. بدأ حديثه بطرفة.

قال: «انظر إلى الصالة، لا بد أني أكبركم سناً على أي حال. أنا مسنٌ لكني لستُ فاتر الهمة. يمكننا تصنيف البشر في ثلاث فئاتٍ من ناحية السن. الشباب، المسنون، فاترو الهمة. نعرف الشباب والمسنّين على أي حال. أما أن يكون المرء فاتر الهمة فتلك مشكلة. يمكن أن تواجهنا في كل الأعمار..».

هناك نوعٌ من الناس حالتهم الروحيّة العامة بطيئة. ينعكس هذا البطء على الأفكار والمواقف والتصرفات. وكأنهم يتحركون وفق مراسم. لا يستمتع المرء بصحبتهم. عديمو الحماس قليلو الرغبات. لا يبذلون أدنى جهد من أجل احتلال موقع أو اتخاذ موقف أو لعب دور لا غنى عنه في الحياة. أسباب ومسوغات كل الأحداث والوقائع بمعزلٍ عنهم دائماً. تصعب قراءتهم وكأنهم نصٌ معقدٌ. تأثرهم بالحياة ضعيف على غرار تأثيرهم عليها.

تثور الشكوك في بادئ الأمر حول القدرات العقليّة لهذا النوع من الأشخاص، لكن في معظم الأحيان لا توجد لديهم مشكلة في القدرات العقليّة. الأمر يتعلق إما بتراخٍ هيكلي وفيزيولوجي أو تراخٍ وكسلٍ مكتسب. لهذا يتمسكون بصعوبةٍ على ضفاف نهر الحياة، وعندما يشتد تدفق الحياة يفقدون أماكنهم.

ربما يجعل عمق بحر الإيمان الشخص أحياناً فاقد الرغبة والحركة في الحياة. وقد يكون همّ من ربطوا أمورهم بعالم الغيب ألا يتحملوا الكثير من الأعباء في الدار الدنيا. الحديث عن العمق في مسألة الإيمان مسألة تتجاوز اختصاصي، لكن أود التذكير بمقولة لمولانا: «يجب أن تعرف نفسك لا أن تمحوها». وعلى غرار الخير، مُنحنا الشر كتأهب طبيعي. ننقل خصائصنا هذه القليلة أو الكثيرة إلى مسرح الحياة بشكلٍ قليلٍ أو كبير. لا يمكننا على أي حال تصفيّة هذا الميل الذي نمتلكه بشكلٍ وراثيٍّ. ومن ناحيةٍ أخرى،

فإنه على غرار المبادئ في الكثير من الأديان الأخرى هناك مبدأ لدى المسلمين يقول: «اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً».

في هذه الحالة فإن المأمول هو أن يتخذ الشخص موقفاً تجاه الحياة. تناولنا المسألة في القسم المعنون «دورنا على مسرح الحياة». موقفٌ يجعل الحياة تشعر بكم ويدعكم تشعرون بالحياة. ينبغي أن لا تمروا على هذا المسرح وكأنكم ممثلٌ ثانوي. يجب أن يكون لديكم طلبات ورغبات، وحتى معارك. عليكم ألا تدعو مجالاً للتشتت العاطفيّ قدر الإمكان. ينبغي أن تستخدموا عقلكم وعواطفكم بشكلٍ فعالٍ وأن لا تنسوا في الوقت نفسه ينبوع قلبكم. وهكذا يتعين أن يكون العقل والعواطف والقلب في محور مصالحة.

ليست المشكلة في جعل طموحاتنا كبيرة من الحياة، وتطوير حافز النجاح لدينا وسعينا إلى امتلاك الكثير من الأشياء. تكمن المشكلة في اختزال كل شيءٍ بأنفسنا وأجسادنا وذواتنا وطلب كل شيء لأنفسنا فقط. المشكلة الحقيقيّة هي عدم وضع مصلحة الآخرين أبدا أمام مصلحتنا.

المشكلة هي أننا ننتظر من الآخرين باستمرارٍ اللطافة والنزاهة والظرافة، لكننا لا نبديها في تصرفاتنا. المشكلة هي أننا نعيش الحياة بمعزلٍ عن نظرة ديناميكيّة متعددة الاتجاهات، وبشكل جافٍ وسطحيٍّ وعشوائيٍّ وعديم الحيويّة. المشكلة هي أننا سطحيون في رحلة العمق الإنسانيّ.

أحمد ودورة كرة السلة

أجريت متابعات أكثر تمعنا في محيطي أثناء إعداد هذا القسم من الكتاب. زرت دورة كرة السلة التي التحق بها ابني أحمد شامل. تابعت

الأطفال والأمهات والآباء. هناك ٢٠ طالباً من الصفين الثالث والرابع الابتدائي. كان هناك آباءٌ وأقرباء جزءٍ من الطلاب يشاهدون التدريب.

دخل الأطفال إلى الملعب، وانقسموا إلى مجموعتين بأمر من المدرب. كان بعض الأطفال في هاتين المجموعتين المكونة كلٌ منهما من عشرة أفراد، يبذلون جهداً خاصاً كي يكونوا في الصفوف الأولى وقريبين من عمود السلة. وهناك جزءٌ آخر يقفون في الطابور كيفما اتفق. ربما لم يكونوا يدركون أهميّة هذه الأوّلويّة. لم يتغير الترتيب أبداً خلال اللعب والتدريب الممتد على مدى ساعة.

الفرص المتاحة في الحياة قليلةٌ جداً. وينبغي عليكم أن تستغلوها عندما تسنح. القاعدة الساريّة الوحيدة هنا هي عدم انتهاك حق الغير. يؤخذ الانطباع عن الناس حيثما يضعون أنفسهم. الطالب الواقف في الصفوف الأولى هو من يلعب أولاً.

أكثر ما لفت انتباهي خلال التدريب هو تفاعل الأطفال مع تعليمات المدرب. ينجح الأطفال المركزون على تعليمات المدرب في كل مراحل اللعب بدءاً من تنطيط الكرة إلى تجاوز العقبات ومراوغة الخصم والتسارع والتباطؤ مع الكرة والمحافظة على مسافة مع عمود السلة. يستمع بعض الأطفال إلى التعليمات وكلهم آذانٌ صاغيةٌ، فتقل نسبة أخطائهم. يستمعون بانتباهٍ ويتابعون بشكلٍ ممتازٍ، ثم يفرغون ذلك في تجربتهم. وهناك قسمٌ آخر بيدهم كرة ويتحركون لكن كأنهم ليسوا هناك. تعليمات المدرب واضحةٌ ومحددةٌ لكن كأنهم خارج الملعب. ويزداد عدد أخطائهم.

مما لا شك فيه أن قدراتهم العقليّة ومواصفاتهم الشخصيّة وقوتهم البدنيّة فعالة، لكن العامل الفعال أيضاً بنفس القدر هو الرغبة بالنجاح

وطموحاتهم الذاتيّة. ما يتعلمونه في اللعبة له تأثيرٌ كبيرٌ في تحقيق رغبتهم بالنجاح وطموحاتهم الشخصيّة.

الحياة خير معلم

ما نتعلمه من مسرح الحياة مهمٌ. تجلب النجاح قدرتنا على تطبيق ما تعلمناه من هذه المسرحيّة التي لا إعادة لها. لذلك يتوجب علينا الحذر تجاه المعلمين في الحياة. حذار من الحياة أولاً ومن التعليمات والتحذيرات والمعيشات الموجودة في محيطنا. *يفهم التعليمات المتعلقة الحياة من يوجهون اهتمامهم إليها. فيمارسونها في الحياة ويحولونها إلى سلوك ويصبحون ناجحين.*

يصاب جزءٌ من الأطفال بالملل بعد المحاولة الثالثة أو الرابعة. يواصلون وجودهم في اللعبة لكنهم لا يكترثون. وكأنهم يخرجون أنفسهم من السباق. وربما يدخلون نطاق العجز المكتسب. وفي المقابل، هناك جزءٌ آخر منهم يحتدون كلما فشلوا في محاولاتهم ويسعون للمحاولة بشكلٍ أكبر. وكان هناك طالبٌ احتدّ كثيراً وانسحب وهو يبكي.

مستوى الحرص على النجاح مهمٌّ في هذه الحالة. من المهمّ توفّر الحرص اللازم على تنفيذ عملٍ أو مهمّةٍ ما، وأيضاً السيطرة على هذا الحرص. فالحرص القليل يبعد الفرد عن بذل الجهد. وفي المقابل يؤدي الحرص الشديد إلى نتيجة مشابهة. لذلك يتمتع الحرص الخاضع للسيطرة وحافز النجاح بالأهميّة في عمليّة التطوّر الشخصيّ.

على سبيل المثال، التلاميذ الذين يركّزون على السلّة فقط بحرصٍ شديدٍ، ويصبّون اهتمامهم على تسجيل النقاط تفوتهم تفاصيل وأسرار اللعبة،

ويفشلون في نهاية المطاف. السؤال الحاسم هنا هو التالي: أيّهما أهم تسجيل النقاط أم اللعب الجيّد؟ بطبيعة الحال النقاط أي النتيجة هي الأهمّ، فهي مقياس النجاح والفوز. لكن يجب ألا ننسى أيضاً بأن الطريق إلى تسجيل النقاط يمر عبر اللعب الجيّد.

ينبغي على الشخص الراغب ببلوغ أعلى القمم في مسيرته المهنيّة أن يعرف الطريق والمسار بنفس قدر معرفته النتيجة على أقل تقدير. *لنفترض أنك تهدف إلى النجاح في الصف في نهاية السنة الدراسيّة، أو أن اهتمامك منصب على تحقيق النجاح في امتحان الجامعة. هذه الأهداف جميلة جداً ومعقولةٌ، لكن مهمتك ستكون صعبةً إن لم تضع خطة العمل المؤديّة إلى هذه النتيجة وتلتزم بها.*

تتعلق آخر الملاحظات حول دورة كرة سلةٍ لأطفالٍ حيث كان الأهل من المشاهدين. يجلس معظمهم في القسم المخصص للجمهور ويتابعون. راقبت المشاهدين، كان قسمٌ منهم يغفون، وقسمٌ آخر يقرأون. وهناك عددٌ لا يستهان به يتبادل أطراف الحديث مع من حوله. لكن كان هناك بعض الأشخاص هم أكثر من لفتوا انتباهي. لم يكونوا يستطيعون الجلوس في مكانهم على جانب الملعب. كانت كل حركةٍ من حركات الأطفال تثيرهم، وكانوا يوجهون التعليمات في كل فرصةٍ. بل إن أحد الأطفال تردد ما بين الاستماع إلى مدربه أم والده، واحتار في اتباع تعليماتهما.

التطوّر الشخصيّ، حافز النجاح والحرص

هناك أفرادٌ بطبيعتهم يؤمنون بأنفسهم وتطلعاتهم منها كبيرةٌ، ذوي عزمٍ وكفاحٍ شديدو الحماس ويضحون براحتهم، وهؤلاء يكونون أوفر حظاً على صعيد التطوّر الشخصيّ من خلال تعودهم العمل المنضبط.

تفقد المصطلحات المستخدمة في غير محلها معناها. ينبغي أن نستخدم هذه المصطلحات الثلاثة الرنانة في الأماكن الصحيحة. يتضمن التطوّر الشخصيّ تطوير مصادر المعلومات والمهارة انطلاقاً من الخصائص الشخصيّة الرئيسيّة. غير أن حافز النجاح والحرص المتعلقان مباشرة بالطبيعة الشخصيّة يمكن أن يلعبا دوراً حاسماً في التطوّر الشخصيّ، وبالتالي في مستوى العمق الإنسانيّ.

خياطو الجيوب الخلفيّة

لاحظت أمراً مثيراً للانتباه بخصوص العاملين في خياطة سراويل الجينز. كان من يخيطون الجيوب الخلفيّة هم أكثر الخياطين المطلوبين للعمل. كان درز الجيوب الخلفيّة أصعب جزءٍ في خياطة السروال، ولا يحتمل الخطأ. كان خياطو الجيوب الخلفيّة يحصلون على أجرٍ أعلى من

غيرهم، وتميزهم هذا ينعكس على تصرفاتهم. حتى في الاستراحات كانوا يجلسون في مجموعةٍ منفصلةٍ عن الآخرين.

ثم دارت الأيام وتطورت التكنولوجيا. صُنعت ماكينة تخيط الجيب الخلفي. اشترت الشركات الكبيرة هذه الماكينات. انقسم أصدقاؤنا خياطو الجيوب الخلفيّة البالغ عددهم عشرة إلى ثلاث مجموعاتٍ. تمرد أربعة منهم. كانوا دائمي الكلام والشكوى منذ اليوم الذي جاءت فيه الماكينات الجديدة. دفعوا ممثلي العمال والنقابة إلى التحرك من أجل منع مجيء الماكينات. عارضوا مجيئها بحرصٍ شديدٍ. تجادلوا باستمرارٍ مع مدرائهم ورؤسائهم، وأثاروا العمال الآخرين. بعد ذلك تركوا العمل. حاولوا مواصلة مهارتهم في خياطة الجيوب الخلفيّة في ورشة خياطة أصغر.

رضي خمسةٌ من الباقين بمصيرهم، وأصبحوا خياطين عاديين بأجرٍ أقلٍ.

والأخير، ماذا فعل؟ كان هذا خياطاً متميّزاً. ثار فضوله حول الماكينات الجديدة حتى قبل أن تأتي. وعندما جاءت كان هو أول من تعلم استخدامها. كان خريج ابتدائيّة، لكنه تعلم كل تفاصيل الماكينة المتقدمة تكنولوجيا. كان يبقى حتى ساعاتٍ متأخرةٍ في العمل كي يتعلم التفاصيل الفنيّة. قدّرت الشركة التي جلبت الماكينة هذه الرغبة لديه، وخلال فترةٍ قصيرةٍ تلقى تدريباً فنياً. وفي نهاية المطاف أصبح رئيساً مسؤولا عن هذه الماكينات الجديدة.

القصة في الحقيقة معروفة. تأتي موجة التطوّر الشخصيّ على حين غرةٍ أحياناً. من الممكن ركوب هذه الموجة والارتقاء بأنفسكم إلى مكانةٍ ما. ومن الممكن أيضاً الجلوس وتوجيه الانتقادات أو التراجع إلى الوراء. الخيار بيدكم. يلعب عنصران رئيسان دوراً في هذا الخيار: حافز النجاح والحرص.

يلعب حافز النجاح دوراً هاماً جداً في الانجازات الشخصيّة. ويوجد لدى كل فردٍ بمستوياتٍ مختلفةٍ. من المعروف أن رغبة الفرد في القيام بعملٍ ما وقوة تمسكه به هي مستوى رغبته بالنجاح. كما هو الحال بالنسبة للأطفال في لعبة كرة السلة. يتخلى جزءٌ منهم عنها بعد محاولةٍ فاشلةٍ، فيما يواصل جزءٌ آخر المحاولة حتى النجاح.

أثبت ديفيد سي. ماكليلاند، المعروف بدراساته في هذا الخصوص، أن حافز النجاح يختلف من فردٍ إلى آخر، ومن مجتمعٍ إلى آخر[1].

أما الحرص فيمكن اعتباره بأبسط التعابير أنه العزيمة المفرطة لدى الفرد في إنجاز عملٍ ما. يركز حافز النجاح بشكلٍ عامٍ على تحقيق النجاح والرغبة بالنجاح والمضي قدماً مع هذا الهدف. أما الحرص فهو ينطوي على العزيمة المفرطة في إنجاز عملٍ ما سواء أكان الأمر متعلقاً بالنجاح أم لا. ترتفع جرعة الحرص جراء قوة العزيمة بشأن ما يؤمل تحقيقه.

ليس هناك ضررٌ بشكلٍ عامٍ من كون حافز النجاح مرتفعاً. على العكس، يصل بالفرد إلى النجاح. في حين أن من الواضح وجود أضرارٍ للحرص عندما يتجاوز مستوىً معيناً. وفي الواقع، الحرص في مستوىً معين ضروريٌ من أجل النجاح. لكن الإفراط فيه يدفع الفرد إلى كفاحٍ أعمى، ويكون سبباً في بذل جهدٍ غير ضروري. تذكروا الطفل الذي بكى وانسحب عندما لم ينجح في لعبة كرة السلة.

١- دي. سي. ماكليلاند، The Achieving Society. D. Von Nostrand Co.، نيوجيرسي ١٩٦١.

النجاح نتاج من؟

النجاح هو النتيجة التي يروم كل الناس الوصول إليها. لكن هذه النتيجة المأمولة تكون متاحةً بعد عبور طريقٍ شاقٍ.

يؤكد الأستاذ «إسكندر بالا» على أن المهم في الأمر هو مواصلة النجاح، ويشدد، في مقالة له، على أن الإنسان يتخذ ثلاثة مواقف مختلفة إزاء النجاح، فيقول: «الموقف الأوّل هو نَسْبُ النجاح لنفسه فقط، وهذا حالٌ من أحوال الغفلة. لأن الفرد هنا يصاب بالغرور. الموقف الثاني هو نسب النجاح إلى الله فقط، وهذا يعتبر نوعاً من الإخلاص. أما الثالث فهو نسب النجاح إلى توفيق الله وجهده الذاتي، وهذا يعتبر نوعاً من الحقيقة. يكون الفرد فيه شكوراً»[1].

في هذه الحالة، من المهم تطوير **حافز النجاح**، الذي هو أهم موردٍ في عمليّة التطوّر الشخصيّ، بدءاً من مرحلة الطفولة. يتوجب على الآباء والأمهات إبداء عنايةٍ خاصةٍ في هذه الناحية. على سبيل المثال، ينبغي عليهم السماح للأطفال والشباب بطرح الأسئلة والتعبير عن أنفسهم. ينبغي الاهتمام بما يقولونه حتى وإن كان بسيطاً وعديم الجدوى ويجانبه الصواب. يجب الإصغاء إليهم. لا يتطور حافز النجاح بشكلٍ كافٍ لدى الأطفال الذين يتعرضون للنقد باستمرار ويخشون تجربة شيءٍ ما ويخافون ويتجنبون سلطة الكبار. تضعف رغبة الأطفال في الكلام والتصرف والنجاح إذا لم يكن الاحترام متوفراً بين الأزواج، وإذا لم يكن هناك اجتماعات لأفراد الأسرة، وإذا كان هناك شجارٌ في البيئة المنزليّة.

١- إسكندر بالا، «من يمكنه القول: نجحت»، الزمان، ٠٢. ٠٦. ٢٠٠٩.

مما لا شك فيه أن كل ذلك لا يعني منح مطلق الحريّة للأطفال. ينبغي ألا ننسى بأن طرق تربيّة الأطفال المفرطة في التسامح والحماية تنطوي على أضرارٍ كبيرةٍ على الأطفال. يواجه هؤلاء الأطفال صعوبةً في الاعتماد على أنفسهم ودخول تجارب جديدة وبذل الجهد وأداء الأعمال الخاصة بهم. أما الأطفال المتربين في جوٍ من التسلط المفرط فيمكن أن يميلوا إلى الانتقام من المجتمع ومن حولهم والتصرف بتسلط، وبالتالي قد يتورطون في ارتكاب جرائم مختلفة.

من المعروف أن الأطفال والشباب الذين يتلقون تربيّةً وفق مقاربةٍ ديمقراطيّةٍ يتمكنون من الكلام بسهولةٍ ولا يخشون توجيه النقد والتعرض له، وأن الجو العائلي الذي يخيم عليه التسامح والقواعد والانضباط بمستوىً معين، يزيد من حافز النجاح لدى الأطفال.

يمكن لأطفالٍ يتميز أبواهم بمستوىً مفرطٍ من الحرص أن يكونوا هم أيضاً ذوي حرصٍ شديدٍ. يدفع الحرص الخاضع للسيطرة الفرد في طريق النجاح. بينما يمكن للحرص مفلت العنان أن يسيطر على الفرد.

كفاءةٌ تحولت إلى سلوك

لا يثمر الاندفاع تجاه التطوّر الشخصيّ بدافع الحرص المجرد دون وضع الظروف في عين الاعتبار. ينبغي وضع مخططٍ للحياة بلا تعجل ودون تضييق على النفس، ولكن دون السماح بالتراخي أيضاً. ومن المهم جداً أن يحتوي هذا المخطط على انضباطٍ معينٍ. *لا تنسوا أن هدفكم الأصلي من التطوّر الشخصيّ هو تحويل كفاءاتكم بشكلٍ أكبر إلى سلوك.*

من رامي الجلة إلى متسابق الماراثون وممارس القفز الطويل.. الرياضيون هم خير مثالٍ في هذا الخصوص. يكتفون في البداية بمراتب صغيرةٍ جداً. وبعد ذلك يهدفون لتحقيق إنجازاتٍ أكبر. يعملون من أجل ذلك بشكلٍ منهجيٍ، ويتدربون بعزمٍ. وفي النهاية يسلكون سبيل النجاح، ويبدأون بنيل المراتب الأولى. ومع امتزاج رغباتهم الداخليّة بالمعنويّات المرتفعة الناجمة عن الفوز يحققون إنجازاتٍ على الصعيد العالمي. الأنسب هو استهداف العمل بشكلٍ منهجيٍ ومكثّفٍ عوضاً عن وضع هدف تحقيق بطولة العالم خلال فترةٍ قصيرةٍ جداً. *الطريق المؤدي للنجاح والمنهج المتبع وإيقاع التدريب المستدام والصبر وأهم شيء الانضباط ضروريٌ وهامٌ بقدر الحصول على بطولة العالم أو المرتبة الأولى.*

من المعروف أن الطلاب الناجحين في امتحان دخول الجامعة يكونون بشكلٍ عامٍ أذكياء ومجتهدين ويتبعون دورات تعليميّة. لكن الميزة المشتركة لدى من يحققون المراتب الأولى هي دراستهم المنتظمة وعزيمتهم ورغبتهم بالنجاح وخصوصاً عدم تخليهم عن الانضباط، على الرغم من أنهم قد لا يتبعون دوراتٍ تعليميّة أحياناً.

نسب الفرد النجاح لنفسه فقط قد تؤدي به ذات يوم إلى الفشل. لأنه كما أكرر في كتابي هذا باستمرار، فإن الذات المغرورة تفسد الانضباط الفردي. كما أن هناك تأثيراً للظروف المحيطة على النجاح. نسب الفرد النتيجة لنفسه فقط تدفعه ليكون مغروراً وأنانياً.

لا يضر المرء أن ينسب النجاح إلى قوىً خارجه فوق طبيعية. لكن إغفال دوره الشخصيّ تماماً في النجاح قد يؤدي إلى تقليل رغبته مع مرور الوقت. وقد

يتجه للتراخي قائلاً: «ليس الأمر بيديّ على أي حال». المنهج الأكثر منطقيّة هو أن ينسب المرء النجاح المتحقق إلى عمله وجهوده من جهةٍ وإلى تأثيرات الظروف المحيطة من جهةٍ أخرى. بذلك تتحقق استدامة جهود الفرد.

هناك خطرٌ مهمٌ في التطوّر الشخصيّ، وهو بذل الأفراد الجهد أحياناً من أجل الظهور أمام من هم حولهم.

تابعت برنامجاً تلفزيونياً قبل فترةٍ. طرح سؤال «لماذا شاركتم؟» على الملتحقين بدورةٍ للتطور الشخصيّ. كان من الملفت أن معظمهم تحدث عن هدفه في إثبات نفسه أمام الآخرين. في حين أن الهدف الأصلي للتطور الشخصيّ هو أن ندرك مقدراتنا بصفتنا بشراً، وأن نحولها بشكلٍ أكبر إلى سلوك. الطبيعة هي خير مختبرٍ من أجل ذلك.

القانون الثاني للديناميكيّة الحراريّة

يمكننا العثور على إجاباتٍ عن كل الأسئلة إن توجهنا إلى الطبيعة بأعينٍ ترى حقاً. حسبنا أن ننظر ونرى.

أدرت ندوةً تحت عنوان «قواعد الإدارة، إدارة الأزمة، العمل الجماعي والحافز». شارك في جلسةٍ لقمّة الإدارة الثامنة[1] التي انعقدت في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٩ كلٌّ من علي بولوط رئيس شركة ألطنباش القابضة ومجموعة مجوهر، وكوكهانغوناي المدير العام لمصرف الأناضول، ومحمد باشار المدير العام لشركة بوروسان تليكوم، وألقوا خلالها كلماتٍ مثيرةٍ للاهتمام.

---

١ – قمة الإدارة الثامنة، EDUPLUS، ٢٠٠٩.

قال علي بولوط، وهو مهندس ميكانيكي، إن حالة الفوضى والتوازن في الطبيعة تبدو مستمرةً. تمثل الحالة الصلبة، وهي من حالات المادة الثلاث، التوازن، وتمثل الحالة الغازيّة الفوضى، وتمثل الحالة السائلة مزيجاً من التوازن والفوضى.

علمت من هذه الكلمة أن جميع الأنظمة الديناميكيّة في الكون تميل إلى التوجه من حالة التوازن إلى عدم التوازن بموجب القانون الثاني للديناميكيّة الحراريّة أحد القوانين الكونيّة للفيزياء. وللمحافظة على هذا التوازن يجب حتماً تدخل طاقةٍ من الخارج.

في هذه الحالة، يراوح الإنسان ما بين التوازن وعدم التوازن على غرار البيئة الطبيعيّة التي يحتل مكاناً فيها. على سبيل المثال، من المعروف أن حالة التوازن في جسم الإنسان تسمى «*homeostasis*». بأبسط الأمثلة، يتزعزع توازن الجسم عندما نعطش أو نجوع. في الحقيقة، تبدأ الفوضى داخل الجسم. يجب علينا أن نأكل الطعام ونشرب الماء حتى يعود التوازن مجدداً. وهكذا نكون قد أقمنا التوازن في الجسم من خلال دخول طاقة من الخارج.

على غرار التوازن الفيزيولوجيّ لجسمنا، ينطبق الأمر نفسه على توازننا العقليّ والعاطفيّ والروحيّ. يتأرجح عالمنا العقليّ والعاطفيّ والروحيّ ما بين التوازن وعدمه في كل يومٍ وكل ساعةٍ وكل لحظةٍ. تعود حالة عدم التوازن العقلي الناشئ عن ضعف ذاكرتنا إلى التوازن من خلال اكتساب خبراتٍ جديدةٍ وتعلم أشياء جديدة. يؤدي تراجع أو فقدان الدعم العاطفيّ الذي نحصل عليه من أمهاتنا وآبائنا، إلى توترٍ عاطفيٍّ. تتدخل هنا الزوجة والأطفال من أجل تحقيق التوازن. نلجأ إلى بعض الطرق من أجل تفادي

الانهيار الذي نعيشه على الصعيد الروحيّ. على سبيل المثال، نمشي في الغابات، ونمارس الرياضة. نعمل في زراعة الأرض أو نرفع أيدينا متوجهين إلى الله بالدعاء. وهكذا نحاول إعادة التوازن الروحيّ المهتز.

في هذه الحالة يمكننا اعتبار التطوّر الشخصيّ عمليّة استمداد طاقاتٍ جديدةٍ من الخارج من أجل تحقيق التوازن كلما فقدناه على الصعيد البيولوجيّ والعقليّ والعاطفيّ والروحيّ. يكون استمداد هذه الطاقة تارةً بتعلم استخدام هاتفٍ محمولٍ مصنوعٍ حديثاً. وتارةً أخرى يكون باكتساب مهارات إدارةٍ متناسبةٍ مع المنصب الذي تم تعيينا فيه حديثاً. وأحياناً يكون في احتضان أحد الأقارب بقوةٍ، أو بالتربيت على ظهره. ويكون أحياناً أيضاً حبّ طيرٍ أو حشرةٍ أو زهرةٍ أو حتى حجرٍ، ومداعبته بمودة.

بالنتيجة، من الخطأ اختزال التطوّر الشخصيّ في سعيٍ جافٍ للموضة والتيار الدارج أو جنون التعلم أو فضول البحث الرامي إلى المظاهر. والتطوّر الشخصيّ ليس أيضاً الانعزال عن الحياة الحقيقيّة من خلال الهرولة وراء القوى الشخصيّة المبالغ فيها التي تكون فيها الذات في المركز وتتعاظم فيها الأنانيّة.

التطوّر الشخصيّ هو رؤية الغموض وما لا يمكن التكهن به والتهديدات والحاجة إلى التحوّل الموجودة في الحياة الطبيعيّة، وتحقيق المكتسبات الخارجيّة المناسبة من أجل ذلك. بموجز العبارة، التطوّر الشخصيّ هو عمليّة التعلم والتطوّر الواعيّة الراميّة للمحافظة على اتزان الميل إلى عدم التوازن المستمر في ديناميكيّة الحياة.

«إنه إمام»

أحمد يوتر هو واحدٌ من حوالي مئة ألف موظفٍ يعملون في رئاسة الشؤون الدينيّة. وُلد في مدينة مرزيفون (شمال تركيا) عام ١٩٦٣. تخرج من كليّة الإلهيات، بعد إتمام دراسته في ثانويّة الأئمة والخطباء عام ١٩٨١. عمل في الكثير من المساجد، وفي عام ١٩٩١ عُين إماماً في المسجد الخزفي الموجود في المدينة الصناعيّة للسيارات في منطقة طوب قابي (إسطنبول). منذ ذلك اليوم وهو يعمل في المسجد المذكور.

جمع الشيخ أصحاب المحلات في المنطقة وحوّل هذا البناء الذي أنشئ في الأصل لغايةٍ أخرى، إلى مسجدٍ في غاية الجمال. الأمر طبيعي إلى هنا ويمكننا رؤيته في كل مسجدٍ تقريباً. لكن انظروا ماذا فعل أيضاً.

تحدث مع الكثير من الأكاديميين المعروفين، ودعاهم إلى إلقاء محاضراتٍ في المسجد أيام الجمعة. وهكذا ابتكر شيئاً جديداً. واجه الكثير من الصعوبات في البداية. تساءل الناس: «هل يعقل إلقاء محاضراتٍ في المسجد؟». لأن الجميع اعتادوا على الدروس الدينيّة التقليديّة قبل صلاة الجمعة. لكن الشيخ أصر على خطوته. منذ خمسة عشر عاماً والمحاضرات تُلقى في هذا المسجد كل جمعة. جاء أناسٌ من مختلف القطاعات، من الجامعات وعالم الأعمال وباحثون وفنانون وكتّاب..بلغ مجموعهم حتى اليوم ٣٥٧ شخصاً. اعتادت الجماعة على هذا التقليد، وأصبح هناك من يأتون من مناطق بعيدة إلى المسجد. لم يكتفِ أحمد يوتر بذلك بل سجل المحاضرات، ثم فرغها ونشرها على شكل كتابٍ ضخمٍ.

يمكن للمحاضرين إلقاء محاضراتهم في بيئةٍ إلكترونيّةٍ أو باستخدام اللوح أو كرسي الخطيب. لقاء كل هذه الجهود كُرّم أحمد يوتر بجائزة اللعب النظيف المسماة «Fair Play» قدمتها إليه اللجنة الوطنيّة الأوّلمبيّة التركيّة. أنا أيضاً ألقيت محاضرةً في المسجد. استمتعت بمخاطبة شريحة مستمعين واعيّة ومنتبهة ومهتمة مكونة من ٣٠٠٠ شخصٍ.

هذه صورةٌ يمكننا أن نسميها تطوراً شخصيّاً أو شيئاً آخر، لكن هناك حقيقةٌ ماثلةٌ للعيان. يمكن *لبعض الأشخاص أن يتخذوا موقفاً حازماً مجاهداً شديد الحماس، ولا يجمد في مكانه، ولا يكتفي بما هو متوفّر، ويسعى إلى توسيع المقدرات المتوفرة، ويخرج عن المألوف. يؤمن هؤلاء من صميمهم أن بإمكانهم فعل شيءٍ ما، وابتكار قيمةٍ مضافةٍ.*

هؤلاء هم الأفراد الذين يعملون بانتظام ويضحون براحتهم ويتمتعون بالعزيمة ولديهم تطلعات كبيرة من أنفسهم. الأهم من ذلك أنهم شخصيّاتٌ تؤمن بنفسها. إنها نماذج أشخاص يبذلون جهوداً مضنيّة ويحاولون فعل أشياءٍ بكل ما أوتوا من قوة.

ما هي النتيجة عندما يكون الفرد منهمكاً بالعمل وذو عزيمةٍ وكفاحٍ بهذا القدر؟ يصنع الفارق في نهاية المطاف. إذا كان طالب ثانويّةٍ فهو يدخل الجامعة التي ينشدها. وإذا كان موظفاً فهو يحصل على الترقيات وتعلو مكانته. وإن كان رجل علمٍ فهو يضع مؤلفاتٍ ويجد اكتشافاتٍ. وإن كان سياسياً فينال إعجاب المجتمع.

يكون الفرد المعتاد على تطوير نفسه منفتحاً إزاء الحياة. يمكنه أن يركز بسهولةٍ. يطور ثقته بنفسه من خلال نشاط العمل المكثف. يكون مفعماً بالطاقة ويتمكن من اتخاذ القرارات بسهولةٍ.

العمق الإنسانيّ

من أجل من نتطور؟

غاية التطوّر الشخصيّ هي ابتكار قيمةٍ مضافةٍ أكبر من أجل الإنسان والإنسانيّة من خلال تطوير أنفسنا. الهدف الأصلي هو التمكن من تحقيق عمقٍ إنسانيٍّ عبر المحافظة على تطورٍ شخصيٍّ مستمرٍ من شأنه التغلب على الأزمة الإنسانيّة الناجمة عن عصر المعلومات.

الأزمة الإنسانيّة والتطوّر الشخصيّ

الحياة قصيرةٌ جداً. بنظرةٍ فلسفيّةٍ، يمكننا القول إن الهدف الحقيقي في هذا العمر القصير هو أن يكسب *الإنسان نفسه*. لأن الإنسان هو الأصل. عندما نخسر الإنسان نفقد الإنسانيّة. لهذا لا بد من مكافحة الأزمة الإنسانيّة المتفاقمّة بسرعةٍ في عصر المعلومات في يومنا هذا. اعتياد التطوّر الشخصيّ هو طريقةٌ هامةٌ جداً في مكافحة الأزمة الإنسانيّة. بفضل التطوّر الشخصيّ يمكننا أن نلتقي مجدداً مع عالمنا الأصلي الذي ابتعدنا عنه بسرعةٍ. باستطاعتنا إعادة كسب مهارات الانسجام التي بدأنا نفقدها.

يظهر أمامنا في هذه النقطة بالضبط سؤالٌ خطيرٌ على صعيد التطوّر الشخصيّ. بما أن الهدف هو الحيلولة دون فقدان الإنسان نفسه وتأمين استعادتها، وبما أن الغاية هي إعادة بناء هويّة الإنسان في الحياة المتغيرة بسرعةٍ، وبما أن القصد هو الجهد المبذول كي يصنع الإنسان الفارق، إذن من

هو الهدف الرئيسي لكل هذه الجهود؟ الإنسان نفسه أم بقيّة الناس، أي الآخرون؟

لنعد صياغة السؤال. هل هدف التطوّر الشخصيّ هو مكاسب من أجل ذات الفرد مباشرةً؟ أم أنها مكاسب من أجل الآخرين؟ بموجز العبارة، هل نقدم على التطوّر الشخصيّ من أجل أنفسنا أم من أجل الآخرين؟

عندما نجيب عن هذا السؤال بشكلٍ موضوعيٍّ يمكننا التقدم بخطىً واثقةٍ أكثر في رحلة التطوّر الشخصيّ.

عملت على الإجابة عن هذه الأسئلة خلال إعداد جزءٍ هامٍ من أطروحتي في الدكتوراه[1]. تناولت في الأطروحة المذكورة حاجة القادة في مجتمع المعلومات إلى التطوّر الشخصيّ، وناقشت السبب والكيفيّة اللذين يتوجب وفقهما تلبية هذه الحاجة.

التطوّر الشخصيّ هو في الحقيقة حالة استغلال الفرد- بوصفه جوهراً- *لقدراته إلى أبعد الحدود وجعلها متيقظةً ودفعها إلى الإنتاج الفعال. لنفترض أن الفرد قماشٌ، فيكون التطوّر الشخصيّ سعيه لصنع أفضل ثوبٍ من نفسه.*

أؤكد في كتابي هذا على ضرورة وقوف الفرد في نقطة الصفر كمقاربةٍ رئيسيّةٍ، وعمله بنشاطٍ من أجل «الآخرين»، وليس من أجل «نفسه».

نحافظ على هذه المقاربة الرئيسيّة بخصوص التطوّر الشخصيّ. ليس هدف التطوّر الشخصيّ الوصول بأنفسنا إلى مكانةٍ ما. الهدف الحقيقي هو

١- إ. فندقجي، تطوير الذات لدى القادة في مجتمع المعلومات، منشورات وقف الثقافة والتربية، إسطنبول ١٩٩٦.

تطوير أنفسنا في سبيل ابتكار قيمةٍ مضافةٍ أكثر من أجل الآخرين. وزيادة فائدتنا أكثر للإنسان والإنسانيّة عبر تطوير أنفسنا. الهدف الأصلي هو التمكن من تحقيق عمقٍ إنسانيٍّ عبر المحافظة على تطورٍ شخصيٍّ مستمرٍ من شأنه التغلب على الأزمة الإنسانيّة الناجمة عن عصر المعلومات.

من خدمة «الذات» إلى خدمة «الغير»: «الحلم من أجل الآخرين»

أصل المسألة هو ألا يضيع الإنسان في مواجهة الحياة. لكننا نشاهد الانهيار السريع للذوات المتعاظمة بالتوازي مع نهوض العالم الماديّ مع مرور كل يوم. بما أن عدد الناس المغتربين والقانطين والقلقين والحزينين ومحدودي التواصل يتزايد بسرعةٍ فإن الهدف من التطوّر الشخصيّ هو أولاً عدم فقدان أنفسنا. *الهدف الحقيقي هو عدم فقدان الإنسان- وبعبارة أفضل- الإنسانيّة.*

لهذا علينا أن نطور أنفسنا بشكلٍ أكبر، وأن نعيش من جديدٍ فرحة صنع أشياء أكثر من أجل الآخرين. لأن الإنسان المعاصر ضاق ذرعاً بأخذ الأشياء ما على نحوٍ مستمرٍ ومن التوجه إلى جسده الماديّ.

كنت قد تحدثت في العناوين الفرعيّة الخاصة بالعشق في هذا الكتاب عن ثلاثة مواقف رئيسيّة يمكننا أن نصيغها في كافة نواحي حياتنا: *الموقف الغريزي والموقف المنطقي والموقف الروحيّ. يمكن أن نكون ساعين لإرضاء غرائزنا فقط في التطوّر الشخصيّ أيضاً. وقد نهدف إلى التطوّر اللازم في إطار المنطق. وفي نهاية المطاف يمكننا أن ندعم طريقةً للتطور الشخصيّ بشأن مجالات إرضاءٍ تشعر روحنا وعالمنا الاجتماعيّ والعاطفيّ*

بالحاجة إليها. طريق التطوّر الشخصيّ الذي يتيح طمأنينة روحنا هو خدمة «الآخر» وليس «الأنا».

يتحدث **غابرييل غارسيا ماركيز** عن «الحلم من أجل الآخرين» على أنه أرفع المستويات على صعيد عمل أشياء من أجل الآخرين. في مقدمة كتابه المترجم إلى التركيّة بعنوان «اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة»، يتحدث ماركيز عن حلمٍ رأى فيه أنه يشارك في جنازته ويستمتع كثيراً بذلك، لكنه يحزن كثيراً لأنه يتوجب عليه البقاء في المقبرة بعد مراسم الجنازة[١]. يعرف ذلك بأنه «**إدراك الهويّة**».

تلعب الأحلام التي يراها الأشخاص وما فيها من مشاهد وإدراكات، دوراً فعالاً في تطوير وعيٍ جوهريٍ حول فرديتهم وخصائصهم الشخصيّة وقدراتهم، وباختصارٍ حول وجودهم. تناولت هذه المسألة في مقالة لي بعنوان «مأزق الأنا»[٢].

يتحدث ماركيز عن فضيلة رؤية الأحلام من أجل الآخرين في زمن يسعى فيه الجميع إلى تحقيق ذاته وفهم نفسه والحديث عنها وتسويقها، زمن سحقت الفرديّة فيه المجتمع. يعتبر ماركيز رؤية الأحلام من أجل الآخرين المهمة الوحيدة للكتّاب.

تؤكد جميع العقائد الدينيّة على فضيلة عمل شيءٍ من أجل الآخرين. إنتاج قيمةٍ مضافةٍ من أجل الآخرين موجودٌ في قيمنا الاعتقاديّة الأساسيّة، وعلى

١- غ.غ. ماركيز، اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة، (ترجمة إينجي كوت)، منشورات ياي، إسطنبول ٢٠٠٩.

٢- إ. فندقجي، «معضلة الأنا»، ما وراء الخط (مجلة الكليّة الحربيّة البريّة)، أنقرة، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٦.

الأخص في التصوف. فالأمر يتعلق بالسعي لكسب الحق من خلال كسب الآخرين. *لهذا دأبت في كتابي هذا على القول إن خدمة «الآخر» قبل «الأنا» هو موقفٌ حياتيٌ حاسمٌ. من الضروري الاهتمام بالآخرين وتحييد المرء نفسه من خلال دخول قلوب الآخرين، والهبوط من جبل «الأنا» إلى بحر «النحن».*

هذا هو حبُّ طلبِ ودِ قلوب الآخرين من خلال تخلي المرء عن «الأنا». هذا هو حبُّ صنع الخير للإنسان والإنسانيّة. هذا هو التخلص من غرور «الأنا» والتوجه لكسب ود الآخرين. تصوروا قريةً وبلدةً ومجتمعاً وعالماً تزايد فيه من يهيمون بهذا الحب. كم كان كل شيءٍ سيصبح رائعاً.

بالنتيجة فإن تطوير أنفسنا من أجل الآخرين يظهر أمامنا كمقياسٍ للعمق الإنسانيّ.

الثراء الداخليّ والصدق المكتسب

أسافر كثيراً من أجل الخدمات الاستشاريّة التي أقدمها للشركات العائليّة ومن أجل إلقاء المحاضرات، إلى درجة أنني أصبحت أشعر أنني من أقرباء طاقم المضيفين في رحلات الخطوط الجويّة التركيّة من إسطنبول إلى إزمير وأضنة وقيصري وملاطيّة وموسكو وألمانيا.

ليس عمل هؤلاء بالسهل كما هو الحال بالنسبة للجميع. يقدمون الخدمات لأناسٍ يرونهم للمرة الأولى في معظم الأحيان. عملهم هو السهر على راحة الناس.

عندما تراقبون بتمعن المضيفات مثل بقيّة الناس من الممكن أن تلاحظوا الصدق في تصرفاتهن. *سواء أكان صدقاً حقيقياً أو صدقاً مكتسباً.*

يتمتع بعض الناس في طبيعتهم بالمهارة على صعيد العلاقات الإنسانيّة. يتحدثون بطلاقةٍ ويقيمون التواصل البصري فوراً. يعبرون عن أنفسهم بسهولةٍ. وكأن لغة الجسد لديهم تبعث رسائل مفعمةً بالرحمة للآخر من قبيل «تعال»، «أنا هنا»، «أنا مستعدٌ للتواصل معك»، «أنا مثلك». حركاتهم وإيماءاتهم على الخصوص واضحةٌ ومفهومةٌ. وربما يكون الأهم أنهم يتوجهون بكليتهم إلى الشخص الذي يتواصلون معه. يعملون بكل ما أوتوا من قوة من أجل الإصغاء إليه وفهمه، والأهم من ذلك إضفاء أشياءٍ من أنفسهم على عالمه. يجعلونك تشعر بوجودهم من خلال بسمةٍ أحياناً، وعبر دعابةٍ أو مساعدةٍ صغيرةٍ في أحياناً أخرى. لا يكونون منفّرين حتى عندما يقولون «لا»، «غير ممكن»، «هذا مخالفٌ للقواعد».

لا يؤذون مشاعرك. يرون الجانب الإيجابي من الأمر. يوجهون رسائل إيجابيّة حول نقاطك الإيجابيّة قبل أن يعيبوا عليك نقائصك. باختصارٍ، ترى الصدق والإخلاص الكبيرين في كل ناحيةٍ من سلوكيات هؤلاء الناس. تستمتع بأجواء سلوكهم الناجم عن إخلاصهم وصدقهم.

الصدق خصلةٌ موجودةٌ في كل إنسانٍ، لكنها قليلةٌ عند جزءٍ منا. وكأننا نغار على ذلك الإخلاص والجمال والصدق فنحتفظ به في داخلنا. وكأننا نحبسه. ما نحتفظ به داخلنا لا يمكنه الخروج ولا يرافق تصرفاتنا. هذا ما تناولته بشكل مطوّل في كتابي «إدارة الموارد البشريّة»[1]. هؤلاء الناس لا يصغون لمن يقفون مقابلهم. يجدون صعوبةً في خدمة الآخرين، ويقومون بذلك من أجل تسيير أعمالهم. المهم بالنسبة لهم هو ما يرونه وليس ما يفكر

١- إ. فندقجي، إدارة الموارد البشريّة، (الطبعة السابعة الموسعة)، منشورات ألفا، إسطنبول ٢٠١٠.

به ويقوله من حولهم. حتى سلوكياتهم المفيدة تؤذي من حولهم في معظم الأحيان. هذا هو الصدق المكتسب. لم يحصل السلوك لديهم على الكم الكافي من صبغة الصدق. سلوكهم فجٌ ومتكلفٌ وباردٌ ومنفرٌ.

ربما يتمكنون من الابتسام، لكنك تدرك أنهم غير صادقين حتى في ابتسامتهم.

الفارق الهام بين السلوكين هو التالي: الهدف الأصلي لسلوكنا في الصدق الحقيقي هو كسب رضا الآخرين. الأصل هو ابتكار قيمةٍ مضافةٍ من أجلهم. أما في الصدق المكتسب فهناك التصنع والتكلف. الهدف الأصلي لسلوك الفرد هنا هو مصلحته ورضاه الخاصين. الأساس هو القيام بالعمل.

يسهل الابتسام مهمتك في عمليّة التواصل، وقد يتيح لك إتمامها بنجاحٍ. لكن الصدق يكسبك الإنسان. يفرض السلوك البعيد عن الصدق العداء المتجذر والتهميش. في حين يشجع الصدق التماثل والوحدة.

هل يمكن التغلب على الصدق المكتسب وتحريك الصدق الحقيقي؟ نعم بالتأكيد. لكن الأمر ليس سهلاً. على سبيل المثال، إذا كانت أهم شخصيّةٍ بالنسبة لك في هذه الحياة الدنيا تعبر عنها بكلمةٍ واحدةٍ هي «أنت» وإذا كانت أولويتك دائماً تطغى في كل زمان ومكان على أولويّة الآخرين فمهمتك ليست سهلةً. يتوجب أن تكون لديك الرغبة والحلم والإيمان بقدرتك على النجاح في المهمة.

في الحقيقة، الصدق والإخلاص متوفران في الأساس داخلنا على شكل ينبوعٍ وموردٍ عميقٍ. المهم هو إتاحة انعكاس هذا المورد على الخارج كما هو نضراً نظيفاً بكراً. لا تنسَ أن المعلومات الناقصة التي نقترحها بخصوص نفسيّة

الإنسان والعلاقات الإنسانيّة لا توفر لنا المنفعة أحياناً، علاوة على أنها قد تحول بيننا وبين التصرف بإخلاصٍ وصدقٍ. روى لنا أستاذنا المختص في علم النفس أن هناك عددٌ كبيرٌ من الأمهات والآباء الذين ينتقلون من ندوةٍ إلى أخرى ومن مربٍّ لآخر ويجرون اختبارات الذكاء والشخصيّة رغم عدم ضرورتها من أجل تربيّة أبنائهم بشكلٍ أفضل في المدن الكبرى. الملفت في الأمر هو أن عدد مشاكل الانسجام والسلوك التي يعاني منها أطفال هؤلاء الأمهات والآباء ليس بالقليل. في حين أن الأبوين في بيئة القرية يتمكنان من تربيّة أبنائهما بالمهارات الأبويّة الطبيعيّة دون مواجهة مشاكل. بطبيعة الحال، لا بد من أن يستثمر الأبوين في نفسيهما بخصوص قضيتي تربيّة الأطفال والتطوّر الشخصيّ. *لكن ما أريد قوله هو أن ما نتعلمه مهما كان لا ينبغي أن يرخي بظلاله على إخلاصنا ويدفع بصدقنا إلى الوراء. يجب ألا نقحم التصنع على صدقنا في مجال التصرفات. ينبغي أن يعزز ما نتعلمه صدقنا، وأن يطوره ويساعده.*

زيادة العطاء في العلاقات الإنسانيّة

من المهم أن نزيد إيماننا بأنفسنا ونرفع سقف أهدافنا من أجل زيادة درجة الصدق في العلاقات الإنسانيّة والوصول إلى المكانة المأمولة.

كان هناك انخفاضٌ خطيرٌ في عطاء خط الإنتاج بمصنع نسيجٍ صغيرٍ نقدم له الاستشارات. كان الإنتاج دون المستهدف وفق مدة الخياطة المعياريّة. أقدم المهندسون في قسمي الإنتاج والجودة على حدٍ سواء، على الكثير من الخطوات، وأعدوا جملةً من الوثائق والتقارير والتحليلات والرسوم البيانيّة بخصوص انخفاض الإنتاجيّة والعمل على رفعها. لكن لم تتحقق النتيجة المرجوة.

اتبعت الطريقة التاليّة من أجل حل المشكلة: تناولت الطعام عدة أيام مع العاملين في قسم الإنتاج. لم نأكل في المطعم الصغير المنمق بشكلٍ أكبر والمزود بأصيص النبات واللوحات والمخصص لإداريي الشركة، وإنما في المطعم الكبير حيث يتناول العاملون وجباتهم. لاحظت وجود نقصٍ كبيرٍ من الناحية المعنويّة وحالةٍ من الضجر. كل إداري جاء إلى القسم صرخ بالعمال وانتقد أداءهم وقال إن الأمور ليست على ما يرام. تم تقديم شرحٍ علميٍّ عن معيار الجودة وسرعة الإنتاج عبر أرقام وتقارير ورسوم بيانيّة، لكن لم يتطرق أحدٌ بالشكل الكافي إلى واقع ورغبات وهموم العمال بصفتهم «بشر». والأهم من ذلك أنه كان هناك تصور وتقبل لضعف الإنتاج على أنه قضاءٌ وقدر.

تحدثت في البداية مع ثلاثةٍ من رؤساء خطوط الإنتاج، ثم عقدنا اجتماعاً مع كافة العاملين عنوانه الروح المعنويّة والحافز. عملت على توضيح إمكانيّة تغلب الإنسان على كل العقبات، ولجأت في ذلك إلى الدعابات والأحداث النموذجيّة. ولعبنا لعبةً من أجل زيادة الرغبة في العمل. ضحك العمال من قلبهم. من خلال لعبةٍ قصيرةٍ رأوا أنه حتى الأمور المستحيلة التحقيق أثناء انجاز عملٍ ما ناجمةٌ في معظم الأحيان عن عوائق في عقولنا نفسها، كما عملنا على توضيحه في مثال العجز المكتسب لدى الضفادع.

بعد ذلك، عقدت اجتماعاً خاصاً مع رئيس وعمال خط الخياطة الأوّل، وأكدت لهم على ثقتي بقدرتهم على تحقيق معيار الجودة. تجاوز الخط الأوّل المعدل المحدد له. وبعد ذلك تمكن الخطان الآخران من بلوغ المعدل خلال ثلاثة أسابيع.

كان تألق نظرات العاملين جديراً بالرؤية مع نجاحهم بتحقيق المعدل المذكور. كانوا متحمسين كالأطفال، ويلتقطون الصور ويصورون الفيديوهات لتأكيد هذا النجاح.

وفي الختام، عقدت جلسةً شارك فيها جميع العاملين. تحدث فريق من خمسة عاملين بقيادة أحد رؤساء الإنتاج عن كيفيّة تحقق هذا الانجاز، على منصةٍ باستخدام الحاسوب وبرفقة مشاهد عرضت على شاشةٍ عملاقةٍ على الجدار. كان المهندسون هذه المرة في موقع المستمعين، بينما وقف العمال يتحدثون وبأيديهم الأقلام عن زيادة الجودة من خلال الأرقام.

ما يتعلمه الناس مهم، والأرقام مهمة، والخبرات مهمة كذلك، لكن الأهم من ذلك هو الرغبة القادمة من صميم الأفراد للعمل، ومؤهلاتهم الطبيعيّة وإخلاصهم. ينبغي أن يكون التعلم والتجربة هادفين إلى تحويل خبراتنا إلى سلوك. بعبارةٍ أخرى، ينبغي ألا يكون هدف تعلمنا الرامي للتطور الشخصيّ هو التغاضي عن خبراتنا. يجب أن يكون الهدف تحريك المقدرات والثراء الداخليّ الموجود أو المخفي وتحويلهما إلى سلوكٍ. يمكن أن تتحول شرارة رغبةٍ صغيرةٍ في الأسرة أو محل العمل أو المجتمع إلى موجة حراكٍ تتغلب على عقباتٍ كبيرةٍ جداً.

مهما درستم وتمتعتم بالخبرة، يتعين عليكم أحياناً الإصغاء إلى من «يؤدون عملاً» تعتقدون أنهم دونكم في العلم. ينبغي ألا يكون همنا معرفة كل شيءٍ في عصرنا الذي بلغت فيه الفرديّة ذروتها.

من عمّالٍ متوسطين إلى عمّالٍ نشطاء

يشتكي الناس في معظم الأحيان. ليسوا سعداء بموقعهم. جزءٌ كبيرٌ منهم يتحدث كثيراً ويفكر قليلاً. يجدون صعوبةً في توجيه قدراتهم الفكريّة إلى مواردهم الداخليّة. لا يعرفون قدراتهم بالشكل الكافي. يريدون بلوغ مستوىً ما من خلال التفكير القليل رغم كلامهم الكثير، ومن خلال العمل

القليل رغم رغبتهم الكبيرة، ومن خلال بذل القليل رغم أنّهم يريدون الكثير. بطبيعة الحال مهمّتهم صعبةٌ.

لماذا صعبةٌ؟ لا نريد أن نكون في مستوىً عاديٍّ في حياتنا اليوميّة، وألا نكون ذوي دخلٍ عاديٍّ، وألا نعيش في بيتٍ عاديٍّ، باختصار لا نريد أن نعيش حياةً عاديّةً. إذن ينبغي علينا أن نعمل أكثر، وأن نتجاوز عتبة العمل والجهد العاديِّ من أجل الارتقاء فوق المكاسب العاديّة.

إذا كنت تريد الارتقاء إلى قمّة مسيرتك المهنيّة فيجب عليك القيام بأشياء مميّزة عن الجميع. ينبغي أن تعيش عملك بكلّ كيانك. تماماً كما هو الحال بالنسبة للزواج، إذا أردت الاستمرار في زواجك طول العمر ينبغي أن تعيش بيتك وأسرتك وعشقك بكلّ كيانك. إذا كنتَ تريد النجاح في الامتحان عليك تأدية واجب الطالب، والدراسة.

جميعنا لدينا ٢٤ ساعة في اليوم. لكن انظر كيف يصنع البعض الفارق، وكيف يستغل الوقت بشكلٍ فعالٍ أكثر.

٠١ ٦ ٨ ١٢ ١٣ ١٧ ١٨ ٢٤ ساعة

الشكل ١: نظام العمل المتوسط

٠١ ٦ ٨ ١٢ ١٣ ١٧ ١٨ ٢٤ ساعة

الشكل ٢: نظام العمل الفعّال

هناك نظامٌ متوسطٌ للعمل في الشكل الأوّل. أما في الشكل الثاني فهناك نظامُ عملٍ فعّال يريد تحقيق أشياء في الحياة ويركّز على الوصول إلى مستوىً عالٍ.

همّ العمل قليلٌ في ذهن العامل في الشكل الأوّل. يذهب بجسمه إلى العمل، ولا يرافقه عقله في معظم الأحيان. على سبيل المثال، يبدأ العمل في الساعة الثامنة، لكنّه يفعل ما بوسعه كي يصل في التاسعة. الحجج كثيرةٌ. لا يستطيع الاستيقاظ، وهو فوضويٌّ. وحتى إذا وصل محلّ العمل في التاسعة يستغرق انسجامه مع العمل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. وعندما يبدأ العمل يكون وقت طعام الغداء حان. ويتشتّت من جديدٍ عقلُه، الذي لم يكن متأهّباً في الأساس للعمل.

ربما يركّز في العمل بعض الشيء بعد الظهر. لكنّه يكون بشكلٍ عامٍّ متعبٌ من مساء يوم الأمس. لا يستطيع أن يكون منتجاً لأنّ وقته يمضي في الشكوى والتذمّر من كثرة العمل. الترتيب مفقودٌ في ماكينته وورشته وطاولته وحاسوبه. تبدأ اتصالاته الهاتفيّة المسائيّة بعد الساعة الثالثة. كيف سيذهب؟ كيف سيأخذه رفاقه؟ ماذا سيفعلون في المساء؟ أي أنّه يكون في العمل بجسمه لكنه بعيدٌ عنه بعقله. ليس لديه همٌّ ولا سعيٌ إلى القيام بتغيير والمضيّ قدماً وتحقيق التطوّر الشخصيّ. يبدي مقاومةً شديدةً لمثل هذه الجهود في محيطه.

بالنسبة للشخص الثاني لا يوجد تقيّد بالوقت. يمكن أن يذهب بالعمل أو بأفكاره حول العمل إلى البيت في الأحوال الطارئة. قد يذهب وسط النهار من أجل قضاء حوائج المنزل، لكنّه يدرك عمله ومسؤوليته ككلّ

وليس بشكلٍ لحظيٍّ. وقت العمل ليس محدوداً بين ٨-١٢/ ١٣-١٧. يعمل ويفكّر ويطوّر العمل بشكلٍ أقلّ زخماً في بقيّة الأوقات، وباختصارٍ يعيش العمل. يتمسّك بعمله بكلّ كيانه. يطوّر نفسه، ويكون مستعداً من المساء للعمل في اليوم التالي. ينسجم فوراً عندما يصل العمل. يكون أجرى بالأمس صيانة الماكينة التي عمِل عليها، حاسوبه وطاولته وملفاته مرتّبة. لا تكون فترة المساء أيضاً عاديّة بالنسبة لأفراد المجموعة الثانية. فهم يمضونها في عملهم أو في أشغالٍ خاصة. التعلّم المستمرّ والسعي للتطوّر الشخصيّ من الأمور التي لا غنى عنها بالنسبة لهم. وعندما يقومون بذلك لا يهملون أسرهم، لأنهم يستغلّون وقتهم بشكلٍ منظّمٍ.

فإلى أيّ المجموعتين أنت أقرب سواءٌ أكنتَ طالباً أو عاملاً أو مديراً أو أماً أو أباً أو موظفاً أو رجل أعمالٍ أو ما شابه؟

عامل متوسط	عامل نشيط
ليس لديه مخطط للوقت	يدير وقته
يضعف التطوّر الشخصيّ	يطور نفسه بشكلٍ فعّالٍ
في محلّ العمل لكنه ساهٍ عن العمل غالباً	في صميم العمل بكلّ كيانه
ليس مجتهداً بالقدر الكافي	مجتهدٌ
حافز النجاح لديه متوسط	حافزُ النجاح مرتفعٌ
أهدافه متوسطة وأحياناً كبيرة	أهدافه كبيرةٌ
صعب الانسجام مع العمل	سهل الانسجام مع العمل
يتكلّم كثيراً	يتكلّم قليلاً

انشغالاته كثيرة في موقع العمل بأمور خارج العمل.	ينشغل بعمله في بيئة العمل
	يؤدّي عمله أحياناً
يشكو من كلّ شيء	يسعى إلى إيجاد حلول
لديه مبرراتٌ دائماً	لا يلجأ إلى التبرير
عديم الصبر	صبورٌ
الترتيب مفقودٌ في ماكينته وورشته وطاولته وحاسوبه	بيئة عمله مرتّبةٌ

انظر إلى المتزمّت، يريد أن يثقّف الناس

بالأمس فقط بدأ التعلّم واليوم يريد أن يكون معلّماً

روحي البغدادي

رحلة العمق الإنسانيّ

من هو الحارس في محلّ عملك؟
ما هو اسم عامل النظافة الذي ينظّف شارعك ويجمع قمامتك؟
إن كنت طالباً، ما هو اسم المستخدَم العامل في المدرسة التي درست فيها سنوات؟
إن كنت صاحبَ محلّ، ما اسم الصبيّ الذي يحضر الشاي لكَ منذ شهورٍ؟

رحلة التحوّل إلى إنسانٍ مميّزٍ

يمكننا تشبيه العمق الإنسانيّ بعمليّة التحوّل إلى إنسانٍ مميّزٍ أو ماركةٍ مميّزة. هناك الكثير من الماركات المميزة حولنا. نحاول قدر الإمكان الوصول إلى تلك الماركات. هناك رغبتان أساسيّتان في هذا المجال: الأولى هي كسب الاحترام الذي توفّره تلك الماركة، والثانية هي التمتّع بالجودة التي تتعهّد بها تلك الماركة.

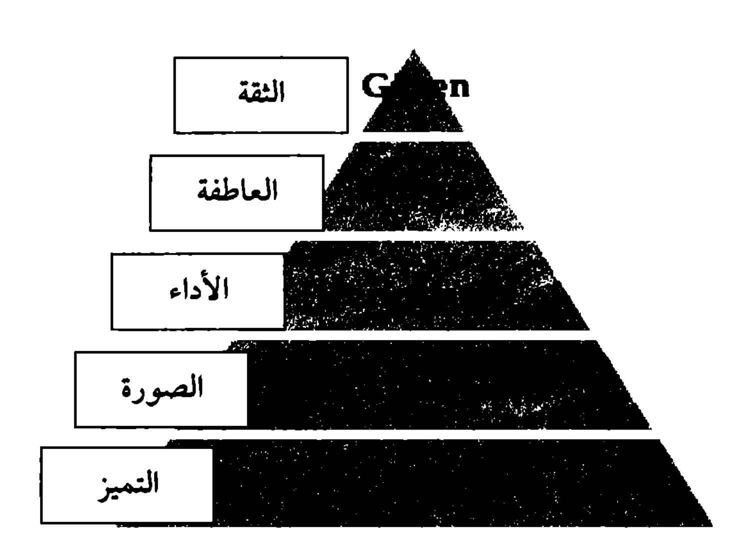
لاحظوا أنّ اختيار الماركة يبدو كأنه رغبتنا في إظهار أنفسنا. عند شراء منتجٍ من ماركة مميّزة تبرز في الواجهة أسبابٌ ماديّة من قبيل جودته وطول عمره. لكنّ الأصل في توجهنا إليه هو حاجتنا لأن نكون معروفين ومختلفين وفي مصافّ الأفراد المتميّزين بفضله.

الأمر المهمّ هنا هو بأيّ الطرق سنحقّق رغبتنا بأن نكون متميّزين. الفكرة الرئيسيّة لهذا الكتاب هي أنّه بإمكاننا الوصول إلى الرغبة بأن نكون

مميّزين ومعروفين من خلال ابتكار قيمةٍ مضافةٍ من أجل الآخرين، وليس عن طريق إشباع غرائزنا.

ينبغي أن يكون أيّ منتج **متميزاً** عن أمثاله من المنتجات. لكن رحلة هذا المنتج كي يصبح ماركةً لا تنتهي بكونه متميّزاً فقط أو بالرغبة أن يكون متميّزاً. يجب تشكيل **صورة** من خلال إظهار هذا التميّز عبر لونٍ وشكلٍ وشعارٍ معيّن. وهذا أيضاً لا يكفي، ينبغي على الخدمة أو المنتج الراغب بأن يكون ماركةً أن يكشف عن قدراته **ويزيد عطاءه**. وهذا أيضاً لا يكفي. يجب أن **ينشئ رباطاً عاطفياً** حتى يحتلّ موقعاً في عقل الشريحة المستهدفة. وأخيراً، يتعيّن أن يتوّج كلّ ذلك ببناء **الثقة**.

تخيّلوا المراحل التي رتبناها من أجل رحلة التحوّل إلى ماركة على شكل هرمٍ. وضعوا أنفسكم مكان المنتج أو الخدمة.



١ - ما الذي يميّزني؟

٢- ما هي صورتي؟

٣- في أي مستوىً أدائي؟

٤- هل يمكنني إنشاء رباطٍ عاطفيٍّ؟

٥- هل يمكنني الإيحاء بالثقة لمن حولي؟

ستعطيك الإجابات الموضوعيّة عن هذه الأسئلة فكرةً عن موقعك في الرحلة كي تصبح إنساناً مميزاً، سواء أكنت طالباً أو أمّاً أو أباً أو مديراً كبيراً أو عاملاً.

إن أصبحتَ إنساناً مميّزاً فستكون مؤثراً على الأشخاص من حولك. إذا كنت شخصيّةً مميزةً فإنك تتميّز بقدر ما يتميّز عريف الصفّ عن أيّ طالبٍ في صفٍّ مكوّنٍ من ثلاثين طالباً. تصبح مؤثراً، وتربط الناس بك من خلال رباط قياديٍّ قويٍّ. تلعب هنا العواطف والثقة دوراً أكبر من الرابط الماديّ هنا.

مهمٌّ هو تفسيركم للحياة بوصفها ساحة إنتاجٍ أو استهلاكٍ في رحلة التحوّل إلى إنسانٍ وأسرةٍ وشركةٍ ومجتمعٍ مميّز.

هل حياتنا ساحةٌ للإنتاجِ أم الاستهلاكِ؟

الأمر المهمّ هو تصوّرنا للحياة. مهما كان عملك أو عمرك أو مستواك التعليمي أو قدرتك الاقتصاديّة، السؤال التالي هو من الأسئلة شديدة الأهميّة بالنسبة لك: هل الحياة ساحة للاستهلاك أم للإنتاج بالنسبة لك؟ أي لماذا مُنحت هذه الحياة؟ للأكل والشرب والتكاثر فحسب؟ أم أنّ هناك واجبات أخرى إلى جانب المطالب التي نريدها لأنفسنا؟ هل نتمكّن من أن نكون

منتجين من أجل الآخرين؟ أو هل لدينا انشغالات أخرى إلى جانب عملنا؟ ماذا نضفي وعلى من؟ ما هو الشيء الناقص الذي نكمله؟ ما الذي نزيده؟ ما هي السلبيات التي نحوّلها إلى إيجابيات؟ كيف وأين ننفق ما نكسبه؟

تكشف إجابات هذه الأسئلة التي يمكن التوسع بها، ما إذا كنا نرى الحياة ساحةً للإنتاج فقط أم ساحةً للاستهلاك فقط؟ إذا كان بمقدور حياتنا أن تصبح ساحة إنتاجٍ فهذا يعني أنّ بإمكاننا التغلّب على فكرة الفرديّة الحديثة. هذا يعني أنّ عمقنا الإنسانيّ يزداد بقدر ما تستطيع حياتنا أن تكون ساحة إنتاجٍ.

لذلك يجب أن نعمل فكرنا من حينٍ لآخر حول السبب الأساسي لوجودنا كبشرٍ. سينقذنا إعمال الفكر هذا من الانشغال بأنفسنا وخدمة أجسادنا فقط. سيوجّهنا إلى خدمة الإنسان والإنسانيّة. هناك من ينشغلون بفرديّتهم ولا يستطيعون التخلّص من هذا الانشغال، وهؤلاء يرون أنفسهم في المركز. وهذا حتى إن جلب منفعةً فرديّةً على المدى القصير إلا أنه يبعد الفرد على المديَين المتوسط والطويل عن برنامجه الخاصّ وقيَمه الخاصّة وعن التركيز على الإنسان.

وهكذا من المهمّ في رحلة العمق الإنسانيّ عدم مخالفة التقاليد والثقافة للإنسان والإنسانيّة على الصعيد المحليّ والعالميّ. وضع القيم الإنسانيّة الكونيّة في عداد ما لا غنى لنا عنه في حياتنا هو مبدأ رئيسيّ في هذه الرحلة.

«نسورٌ تُولَد من جديدٍ»

حياة النسور من أفضل الأمثلة على الطبيعة. النسور أطول الطيور أعماراً، فيمكنها أن تعيش خمسين إلى ستين عاماً. ليس من السهل الوصول إلى هذا

العمر. تصبح النسور مسنّةً دفعةً واحدةً في الخامسة والثلاثين إلى الأربعين. تطول مناقيرها وتضعف رشاقتها، يتساقط ريشها جزئياً. تفقد مخالبها قدرتها على الإمساك، وبالتالي يصبح الطيران كما في السابق حلماً بالنسبة لها.

إمّا أن ينتظر النسر الذي يبلغ الخامسة والثلاثين إلى الأربعين آخر أيّامه أو يبذل الجهد كي يستعيد حيويته. تتطلّب استعادة الحيويّة والعودة للطيران جهداً من النسر على مدى ٦ أشهر. ولهذا يبدأ بالنقر بمنقاره على أقرب صخرة. يعاني من آلام مبرحة، لكن في نهاية المطاف ينتزع منقاره وسط الدماء ويرميه. ثم ينتظر بصبر أن تلتئم جراحه وينمو منقاره الجديد. وبعد الحصول على منقاره الجديد يكون أوّل ما يقوم به نزع مخالبه المسنّة وغير القادرة على الإمساك بالطرائد من مكانها. خلال فترة قصيرة تنمو مخالبه الجديدة، وبواسطتها يبدأ بنتف ريشه.

في نهاية ستة أشهر حافلة بالآلام، يضيف النسر بصبرٍ وعزيمةٍ عمراً إلى عمره من جهة، ويبدأ بالطيران كما كان في سابق عهده من جهة أخرى.

علينا ألا ننسى أنّه ليس بيدنا إطالة أعمارنا لكن ما يمكننا فعله من أجل ذلك ليس بالشيء القليل. حماية صحتنا الجسديّة أمرٌ مهمٌّ، وتتمتّع العناية بصحتنا النفسيّة بنفس القدر من الأهميّة.

في الحقيقة، من الممكن العثور دائماً في الحياة على إمكانيّة الولادة من جديد. من أجل ذلك، يتعيّن على المرء أن يعاني الآلام ويتحلّى بالصبر ويبذل الجهد. يمكننا عدم القيام بأيّ شيء من ذلك والحديث عن انجازاتنا السابقة. يمكن أن تمضي حياتنا ونحن جالسون في مكاننا نشكو من وضعنا الحاليّ ونشتاق إلى قدرتنا على الطيران في سابق عهدنا.

الخيار بيدنا: إمّا أن ننحي باللائمة على الحياة من مكان جلوسنا ونحن نقول: «لماذا أنا في هذا الحال؟»، وإمّا أن نعمل على تحسين أنفسنا وجودتنا.
هذا هو هدف المنظومات العقائديّة. يتحدّث الإسلام عن التقوى أو الإنسان الكامل، والمسيحيّة عن الإنسان الناضج، والكونفوشيوسيّة عن الإنسان الفاضل.

المسألة برمّتها هي زيادة الجودة الإنسانيّة التي من شأنها نقلنا إلى العمق الإنسانيّ.

سؤالٌ صعبٌ: العمق الإنسانيّ

دعونا نختتم هذا القسم بالسؤال الأهمّ والخصائص الرئيسيّة للتطوّر الشخصيّ المؤدّي إلى العمق الإنسانيّ.

أعتقد أنّ ذلك كان قبل خمس أو ست سنوات، كتبتُ مقالةً، طرحتُ في نهايتها أحد أسئلتي الشهيرة. عندما نشرتُ المقالة شغل هذا السؤال الأحاديث كثيراً. بعد ذلك استخدم زملائي في المهنة هذا السؤال المختلف، وبل وتمّ تداوله على شبكة الإنترنت.

سأطرح عليكم مجموعةً من الأسئلة بعد إجراء بضع إضافات. اجيبوا عن السؤال الذي يناسبكم من فضلكم، هذا إذا كانت لديكم إجابةً طبعاً:

«من هو الحارس في محلّ عملك؟ ما هو اسم عامل النظافة الذي ينظّف شارعك ويجمع قمامتك؟ إن كنتَ طالباً، ما هو اسم المستخدَم العامل في المدرسة التي درست فيها سنوات؟ إن كنتَ صاحب محلّ، ما اسم الصبيّ الذي يحضر الشاي لك منذ شهور؟».

لا تتململوا فوراً، كلّ ما عليكم فعله هو كتابة اسم. لكن معظم المشاركين في دوراتنا التدريبيّة يتعثرون أمام هذه الأسئلة.

لا تقولوا ما علاقة هذا بالتطوّر الشخصيّ والعمق الإنسانيّ. فالتطوّر الشخصيّ المؤدّي إلى العمق الإنسانيّ ليس الهرولة من دورةٍ إلى أخرى للتباهي فحسب. وليس التطوّر الشخصيّ الرامي إلى العمق الإنسانيّ بالتأكيد تجميعة وثائق وشهادات مشاركة. *التطوّر الشخصيّ هو تطوّرٌ على الصعيد الإنسانيّ. هو عمليّة تحويل سلبياتنا إلى إيجابيات وأخطائنا إلى أمورٍ حَسَنة. الحصول على معلومات ومهارات ومسؤوليات جديدة وربما أصدقاء جُدد. لا يوجد هنا انشغالٌ فقط بالمنصب والمكانة والدخل وما شابه. هناك في جوهر هذه العمليّة الاهتمام بابتكار قيمةٍ مضافةٍ من أجل الآخرين.*

التطوّر الشخصيّ هو أداء حقّ الوجود في الكون اللامتناهي وامتلاك العقل فضلاً عن الحياة. هو العمل بعزمٍ على البقاء فوق منصّة علميّة في عصرنا الذي يتزايد الجهل فيه بشكلٍ مطّردٍ على الرغم من المعلومة السريعة وزيادة المعلومات التي من شأنها زعزعة العقول. رحلة العمق الإنسانيّ هي في الحقيقة عمليّة وعيٍ. عمليّة تحولٍ دون فقدان الوجود الجوهري. إنّها موقفٌ خارج إطار علاقات المنفعة. وهي الانفتاح على مسؤوليّة العلم. وأخيراً هي مضيّ المرء قدماً في الرحلة ليكون إنساناً.

الخصائص الرئيسيّة للتطوّر الشخصيّ المؤدّي إلى العمق الإنسانيّ

نؤمن بتطوير ذاتنا، ونتحدّث عن فوائده. لكن عندما نأتي إلى التطبيق يرسب معظمنا في الامتحان.

في كلّ عامٍ تقريباً أطرح السؤال التالي على طلاب السنة الثالثة في كليّة الإعلام بجامعة إسطنبول: «هل تؤمنون بالتطوّر الشخصيّ؟». تأتي معظم الإجابات «طبعاً». «إذن ما الذي تفعلونه عملياً من أجل تطوّركم الشخصيّ؟»[1].

باستثناء بضع إجاباتٍ هزيلة، يصمت الجميع. تقتصر الإجابات الواردة أيضاً على قراءة الصحف والمجلات والكتب.

التطوّر الشخصيّ هو عمليّة كسب الإنسان لنفسه. تصوّروا أنّ غاية ومنهج وعمليّة التربيّة والتعليم في جميع المؤسسات التعليميّة يحدّدها دائماً آخرون. *أنت في موقع المتعلّم في مدرسة ابتدائيّة أو متوسطة أو في الدراسات العليا أو المدارس الخاصة أو الخدمة العسكريّة أو الدورات التعليميّة المختلفة وما شابه، آخرون يحدّدون لك الأهداف والعمليات الواجب بلوغها من خلال المنهاج، أيّ التعليم. مع أنّ التطوّر الشخصيّ بأيدينا تماماً. بيدنا تطوير أجندة ومحتوى وبرنامج تعليمنا. أنت من يحدّد مجالات الاهتمام التي تريدها.*

أودّ أن ألفت الانتباه باختصارٍ إلى بعض النقاط الهامة في عمليّة فهم العمق الإنسانيّ والتطوّر الشخصيّ الذي يتيح لنا المضيّ قدماً في هذا الطريق بشكلٍ أفضل وتحويله إلى سلوك.

ينبغي رفع التطوّر الشخصيّ، الذي يستخدم على نطاقٍ واسعٍ لكنّه يعجز عن تجاوز التغيير في المستوى الفيزيولوجيّ والمنطقيّ، إلى مستوى التطوّر

---

١ - إ. فندقجي، التواصل السياسي، ملاحظات من دروس كليّة الإعلام في جامعة إسطنبول، إسطنبول ٢٠١٠.

الروحيّ. ولكي يشتمل التطوّر الشخصيّ على التطوّر المعنويّ للفرد إلى جانب التطوّر الماديّ، ويتحوّل إلى عمقٍ إنسانيٍّ، ستكون الملاحظات التاليّة جديرةً بالاهتمام.

- العمق الإنسانيّ هو بمعنىً ما بلوغ روح العصر الذي تعيشه.
- العمق الإنسانيّ هو السعي لنقل قدراتنا بشكلٍ أكبر إلى ساحة الممارسة.
- التطوّر الشخصيّ هو سعي المرء ليكون الإنسان الذي يتطلّبه عصر المعلومات، ليكون إنساناً يمتلك المعلومات، ويعرف كيف يتعلّم.
- تتكوّن الشريحة الواعية المتقدّمة في عمليّة التطوّر الشخصيّ ممّن يريدون أن يكونوا عربةً قاطرةً وليس مقطورةٍ.
- العمق الإنسانيّ هو بمعنىً ما الانطلاق في رحلة بناء الشخصيّة. والتطوّر الشخصيّ هو الوسيلة التي لا غنى عنها في هذه الرحلة.
- ليست الغاية النظر إلى الوراء عبر المرآة والتقييم المجرّد للماضي، وإنما رؤية ورسم المستقبل.
- الغاية هي التغلّب على التلوّث المعلوماتيّ السريع وضعف المهارات.
- الغاية هي عمليّة صنع الفارق والتحوّل إلى ماركة. هي المضيّ قُدُماً من حقل التفكير إلى صياغة موقف ومنها إلى بلوَرَة سلوك.
- لا مفرّ من التطوّر الشخصيّ من أجل قراءة العالم على أفضل وجه.
- التطوّر الشخصيّ هو الانتقال من أهواء كخدمة «الأنا» والوجود الماديّ ومنح الأوّلويّة للذات إلى حبّ خدمة «الآخر» والتوجّه إلى المجتمع والإسهام في التطوّر الاجتماعيّ. هذا الحبّ يجمعك بالعمق الإنسانيّ.
- العمق الإنسانيّ هو تأدية حقّ إرادتنا سواء بالقليل أم بالكثير.

- العمق الإنسانيّ هو التركيز على الإشباع الروحيّ بقدر الإشباع الفيزيولوجيّ والمنطقيّ للغرائز.
- التطوّر الشخصيّ هو عمليّة «تشبّعٍ» و«نطقٍ»على الصعيد الفكريّ والعاطفيّ والروحيّ، وهو «نضجٌ» بدافع بلوغ العمق الإنسانيّ، في عصرنا الذي انهزمت فيه الكلمات أمام الصور الافتراضيّة.
- ينبغي ألّا يؤدّي النجاح المتحقّق في نهاية التطوّر الشخصيّ إلى الغرور. على العكس، يجب أن يتّجه بالمرء إلى معلوماتٍ ومهاراتٍ جديدة وابتكار أفكار جديدة وتطوّر ثقافيّ وليكون أكثر إنسانيّة، أي إلى العمق الإنسانيّ.
- التطوّر الشخصيّ بأحد جوانبه هو تحمّل مسؤوليّة التعلّم طوال العمر بنشاط.
- هو عمليّة كسب عمقٍ داخليٍّ ضروريّة من أجل الأفراد مهما كانت أعمارهم ومهنهم وجنسهم ومستويات تعليمهم.
- هو نتيجة إيمان وثقة الفرد بنفسه وإمكانيّاته وقدرته على تجاوز العوائق.
- الأفراد الذين لديهم هاجس العمق الإنسانيّ يتّخذهم الآخرون قدوة ويتّبعونهم.
- التطوّر الشخصيّ الرامي للعمق الإنسانيّ هو جهدٌ فرديّ. لكنّه يتجاوز الأهداف الفرديّة المجرّدة على صعيد غايته ومراحله ونتائجه ليتّجه نحو ابتكار قيمة مضافة من أجل المجتمع. وبذلك يكون التطوّر الشخصيّ عمليّة تقديم إسهامات إلى المجتمع من خلال جهدٍ فرديٍّ.

- التطوّر الشخصيّ الرامي للعمق الإنسانيّ هو فرديّ من ناحية الجهد واجتماعيّ من ناحية النتيجة. أي أنه تطوّر من أجل أسرتنا ومجتمعنا وعالمنا بقدر ما هو تطوّر من أجل أنفسنا. وهكذا فإن التطوّر الإنسانيّ يوصلنا للآخرين من خلال العمل على أنفسنا.
- التطوّر الشخصيّ ليس عمليّة صياغة مركزيتنا الذاتيّة وتفوّقنا وندرتنا وضرورتنا. على العكس، هو عمليّة تخلٍّ عن فرديتنا، وكسب قدرات ترمي إلى ترك أثر من أجل الآخرين في عالم الأبد، وتطوّر يحقق استمراريّة العمق الإنسانيّ.

مفتاح التطوّر الاجتماعيّ

نحن في حاجة إلى أجندة تطوّر شخصيّ حقيقيّ يرفع جودة وعيار ديمقراطيتنا ويذهب بنا إلى العمق الإنسانيّ من خلال التخلّي عن الصراعات العقيمة التي تفرّقنا وتبطّئ حركتنا وتعزلنا وتذكي العداوة بيننا.

مفتاح التطوّر الاجتماعيّ: التطوّر الشخصيّ

يقول هذا الكتاب إن التطوّر الشخصيّ، الهادف لبلوغ العمق الإنسانيّ، ليس ولا ينبغي أن يكون من أجل ذات الفرد فقط، كما هي الفكرة المعتادة. على غرار ما أكّدناه في الكثير من صفحات الكتاب، الهدف الأصليّ هو تقديم قيمةٍ مضافةٍ إلى الآخرين. أي أنّ الفرد يبتكر قيمة مضافة من أجل الآخرين عن طريق تطوير نفسه. يسعد تقديم شيء ما للآخرين الفرد من الناحيتين الماديّة والاجتماعيّة.

الإسهام الوحيد الذي يقدّمه الفرد لنفسه هو عدم التعلّق بمستوى السلوك الغريزي، والارتقاء منه إلى المستوى المنطقيّ، ومن ثمّ إلى المستوى الروحيّ. الغاية هي مضيّه قُدُماً على صعيد الفضيلة الإنسانيّة وبلوغه عمقاً إنسانياً يدفعه للوصول إلى قمّة إنسانيّة ناضجة عالية الجودة.

البروفيسور دوغان جوجيل أوغلو، هو واحد من أساتذتنا على المستوى الدوليّ في علم النفس وخصوصاً التطوّر الشخصيّ. يصف جوجيل أوغلو

الأفراد الذين لم يبلغوا النضج العاطفيّ بأنهم بالغون ظلوا أطفالاً نمت أجسادهم[1].

إنتاج قيمة مضافة من أجل الآخرين هوما تقتضيه القيم الإنسانيّة. كما أنّه نقطة وصلت إليها جميع العقائد الدينيّة. فهناك حديثٌ للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم يوجز الموضوع بشكلٍ بليغٍ. «**خير الناس أنفعهم للناس**».

الأسرة هي أوّل محيط خارج ذاتنا. أشرنا في الأقسام الأولى من الكتاب إلى ضرورة نقل المرء حساسيته تجاه الأسرة من سلوكٍ غريزيّ إلى مستوى الانسجام والإشباع المنطقيّ والروحيّ.

الحلقة الثانيّة المحيطة بنا هي دون أدنى شكٍّ المجتمع الذي ننتمي إليه. إنها مكان عملنا، والجمعيّة التي نمتلك عضويّة فيها، ومنظمة المجتمع المدنيّ، والحزب السياسيّ، والأرض التي ولدنا عليها، والثقافة الاجتماعيّة التي نشأنا على أعرافها، وعلَمنا ونشيدنا الوطني ومنظومة معتقداتنا.. هي باختصارٍ بلدنا، وطننا الذي نفتخر بالولادة على أراضيه، ونرتبط بشوق بترابه وأحجاره، ونحتضنه ونضحّي بأنفسنا في سبيله عندما يقتضي الأمر.

العالم هو الحلقة الثالثة. يجب علينا أن نتطوّر ونتعمّق من أجل الإنسانيّة وعالمنا الذي تطوّرت فيه إمكانيات التواصل والتفاعل إلى أبعد الحدود وأصبح صغيراً تسوده العولمة.

ربما سيبدو الأمر لكم غريباً. قد يُقال: ما العلاقة بين التطوّر الشخصيّ المؤدي إلى العمق الإنسانيّ وبين التطوّر الاجتماعيّ. العلاقة هي على النحو التالي:

---

١ – د. جوجيل أوغلو، بالغون ظلوا أطفالا، منشورات دار رمزي، إسطنبول ٢٠٠١.

نرى في التكرار فائدة. نعتبر التطوّر الشخصيّ في عمليّة إنتاج الفرد قيمة مضافة من أجل أسرته وبلده والعالم، وليس لنفسه فحسب. لذلك فإن هناك هدفٌ هامٌّ للتطوّر الشخصيّ وهو الوصول إلى عمقٍ ونضوجٍ وأداءٍ شخصيٍّ قادرٍ على أداء دَيننا تجاه التراب الذي ولدنا عليه والمجتمع الذي أنشأنا. وهكذا يصبح التطوّر الشخصيّ والعمق الإنسانيّ مفتاح التطوّر الاجتماعيّ. هناك بعض القصور والخلل في مراحل التطوّر الشخصيّ لدينا كأفراد إلى درجة أننا لم ننجح كمجتمع في تجاوز بعض القضايا الرئيسيّة حتى الآن.

لا تنسوا أننا أنشأنا الكثير من الدول على مرّ التاريخ العالميّ. أسّسنا الدولة العثمانيّة التي حكمت ثلاث قارات. دولة حكمت بفرمان يكتبه سلطانها بلداناً وولايات ومجتمعات على بعد آلاف الكيلومترات. دولة لم تدخل فيها الأديان واللغات والثقافات في سباق لممارسة ضغوط تسحق بعضها البعض. يصعب تحقيق ذلك حتى في بلدة في عصرنا الذي تطوّرت فيه كثيراً وسائل التواصل والمواصلات.

وقع القادة في صراع فيما بينهم، وضايق الناس بعضهم البعض. لم تتوقف الأنشطة الهدّامة القادمة من الخارج. والأهم من ذلك ربما أننا أصبحنا بعيدين عن التطوّر العلميّ من جهة ولم تعد تعجبنا ثقافتنا من جهةٍ أخرى فابتعدنا عن أنفسنا، وهكذا قضينا على الدولة العثمانيّة نفسها.

لكن أهل بلدنا دافعوا عن تراب الوطن الذي وقعت كل أنحائه تحت الاحتلال، بعزيمةٍ وكفاحٍ يندر مثيلهما في العالم. وناضل شعبنا بقيادة مصطفى كمال مضحّياً بأرواحه في جناق قلعة وإزمير وأرضروم، وباختصار في كلّ شبرٍ من تراب الوطن.

نتيجة هذا الكفاح تأسست الجمهوريّة التركيّة الفتيّة، وكان أعضاء أوّل برلمان لها ممثلين قادمين من كلّ أنحاء البلد. جمع أصحاب الإرادة القويّة الذين أنشأوا الجمهوريّة بحسٍّ وطنيٍّ، ما بين الماضي المجيد وهدف تحقيق مستقبل مشترك.

أهميّة وجودنا ووحدة صفّنا

يمكننا القول إننا قطعنا أشواطاً هامّة على طريق التحوّل إلى مجتمعٍ أصبح العالم يتحدث عنه منذ تأسيس الجمهوريّة، وعلى الخصوص بعد تسعينيات القرن الماضي.

ربما يكون ترسيخ وتبنّي الديمقراطيّة الموضوع الواجب علينا أن نتقدم فيه بأسرع ما يمكن. لو أننا استطعنا توحيد القيم الديمقراطيّة مع قيم الجمهوريّة منذ تأسيس دولتنا لكان بإمكاننا أن نتقدم بشكلٍ أكبرَ. لا أعرف لماذا نقدّم بإصرارٍ صورةً عن تركيا نضايق فيها بعضنا البعض ونهمّش بعضنا، في كلّ فترةٍ يكتسب التطوّر الاجتماعيّ فيها زخماً. نضايق بعضنا البعض أحياناً عوضاً عن الاشتغال بتأهيل أنفسنا وفعل وإنتاج شيءٍ من أجل هذا البلد، وهذا ما يضعّفنا ويستهلك طاقاتنا نحن والآخرين على حدٍّ سواء.

يتوجّب علينا أن نتخلى حقاً عن مضايقة بعضنا والتركيز على تطوّرنا معاً. يتعيّن علينا تقبّل بعضنا البعض بشكلٍ أكبر مهما كان عملنا وموقعنا ومستوانا التعليمي، والتصرّف بتسامحٍ أكبر فيما بيننا. نعيش براحة بالٍ ونتطوّر بقدر ما نحافظ على وجودنا ووحدة صفنا.

يظهر التطوّر الشخصيّ والعمق الإنسانيّ أمامنا من جديد في هذه النقطة بالضبط. ما أودّ قوله هو أنّ هناك هدفٌ شديدُ الأهميّةِ للتطوّر الشخصيّ، يتمثل في تطوّرنا من أجل بلدنا ومجتمعنا وشعبنا. سيحمل العمق الإنسانيّ نضجاً يتيح لنا القدرة على النظر من موقع الآخر أيضاً وليس من موقعنا فحسب.

ينبغي علينا أن نبلغ تطوّراً شخصيّاً يجعلنا ندع اعتبار ثقافاتنا وفوارقنا المحليّة عنصر تفرقة وليس ثراء، وعمقاً إنسانياً يجعل من التسامح غير المشروط عادةً لدينا.

يجب علينا التغلّب بشكلٍ عاجلٍ على مضايقة - أو دفعنا لمضايقة- بعضنا البعض، وهو ما أصبح مشكلةً مزمنةً في مجتمعنا. يتعيّن علينا ترسيخ وتبنّي وعينا الوطنيّ تحت سقف مواطنة الجمهوريّة التركيّة دون الانجرار وراء أيّ عقدة أو تهديدات لا مبرّر لها أو صراعات داخليّة. علينا أن نتقبل بعضنا كما نحن دون السّعي لجعل بعضنا متماثلين. علينا أن نعتبر الفوارق بيننا ملاطاً لوحدتنا الوطنيّة.

كتبتُ هذه السطور في مدينة نيويورك التي قدمتُ إليها من أجل إلقاء محاضرة بعنوان «الأزمة الإنسانيّة والقيادة الخادمة». هذا البلد الضخم ذو التاريخ القصير هو سيّد العالم والقوّة الاقتصاديّة والعسكريّة الأولى فيه. تنظر إلى المجتمع وتشاهد الأخبار فتجد أنّ أحداً لا يضايق الآخر، وليس هناك من يتطاول على وحدة وتماسك الدولة. لا يوجد صراعٌ عرقيٌّ في المجتمع المكوّن من ثقافاتٍ فرعيّة مختلفة كثيراً. هناك تسامحٌ لا محدود، لا أحد يتدخّل في معتقد الآخر. القوانينُ واضحةٌ حتى وإن كانت قوانين المرور البسيطة. الجميع يلتزم بهذه القوانين. نظامُ الدولة تحت أمر وفي خدمة الناس. وأولويّة العبور للمواطن وليس للدولة.

علينا أن نطرح السؤال أولاً على أنفسنا، لماذا لا ننجح نحن؟ أو كيف يمكننا النجاح بسرعة؟

يتوجّب علينا أن نحترم كافة قِيَم مجتمعنا، شرطَ ألا نقع في خلافٍ مع القيم الإنسانيّة الكونيّة والفهم الأخلاقيّ. يمكننا أن نكون أقرب وأميَل إلى أيّ ثقافة فرعيّة أو عرف أو فكر سياسيّ أو معتقدّ، هذا أمر طبيعيّ. لكن ليس من الصواب أن ننتظر هذا التوجه من الكل، وأن نجعل الجميع متماثلين.

ينبغي أن يكون ترسيخ واستدامة الأمن والاستقرار مجالاً هاماً للتطوّر الشخصيّ بالنسبة لنا كمواطنين. سواءٌ أكنا طلبة أو أمهات أو آباء أو عاملين، من المهمّ أن نبذل جهداً فعالاً من أجل تطوير المعايير الديمقراطيّة. علينا أن نطوّر التسامح من خلال وضع أنفسنا مكان من نسميهم الآخرين، وألّا ننتهك حقوق الإنسان. علينا ألّا ننسى حتميّة بذل الجهد لتحقيق تطوّرٍ شخصيٍّ فعّالٍ يسهم في بلوغ مستوى الحضارة المعاصرة.

علينا ألّا نجبر الدولة، التي ينبغي عليها احتضان الجميع، على أن تكون طرفاً في سبيل تحقيق أهدافنا الفرديّة وتوطيد مصالحنا.

الإنسان المتطوّر يعني مجتمعاً متطوّراً

لنضرب مثلاً بسيطاً. حتى سلوكنا كمواطنين في حركة المرور هو ساحة في غاية الأهميّة للتطوّر الشخصيّ. حقيقةً ألاحظ هذا الفارق بشكلٍ بارزٍ عندما أسافر خارج البلاد. على سبيل المثال، قد نكون في حالةٍ جيّدة جداً بالمقارنة مع بعض البلدان، لكنّنا متأخّرين كثيراً بالمقارنة مع البلدان الغربيّة. يمكن توسيع هذا المثال البسيط ليشمل كل مناحي الحياة:

ينبغي ألا ننسى بأنّ الدول الراقية والمتقدّمة والمتطوّرة هي من نتاج أناس راقين ومتقدّمين ومتطوّرين. والمجتمعات المتطوّرة هي نتاج أناس متطوّرين.

هناك حاجة إلى انسجامٍ أكبر بين دولتنا التي تأسست بكفاحٍ عز نظيره وشعبنا الذي أسسها، وإلى تقبّل بعضنا البعض دون شروطٍ مسبقة، في سبيل تحقيق هذا الانسجام.

وبالمناسبة، أودّ مشاطرتكم إحدى تجاربي لعلاقتها بهذا الموضوع. أوردتُ في كتاب «القيادة الخادمة» قصيدتين إحداهما لنجيب فاضل قصاكوريك والأخرى لناظم حكمت. عددٌ قليل جداً من الأشخاص أعربوا عن موقفٍ إيجابيّ إزاء ذلك، بينما تلقّيت انتقاداً من الكثير من الأشخاص. بل إنّ بعض الأصدقاء غضب. تساءل جزءٌ من المنتقدين لماذا أوردت قصيدة نجيب فاضل، والجزء الآخر عن سبب إيراد قصيدة ناظم حكمت.

ينبغي علينا من الآن فصاعداً تجاوز هذه العُقَد. كلاهما يشكّل ثروة لهذا المجتمع، على غرار مولانا ويونس إمرة والحاج بكتاش ولي. من الممكن أن نشعر بأنفسنا أقرب لأحدهم. لكن ينبغي ألّا يكون هذا القرب سبباً في تجاهل الآخر. نحن في حاجة إلى تطوّر شخصيّ حقيقيّ يرفع جودة وعيار ديمقراطيتنا ويذهب بنا إلى العمق الإنسانيّ من خلال التخلّي عن الصراعات العقيمة التي تفرقنا وتبطّئ حركتنا وتعزلنا وتذكي العداوة بيننا.

أودّ مشاطرتكم قصّةً معروفةً. يطلب مدرّسٌ من طلّابه أن يكتبوا أسماء عجائب الدنيا السبع. يكتب أحمد اثنتان أو ثلاث منها ثم ينظر إلى المدرّس وهو يفكّر. يقول المدرس: «يبدو أن أسماء بعضها لم تتبادر إلى ذهنك يا بنيّ. إنها عجائب الدنيا السبع التي نعرفها». يضيف أحمد واحدة أو اثنتان أخريان. بعد ذلك يطلب المدرس من أحمد أولاً أن يقرأ ما كتبه. عجائب الدنيا السبع

بالنسبة لأحمد هي التالية: «١- الجمهوريّة التركيّة، ٢- عَلَمي، ٣- وطني، ٤- ديني، ٥- طبعاً أتاتورك». نعم، ينبغي ألا نجعل من الحساسيات الاجتماعيّة المتشرّبة حتى النخاع في شعبنا صغيره وكبيره موضع نقاش.

كما أوضح إنجلز في كتابه «دور العنف في التاريخ»، هناك في ماضي كلّ مجتمع صعوبات ومشقّات وظلمات[1]. ربما يتوجّب النظر إليها وكأنها عمليّة تكوّن المجتمع. *لا يمكننا النظر إلى الأمام ونحن ندافع عن وجهات نظر ومواقف وآراء العشرينات والخمسينات والثمانينات. تتمتّع جميع الأحداث واللاعبين والمنعطفات المحفورة في ذاكرتنا الجمعيّة بأهميّةٍ شديدة وقيمة كبيرة بالنسبة لنا اليوم. لكن يتعيّن علينا أن نعتبرها جميعاً أساساً وخلفيّة أتاحت بلوغ حاضرنا. المهمّ في الأمر هو أن نحقق ما يقتضيه عصر المعلومات الحاليّ من مفاهيم جديدة وانفتاحات وديمقراطيّة أعلى جودة وفوقيّة القانون وسيادة الأمة وثقافة النقاش.*

خلال دراسة أجريتُها مع أصدقاء إنكليز قبل سنوات، أثبتُّ أنّ الثقافة الجماعيّة في تركيا متنوّعة جداً ومنفتحة على التطوّر في الأساس[2].

لهذا يتوجّب علينا أن نفهم القيم الإنسانيّة على أنها فوق كلّ عرقٍ ومعتقدٍ ومذهبٍ وإيديولوجيّة وفصلٍ طبقيّ. عندما ننجح في كلّ ذلك دون الإضرار بالقيم الأساسيّة التي صنعت هذا البلد، يمكننا أن نقضي على فوارق الإدراك بيننا.

١- ف. إنجلز، دور العنف في التاريخ، منشورات اليسار، (ترجمة سيهان أردوغدو)، إسطنبول ١٩٩٢.

٢- إلهامي فندقجي، بي. فلتشر، إف. جونز، The Cultural Audit: Turkish Version. University of Hertfordshire. London 1995.

الفدائيّون

العمق الإنسانيّ هو تكريسٌ للنفس، تكريسٌ تغيب معه ذاتكم وطموحاتكم الماديّة وحاجتكم للمكانة الاجتماعيّة وأهواؤكم من قبيل المجد والشرف والشهرة وغرائزكم، في سبيل أسرتكم وعملكم وبلدكم وربما في سبيل الإنسانيّة.. الفدائيون هم خيرُ مثالٍ على هذا التكريس.

أودّ الحديث عن موقفٍ ذو عمقٍ إنسانيٍّ يثير القشعريرة في بدني كلّما تبادر إلى ذهني.

زرنا مع مجموعة من الأصدقاء متحف إسطنبول ١٤٥٣ البانوراميّ، برفقة العزيز على قلبي نوزات بايهان المدير العام لشركة الثقافة التابعة لبلديّة إسطنبول الكبرى. افتُتح المتحف عام ٢٠٠٩ ويقع مقابل أسوار طوب قابي وأدرنة قابي حيث كان حصار إسطنبول. يجعلكم المتحف تعيشون لحظات فتح المدينة من جديد.

تجولنا ليلاً في المتحف. على الرغم من وجودكم في مكان مغلق إلا أنكم تشعرون وكأنكم في الخارج، وهذا يصعّب فجأةً من انسجامكم مع المحيط. عندما تصعدون إلى المتحف المصمّم على شكل نصف كرة قطرها ٣٨ متراً تشعرون بأنفسكم فجأةً وسط الحصار. قرع طبول الجوقة العسكريّة ودويّ المدافع المتتالي والزيت المغليّ المسكوب من أعلى الأسوار والقادة الذين يصدرون الأوامر، والجنود الذين يتسلّقون الأسوار ونداءات «الله الله» التي تخترق عنان السماء.. رُسمت صور حوالي عشرة آلاف شخصٍ على الجدران البالغ ارتفاعها ستة أمتار للكرة المحيطة بكم من ٣٦٠ درجة.

نأتي الآن إلى العمق الإنسانيّ الكائن وسط هذه الحرب. في الحقيقة، كلّ لقطة من هذه اللوحة العظيمة تتضمّن عمقاً حقيقيّاً مختلفاً في تلك الفترة. لكن هناك مجموعة من الناس في مقدمة الصفوف على الجبهة، يلفتون الأنظار بوقفتهم وشعورهم وثيابهم. جزءٌ منهم ولج إلى الداخل عبر التصدعات في الأسوار، وجزءٌ منهم كان قد سقط شهيداً منذ مدة، والجزء الثالث يقاتل بكلّ حماس. لم يكن هؤلاء يرتدون زيّاً عسكرياً. يبدون كأشخاص عاديين، لم يكن لهم شعرٌ ولا لحى ولا شوارب. بل إنهم كانوا حليقي الرأس تماماً إلا من خصلة شعرٍ طويلة في الوراء تماماً. ربطوا بخيط هذه الخصلة البالغ طولها شبراً، والتي تسميها النساء «ذنب الحصان».

سألنا المدير العام الناجح في إدارة المتحف البانورامي: «من هؤلاء؟». لنستمع إلى الإجابة منه: «إنهم الفدائيّون. هم جنود متطوّعون يكونون في مقدمة الصفوف في الحرب. كرّسوا أنفسهم لهذه القضيّة. وكأنهم جاؤوا إلى الموت والاستشهاد. إنهم الجنود المتطوعون لتنفيذ أخطر المهام. هدفهم الوحيد هو اختراق أسوار القلعة والولوج إلى الداخل والقتال حتى الموت».

سألناه مجدداً: «لماذا ملابسهم خفيفة هكذا؟».

فأجاب: «يأتي الفدائيون مستعدين للموت لأنهم ينشدون الشهادة. يفضلون بشكلٍ عامٍ ارتداء ملابس خفيفة شبيهة بالكفن الأبيض».

عدنا للسؤال: «لماذا شعرهم هكذا؟».

رد قائلاً: «لا يريدون أن يلمس العدو أجسادهم قدر الإمكان عندما يصبحون وجهاً لوجه معه. الاحتمال كبير جداً بأن يسقطوا شهداء لأنهم يقاتلون في الصفوف الأولى على الجبهة. فهم يطيلون شعرهم هكذا حتى

يتمكن العدو من الإمساك برؤوسهم من هناك وقطعها بسهولة، أي من أجل تسهيل مهمة العدو.. لا يريدون أن يستشهدوا وقد لمسهم العدو..».

أصدقائي الأعزاء، إذا كنتم مؤمنين وإذا ولج الإيمان قلوبكم إلى هذا الحد، دعكم من إسطنبول، هل يوجد مكانٌ يستعصي عليكم فتحه؟

ما أروع السلطان محمد الفاتح وما أعظمه من قائد..

هناك الكثير من الأمثلة على هذا المشهد في تاريخنا. يبدو من الصعب اليوم أن ندرك ونبلغ هذا العمق، لكن ليس الأمر مستحيلاً. هذا عمقٌ إنسانيّ ليس فيه تلك المصالح الماديّة التي أصبحت أمراً مألوفا في الحاضر. هذا ليس علاقة جنسيّة تربط بين الناس، إنه عمقٌ ينساب من القلب إلى القلب ويربط بين الناس بعروة وثقى ويصلح ذات بينهم.

بالمناسبة، أقترح عليكم زيارة المتحف البانوراميّ في وقت قريب. يمكنكم أن تكتشفوا هناك رسوماً مختلفةً أكثر.

ألديكم مرثيّة تنشدونها؟

حضرتُ «ليلة إحياء ذكرى شهداء صاري قامش»، التي أقامها مطرب الموسيقى الشعبيّة التركيّة رجب أرغول، بدعم من البروفيسور بينغور سونماز. كان عرضاً تأثرتُ وفكرتُ به كثيراً واغرورقت عيناي فيه واستمتعتُ به.

هناك دروس هامة نستخلصها كما فعلنا في الماضي، من أجل حاضرنا ومستقبلنا من استشهاد الآلاف من أبناء الوطن جاؤوا من مختلف أنحاء البلد، وقضوا برداً دون أن يطلقوا رصاصةً واحدةً.

صديقي (وقريبي الحبيب) رجب أرغول جعلها ليلةً لا تُنسى عبر حفله المكوّن من أغانٍ ومرثيّات حول صاري قامش.

سكب شعب الأناضول مشاعره وأفكاره وآلامه وهمومه وأفراحه في كلمات وزيّنها بألحانٍ وغنّاها من فاهٍ إلى آخر.

إن لم نرثِ من ضحّى بنفسه عن طيب خاطر من أجل الآخرين وفي سبيل وطنه وعلمه وأذانه فماذا عسانا نفعل؟ أثبت شعب الأناضول الطيّب وجوده على الرغم من كل الفقر والحرمان. بذل روحه مدافعاً عن الأراضي التي يعتبرها وطنه. هل اقتصر الأمر على صاري قامش؟ لا، ترون مشاهد مشابهة في كلّ مكان وكلّ جبهة، في جناق قلعة وإزمير وأفيون..

لنصغِ إلى حكاية سمعتُها من رجب أرغول، الذي كرّس حياته للمرثيّات والأغاني الشعبيّة. حكاية أصبحت أغنية عن شهيدٍ سقط في صاري قامش:

على خصره ربط الخنجر الصدئ
إسطنبوليّ اللهجة أرزينجانيّ الأصل
بموته يفرح الأعداء ويعلن أصحابه الحداد
أخبرني أيها الطبيب هل سأموت؟
هل سأرى «صلة» قبل أن أموت؟
أبلغوا خطيبتي لتهرع إلى جانبي
إن رحلتُ قبل مجيئها فلتُسامحني
وإن متُّ في الغربة فلتبكني أمي
أخبرني أيها الطبيب هل سأموت؟
هل سأرى «صلة» قبل أن أموت؟

يمكننا توقّع الإجابة إذا سألنا الآن عمّا إذا كنتم قد كتبتم مرثيّة. ألديكم مرثيّة تنشدونها؟ أليس هناك في ذاكرتكم كلمات أغنية حزينة من الأناضول؟ وا أسفاه! مع أنّ هناك الكثير ممّا نحفظه في ذاكرتنا. لاعبو كرة القدم والفنانون والألعاب والمسابقات والمسلسلات ومن يدري ماذا أيضاً.. لا اعتراض لنا على كلّ ذلك ولا يمكن أن يكون. لكن من فضلكم لا تبتعدوا عن الثقافة التي تعود لأجدادكم وتحمل آثار وعواطف وخبرات وأتراح وأفراح ماضيكم وليس ماضي مجتمع آخر. لا تكونوا بها جاهلين وعنها غريبين.

وما دمنا قد بدأنا فلنطرح سؤالاً آخر: هناك الكثير من الأشياء العائدة لكم ولأسرتكم في المنزل. فماذا هناك من أشياء تعود إلى التاريخ والثقافة والمعتَقد المشترك للمجتمع في منزلكم؟ على سبيل المثال هل لديكم علم؟ أو مصحف شريف؟ مثلاً هل هناك خنجر أو قبّعة قلباق ورثتموها عن أجدادكم؟ أليس لديكم حتى شجرة للعائلة تشتمل على بضعة أجيال؟

لا تنسوا أنّ المجتمعات تبقى ما بقيت القيم التي تعليها وتحافظ عليها حيّة، وبها تكون حرّة وتتمتع بحقّ الكلام.

في هذه الحالة، ينبغي علينا التطوّر ليس لأنفسنا فحسب، بل من أجل أمّتنا ومجتمعنا وثقافتنا. بذل أجدادنا في الماضي أرواحهم لإقامة هذا الوطن، أفلا يتوجّب أن نعرف تاريخ وثقافة وثوابت هذا الوطن ونتعامل معها بحساسيّة ونحميها؟

ما أجمل مقولة العاشق ويسل:

«تأتي المصائب من التفرقة، القضيّة قضيّة الإنسانيّة».

من الفوارق المحليّة
إلى القيم الوطنيّة

إبداء الاهتمام بالتطوّر الشخصيّ والعمق الإنسانيّ المنصبَّين على خدمة الآخرين هو الترياق من أجل التغلّب على الصراعات على مستوى الفرد والأسرة والمؤسسة والمجتمع. وجود وحقوق الآخر مهمان بقدر وجود وحقوق الفرد نفسه على أقلّ تقدير، فهذه حساسيّة ينقل الفرد بموجبها من القول إلى العمل فضيلة تقديم وجود وحقوق الآخر على وجوده وحقوقه إن أمكن.

علينا تجاوز المخاوف الاجتماعيّة والتعصّب الشديد

تتزايد الأسئلة حول وضع بلدنا بشكلٍ مطّردٍ في استشاراتنا ومحاضراتنا ودوراتنا التدريبيّة. تحتلّ الأحداث على الصعيد الاجتماعيّ مكاناً أكبر في القضايا الراهنة وأجندة الناس. بطبيعة الحال ليست الناحية السياسيّة للأمر من شأننا. *لكن عند النظر من زاوية الانضباط المهنيّ يمكننا القول ببساطة إنّ مجتمعنا قطع أشواطاً في غاية الأهمّيّة خلال الأعوام العشرة الماضية على كافة الصعد تقريباً.*

بصفتي شخصٌ يتجوّل باستمرارٍ داخل وخارج البلد ألاحظ التطوّرات في الكثير من المجالات من الإنتاج إلى الاقتصاد والعلاقات مع الجوار والدور الذي تضطلّع به بلادنا. على الرغم من كلّ هذه التطوّرات الإيجابيّة نرى أنه ما زالت هناك أشواطٌ هامّةٌ يتوجّب علينا قطعها. من المهمّ تبنّي التطوّر الإنسانيّ وحلّ مشكلة البطالة وخصوصاً الديمقراطيّة. فنحن نعلم أنّ مجتمعنا يشهد اليوم بعض التوترات الداخليّة في مستوىً لا يستحقه. والتغلّب على هذه التوترات والتهميشات والاضطرابات والمخاوف المصطنعة هو في الأساس موضوع تطوّرٍ شخصيٍّ شديد الأهميّة.

ينبغي علينا قبل كلّ شيء الابتعاد بشكلٍ عاجلٍ عن عاطفتين من أجل تطوّرنا الاجتماعيّ. الأولى هي مخاوفنا المصطنعة أما الثانيّة فهي أنانيّتنا المتعاظمة.

نعيش في حالة من الخوف تجاه بعضنا البعض منذ العهود الأخيرة للدولة العثمانيّة حتى اليوم. يتواصل هذا الخوف حتى اليوم مع الأسف على الرغم من تغيّر الشكل والأسلوب. نخشى من بعضنا ومن اختلافاتنا. وكأنّ هناك من يبذلون جهداً خاصاً من أجل إدامة هذا الخوف المصطنع الذي نشعر به منذ عشرات السنين.

نتّجه إلى بعضنا البعض بالتفرقة والخلافات المصطنعة لأننا نخاف. لا نتورّع عن أن نكون أطرافاً متعصبين. لا نكتفي أحياناً بالانحياز إلى طرفٍ ما، بل ونهاجم أيضاً سعياً للتدمير. لا نفهم الآخرين ولا نريد فهمهم لأنهم ليسوا منا. وبعد ذلك نهمّشهم بسرعةٍ. تنعكس المخاوف التي تثيرها اختلافاتنا على السياسة والدين والاقتصاد، وباختصار على كافّة مناحي الحياة.

نسعى وراء حماية المكان الذي نحن فيه ربّما من أجل الضغط على مخاوفنا. أي أنّ مخاوفنا المصطنعة تزيد حدّة موقفنا في مجالات الحياة كالسياسة والدين والثقافة، وتحوّلها إلى هواجس. نمنح الذات على المستوى الفرديّ والجماعيّ قيمة أكثر مما يجب، ونصبح أطرافاً صارمين، لا يتراجعون قيد أنملةٍ عمّا يتعلق بحظّ أنفسهم، ولا ينتقلون من «الأنا» إلى «النحن»، ويجدون صعوبة في الاعتراف بحقّ الحياة للغير، ويقضون على الغابة دون أن يروا الشجرة، ويتّجهون للعنف خشيّة فقدان المنصب. بموجز العبارة، تشتدّ حدُّتنا جرّاء عدم تقبّلنا في المجتمع للفوارق بيننا. وتؤدّي الخشية من بعضنا إلى الأنانيّة المتعاظمة والتكبّر.

تصوّروا أننا نزداد حدّة ونغترب ما دام الأتراك والأكراد، والعلويّون والسنّة، والفقراء والأغنياء، واليمينيون واليساريون، والعلمانيون وغير العلمانيين يخافون من بعضهم البعض ولا يتقبّلون بعضهم.. الأدهى من ذلك أننا نهمل الجسد كلّه ولا نراه بدافع لهفتنا على حماية الخليّة التي نوجد فيها. في حين أنّ الكلّ هو الأصل، الكلّ الذي يجمع كافّة الخلايا.

هناك حقيقة وهي أنّ القبول المتبادل لا بدّ منه من أجل الوحدة الاجتماعيّة. لكن هذا لا يعني قبول كلّ أشكال المواقف المتطرّفة التي تلحق الضرر بالمجتمع أو تضرب بالأخلاق الاجتماعيّة عرض الحائط.

من مقتضيات حماية الكلّ عدم التهاون حتماً مع كافّة أشكال الإرهاب والكيانات التي تستهدف وجود الدولة ووحدتها وتماسكها.

ينبغي علينا أن نعتبر هويّاتنا العرقيّة وعاداتنا المحليّة ولغاتنا ولهجاتنا غنىً يتيح تفاهمنا وليس عناصر تفرقة. علينا أن نلتقي على مبدأ الجمهوريّة التركيّة من خلال حماية قيمنا المحليّة.

علينا ألّا ننسى بأنّ التهميش يُلحق الضرر بالنسيج الاجتماعيّ بقدر ما يُلحقه به جعل جميع المواطنين نُسخاً متطابقة. الديمقراطيّة هي اجتماعُ وتعايشُ أناسٍ مختلفين وليس متطابقين. الديمقراطيّة هي فضيلة حماية حقوق الأقليّة أيضاً.

الديمقراطيّة هي التفكير وتشارك الأفكار صراحةً. إسهام الأفكار غير المشتركة في تطوير الفرد والمجتمع يبقى موضع نقاش. علينا ألا ننسى أنّ الأسرة هي مؤسّسة ومجتمع، تتوطّد أرضيّة التعايش ويتطوّر مفهوم الأخوّة فيها كلّما تقبّل أفرادها الاختلافات بينهم.

هل ينعزل ابن بلدنا؟

أسعى للتأكيد في ختام محاضراتي بشكلٍ عامٍّ على وجود مجتمعنا ووحدة صفه. كان معظم الأسئلة في ختام إحدى المحاضرات متعلّقاً بوحدتنا الاجتماعيّة. الأمر المثير للتعجب إلى أبعد الحدود هو أنّ جميع الأسئلة تنصبُّ على ما يجب على الآخرين فعله دون السائلين.

هذه مشكلةٌ هامّةٌ. ننتظر الطموحات والتحسينات والتطوّرات في القضايا الاجتماعيّة من الآخرين دائماً. في حين أنّ التطوّر الشخصيّ هو الشرط المسبق للتطوّر الاجتماعيّ، هو أن نمضي قدماً بأنفسنا قبل الآخرين.

آخر وأهمّ مكسب حقّقه شعب بلدنا هو الجمهوريّة التركيّة التي تأسّست بعد كفاحٍ نموذجيٍّ. لكنّني مضطّر للقول بأسفٍ إنّ صراعاتنا لم تغِب في مجال القيادة الاجتماعيّة منذ تأسيس الجمهوريّة حتى اليوم. هذه الصراعات هي أهمّ العوائق أمام تطوّر أمّتنا. وبنتيجة هذه الصراعات المخطَّط لها من الداخل

والخارج قد يواجه ابن بلدنا مخاطرَ التفرقة والخلافات المصطنعة والانعزال وفقدان نواحي التشابه وإضاعة فضيلة التسامح.

ينبغي علينا أن نولي عنايةً كبيرةً إلى زيادة عدد أفراد شعبنا الذين لم تعمِ مصالحهم الفرديّة بصيرتهم ولم تتبلّد قيمهم الإنسانيّة، ويضعون الحبّ والتسامح المجرّدَين في مركز الحياة ولا يثيرون معضلة الأنانيّة في كلّ مكان، ولم يفقدوا تصالحهم مع أنفسهم. والمجتمع. إبداء الاهتمام بالتطوّر الشخصيّ والعمق الإنسانيّ المنصبّين على خدمة الآخرين هو الترياق من أجل التغلّب على الصراعات على مستوى الفرد والأسرة والمؤسسة والمجتمع. وجود وحقوق الآخر مهمّان بقدر وجود وحقوق الفرد نفسه على أقلّ تقدير، فهذه حساسيّة ينقل الفرد بموجبها من القول إلى العمل فضيلة تقديم وجود وحقوق الآخر على وجوده وحقوقه إن أمكن. نتحدّث هنا عن أهميّة القدرة على فتح قلبنا للآخر وليس عقلنا فحسب.

يلتهم اختلال التوازنات في الفكر- الموقف- السلوك المجتمعات من الداخل. يتوجّب علينا ألا ننسى أبداً ضرورة التغلّب على البنود المذكورة أدناه والتي تنهك مجتمعنا منذ تاريخ قريب حتى اليوم.

- انعدام الثقة
- الخوف من الأخ
- التغرّب
- التعصّب، وتحوّل منحنى الجرس في المجتمع من التحدّب إلى التدبّب
- وقوف الأطراف في مواجهة بعضها أحياناً وتهديد الكلّ
- ضعف القيم الثقافيّة المشتركة
- التركيز على الاختلافات أكثر من أوجه الشبه

- أحكامٌ مسبقة تسحقُ الفكر الحرّ
- الانغلاق على الذات
- الجمود الفكريّ المؤدّي للانعزال وليس الإنتاج
- الأنانيّة المتعاظمة والشخصيّات التي تضع نفسها قبل المنصب
- الإرهاب الذي يرافق كلّ ذلك

من الممكن أن نحمي قيمنا المحليّة من كلّ تفرقةٍ ونديمها ونعتبرها موحدةً وسمات عميقة لكلٍّ واحد منا. وهكذا يمكننا أن ننافس «نحن» أكثر على قيادة العالم.

يتوجّب علينا التأكيد مجدداً على ضرورة وأولويّة وجودنا ووحدة صفّنا كمجتمعٍ. من الضروري توحيد مكتسبات الجمهوريّة مع القيم الديمقراطيّة ومصالحة هذا المزيج مع تقاليد وثقافة ومعتقدات وعادات شعب بلدنا الخالية من التطرّف.

من الفوارق المحلّيّة إلى القيم الوطنيّة

شَهِد كلّ شبر من تراب بلدنا كفاحاً من أجل الوجود. اليوم وبعد مضيّ عشرات السنين نعتقد بتحوّل بلدنا إلى مجتمعٍ يعتمد على نفسه ويلعب دوراً إلى جانب اللاعبين العالميين وله كلمة حاسمة في المنطقة والعالم، ويجعل من التسامح عادةً متّبعةً ويتصرّف من منطلق توحيد أفراده وليس تشتيتهم، وهذا هو الحلم المشترك لشعب بلدنا.

ماذا نفعل كأفراد من أجل هذا الحلم المشترك الذي ينطوي على جوٍّ من الاستقرار الدائم؟ ما هي الأمور التي نبدي أو لا نبدي ردّ فعلٍ تجاهها؟ هل

نضع أنفسنا أو أسرتنا أو شركتنا أو اختلافاتنا المحليّة أمام مصالحنا القوميّة؟ هل نهمل الكلّ جرّاء انشغالنا بالجزء؟

أودّ التذكير مجدداً ببعض المعطيات الاقتصاديّة الأساسيّة وبالأشواط الهامّة التي قطعناها من خلال دورنا المتنامي بشكلٍ مطّردٍ. *بينما يزداد بسرعةٍ متوسّط الدخل الفرديّ وقدرتنا على المنافسة في مجال التصدير والماركات، تتحقّق قفزاتٌ هامّةٌ على صعيد التأمينات الاجتماعيّة والتعليم والصحّة. من جهةٍ أخرى، تحتلّ بلادنا المرتبة السابعة عشرة في ترتيب أكبر الاقتصادات في العالم من خلال موقعها الجيوسياسيّ وكونها ممراً للطاقة وشعبها الشاب وجيشها القويّ ومدارسها التي ترفع علمنا في كلّ أنحاء العالم، ورجال أعمالنا الذين يتمتعون بروح المبادرة وينفّذون المشاريع في الكثير من مدن العالم. ينبغي علينا ألا ننسى أنّ المجتمعات التي لا تقتصر على زيادة الغنى الاقتصادي وتتمكّن من توزيعه على الحاضنة تحتلّ مكانةً هامّةً على صعيد تحقيق السلام الاجتماعيّ.*

لكن ينبغي علينا المضيّ قُدماً على الأخصّ في مجال مكافحة البِطالة ومؤشر التطوّر الإنسانيّ المكوّن من معطياتٍ أساسيّةٍ كالتعليم ومعدّل الدخل الفرديّ ونسبة الطلاب في المدرسة ومعدّل الأعمار[1]. لكن الأهمّ من ذلك هو أنه يتعيّن علينا تحويل السلام الاجتماعيّ والتسامح الذي هو خصلة أصيلة في شعب بلدنا، إلى سلوكٍ وممارسةٍ على نحو أوسع. ولذلك علينا إيجاد حلولٍ اجتماعيّة تستند إلى العقل وليس إلى السلطة المجرّدة،

---

١ - يعد برنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP) مؤشر التنمية البشريّة (Human Development Index) سنويا.

وتطوير الوعي الاجتماعيّ. ينبغي علينا ألا ننسى بأنّ تحقيق كلّ ذلك ممكنٌ من خلال قيادةٍ خادمة وتطوّرٍ شخصيٍّ فعالٍ يهدف إلى العمق الإنسانيّ.

وفي هذا الإطار، هناك حاجةٌ لتبنّي الديمقراطيّة بشكلٍ أكبر، وبذل الجهد والانضباط والسعي والأهمّ من ذلك تكريس النفس لبلوغ متطلّبات عصر المعلومات الحاليّ دون التنازل عن شخصيّتنا الوطنيّة، عوضاً عن إنتاج الأنانيّات الوطنيّة المصطنعة. ولذلك من المهمّ أولاً إيقاف الانهيار في الأسرة والقيم الإنسانيّة التي هي بمثابة توثيقٍ لتكوّن الأمة، وحماية الاستقرار الاجتماعيّ، والتقدّم بعزمٍ في طريق تطوّرٍ شخصيٍّ لا يجعلنا غرباء عن أنفسنا. وفي هذا الإطار، تتمتع بأهميّة كبيرة انفتاحات وخطوات دولتنا من قبيل فتح قناة تلفزيونيّة ناطقة بالكرديّة (تي آر تي شيش) وإعداد حزم اقتصاديّة خاصة من أجل المنطقة الشرقيّة والجنوب شرقيّة، وتسريع مشروع جنوب شرق الأناضول (GAP).

وجودنا رهنٌ بوجودِ الآخرين

من المهمّ أن يكون الانفتاح الديمقراطيّ سياسة الدولة وأن يتّبع طريقاً يجمع الأطياف في خلاصة ديمقراطيّة لا أن يزيد التفرقة. ينبغي ألا تبقى مساعينا كمجتمعٍ لرفع سقفنا في الديمقراطيّة والحضارة المعاصرة أسيرة رغباتنا الفرديّة. *تصوّروا لو أنّ جميع الأفراد دافعوا بحميّة عن مزاياهم وأولويّاتهم هل يمكننا الحديث عندها عن وحدة الصف في أسرة أو مؤسّسة ما؟*

على غرار ذلك، ينبغي على الأفراد ومجموعات المصالح التي يشكّلها الأفراد ومنظّمات المجتمع المدنيّ والأحزاب السياسيّة، وبموجز العبارة على

الجميع أن يمنح الأولويّة لمصالح الكلّ أيّ المجتمع. بهذه الطريقة فقط يمكننا التخلّص من الصراعات الداخليّة والتركيز على مقتضيات العالم الحديث، وقراءة العالم بشكلٍ أفضل.

ماذا نفعل بشكلٍ عامّ كمواطنين عاديين؟ نريد أن تكون أفضليّة المرور لنا في حركة السير. نريد الحصول على المزيد من المال والمناصب. نعتقد بشكلٍ مؤكّد أنّ فكرنا السياسيّ هو أصوب طريق، نقاتل كما يفعل الفريق الرياضيّ الذي نشجّعه. بموجز العبارة تمضي حياتنا في حماية موقعنا الذي نتواجد فيه. لنحمِ موقعنا لكن ليس بشكلٍ أعمى، ولا بتجاهل الآخرين. *علينا ألّا ننسى بأننا موجودون بسبب وجود الآخرين. يصبح الكلّ الذي يضمّنا ذا معنىً بفضل وجود الآخرين. لذلك نحتاج كأفرادٍ إلى حساسيّة كبيرة من أجل التطوّر الاجتماعيّ، وإلى تطوّر شخصيّ من شأنه إيجاد هذه الحساسيّة.*

يتعيّن علينا ألا ننسى أنّ الأهداف الهيكليّة للدولة بصفتها منظّمة اجتماعيّة، وطموحات الشعب الذي هو سبب وجود هذه المنظمة، تلعبُ دوراً حاسماً في الصحة النفسيّة للمجتمع. ليس دور الدول بوصفها منظّمة مركزيّة أن تكون كياناً مترهلاً يعمل على تحديد وتقييد وقولبة حياة الناس. ينبغي أن يكون لها دورٌ في الإرشاد والحماية والتطوير وإتمام الأفراد واحداً واحداً. ينبغي ألّا تغيب عن البال ولو للحظةٍ واحدةٍ حقيقة أنّ **خدمة الشعب** هي سبب وجود الدولة والحكومات التي تديرها.

من الضروريّ أن يوجّه مواطننا مهما كان موقعه طاقاته إلى المزيد من الديمقراطيّة والتطوّر الإنسانيّ والتسامح والإنتاج والعطاء والمنافسة

المستدامة، والتحوّل إلى الإنسان المعرفيّ وإنتاج الفكر والمفاهيم. ومن المهمّ إلى أبعد الحدود أن يتوجّه إلى تأدية حقّ إرادته وأن يكون علامةً مميزةً وأن يبقي على نضارة حبّه لتقديم الخدمة من خلال السعي إلى بناء هذا البلد الجميل الذي يكفي الجميع، وأن يكون متعلماً نشطاً لكلّ ما سبق ذكره، وأخيراً أن يكون مسافراً عاديّاً على درب العمق الإنسانيّ.

زمنٌ مسروقٌ من الموت: الحياة

عند النظر إلى معيشتكم في الماضي هل تتبّنون ما اتخذتموه من قراراتٍ في حياتكم؟ لو أنّكم مُنحتم عمركم من جديد وبدأتم سنواتكم من الصفر ماذا كنتم فاعلين وماذا كنتم مغيّرين في حياتكم؟ أيّ اللقطات كنتم ستطرحونها من حياتكم؟

ألقيتُ محاضرةً في الأيّام الأخيرة من عام ٢٠٠٩ على أئمّة وواعظين. كانت هذه المحاضرة السادسة والعشرين من سلسلةِ محاضراتٍ لدار الإفتاء في المحافظة. بعد كلمةٍ هامةٍ ألقاها مفتي إسطنبول الأستاذ الدكتور مصطفى تشاغرجي، تحدّثنا في موضوع «الأزمة الإنسانيّة والقيادة الخادمة». شارك في المحاضرة نحو ٩٠٠ موظّف، وفي ختامها هنّأني أحد المشاركين وكانت كلماته حافلة بالمغزى:

« ..أستاذ، نسعى للقيام بعملنا على أكملِ وجهٍ. لكن ليتنا حضَرنا مثل هذه الندوات من قبل. لديّ نقصٌ في التطوّر الشخصيّ. وأصبح الوقت ضيقاً. ماذا يمكننا أن نفعل يا ترى؟ ..».

نعم، «الوقت يضيق» أيّها الأصدقاء. تمضي السنون ويضيق الوقت أمام إعادة رحلتنا في الحياة لكن بوجهة نظرٍ جديدةٍ.

حتى ندركَ حقيقة الحياة علينا أن نتصوّرها هي نفسها وما قبلها وما بعدها ككلّ. الحياة نفسها معروفة، فهي فترةٌ زمنيّةٌ تبدأ منذ علامة الحياة

الأولى في بطن الأم حتى نلفظ آخر أنفاسنا. هي فترةُ الحقائق الموضوعيّة والماديّة نعيشها بشكلٍ ملموسٍ وندركُها بحواسنا. من أجل فهم ما قبل وما بعد الحياة نحتاج إلى الخروج من المحسوس وإلى إدراك الزمن المجرّد. لهذا نسعى إلى فهم هاتين المرحلتين من خلال مشاعرنا ومعتقداتنا.

لأننا نقيّم ونحن على قيد الحياة ما قبلها وما بعدها. عكس هذه الحالة غير ممكنٍ في الوقت الراهن. أي أننا نحاول ونحن نعيش فقط فهم وإدراك عالم الأرواح والأبديّة التي تبدأ مع الموت.

في هذه الحالة فإنّ الحياة هي فترةٌ زمنيّةٌ محسوسةٌ محصورةٌ بين فترتين طويلتين ومجرّدتين إلى درجة لا يمكن مقارنتها بهما. أي أنّها فراغ- حياة- فراغ. على غرار ضربات قلب على شاشة، يكون هناك من قبل خط مستقيم غير مفهوم، ثم تأتي حركات ديناميكيّة مرئيّة بالعين نحو الأعلى والأسفل، وبعد ذلك يأتي مجدداً خطٌّ مستقيمٌ غير مفهومٍ. لذلك لا نكون مبالغين إذا وصفنا الحياة بأنها محطة على خط الزمن.



يمكننا أن نرى الحياة بوصفها عالم الحقائق على أنّها لحظةٌ مسروقةٌ من عالم الحقائق المجرّدة. ويمكننا المضيّ قدماً أكثر والقول إنّ الحياة هي فترة عيشٍ مسروقةٌ من الموت.

الوقتُ يَضيق

بما أننا خلفنا ما قبل حياتنا وجزء منها وراءنا فلننظر إذن إلى ما بقي في يدنا وما هو أمامنا. حياة لا نعرف متى تأتي نهايتها ولا ندري ماذا وراءها عندما نلفظ آخر نفس لنا.

الوقت يضيق أيضاً من أجل مساءلةٍ أوّليةٍ عمّا فعلناه حتى اليوم وعمّا يجب أن نفعله من الآن فصاعداً وعمّا سيكون بإمكاننا فعله.

انظروا من فضلكم إلى ما مضى من عمركم. ركّزوا على شخصيّتكم. انظروا من جديدٍ إلى تصرّفاتكم وعلاقاتكم. انظروا إلى أموالكم وممتلكاتكم وعلمكم والقضايا الحسّاسة بالنسبة لكم وأشواقكم وما سعيتم وراءه وما حزنتم لبلوغه وما فرحتم لفقدانه.

لا تنسوا أنّ جزءاً منّا فقط يفهم الحياة ويشعر بها فعلاً، ويتمكّن من تحقيق التوازن بين ما يجب أن يأخذه من الحياة وما يجب أن يعطيه إياها.

عند النظر إلى معيشتكم في الماضي هل تتبنّون ما اتخذتموه من قرارات في حياتكم؟ لو أنّكم مُنحتم عمركم من جديدٍ وبدأتْ سنواتُكم من الصفر ماذا كنتم فاعلين وماذا كنتم مغيّرين في حياتكم؟ أيّ اللقطات كنتم ستطرحونها من حياتكم؟ انظروا إلى إيجابيّاتكم وسلبيّاتكم وتردّداتكم وألوانكم وأعماقكم وخياراتكم، وبموجز العبارة إلى حياتكم ككلّ. انظروا

كي تركّزوا على ما سيكون بإمكانكم تغييره من أجل ما تبقّى من عمركم الذي يُستنفد في كلّ لحظة.

إن كنتم على أيّ حالٍ سعداء ومنسجمين ومطمئنّين ولا تخدعون أنفسكم، فكونوا أسعد وأفضل ولكن الأهمّ من ذلك أن تواصلوا الإنتاج من أجل الآخرين. أمّا إن كانت سعادتكم وراحة بالكم لا تتجاوز حدود ذاتكم فلا بدّ أنّ أمامكم الكثير من العمل من أجل المستقبل.

من أجل إعادةِ بناء المستقبل

نعم، يضيق الوقت وتقتربُ الأيّام القادمة بسرعةٍ. ما هي تحضيراتنا من أجل استقبال هذه الأيام المقبلة؟ ما هو مخطّطنا من أجل مستقبلنا ومن أجل أنفسنا في قادم الأيام؟ *لا تنسوا أنّ ما نعطيه للحياة وليس ما نأخذه منها يبقى معنا.*

علينا ألّا نهمل ولو للحظةٍ واحدةٍ هاجس الإقدام على ما بمقدورنا فعله في حياتنا التي تمضي، من أجل أنفسنا ومحلّ عملنا وأسرتنا والعالم. *أليس هذا الإهمال هو ما يضعنا في مواجهةٍ مع أنفسنا ومع الآخرين؟ أليس عدم تجاوزنا حاجز الأنا هو ما يدفعنا إلى تجاهل وحدتنا ومن نعيش معهم؟ أليس ما يدفعنا إلى الوراء هو صراعاتنا الداخليّة وأطماعنا الشخصيّة وحروب المصالح، والأسوأ من ذلك صعوبة تقبّلنا للآخر التي هي بمثابة خسوف عقلي؟*

نحتاج إلى أن نهزّ أنفسنا وننفض عنها الغبار المصطنع الذي يبعدنا عن بعضنا البعض، مهما كان عملنا ومهنتنا وموقعنا. لا بدّ من زيادة إنتاجنا من

أجل الآخرين حتى نرفع جودة الجزء المتبقّي من حياتنا. لا بدّ من نجاحنا في الوقوف إلى جانب من ليسوا منّا، أكثر من أولئك الذين نعتقد أنّهم منّا.

يتوجّب علينا أن نتجاوز الأجندات الاجتماعيّة المصطنعة ولا ننقلها إلى المستقبل، ففيها تتراكم مشاكل جديدة مع مرور كلّ يوم وهي تجبر قومنا على التخلّي عن الحياديّة. علينا ألّا ننسى أن الصفات الشخصيّة الفرديّة لبعض السياسيّين وأساليبهم المشحونة بالتوتر وهواجسهم قد تصبح أجندة الناس العاديين في المستقبل. يمكن أن يُختزل التوتر الاجتماعيّ بالسلوك اليوميّ للإنسان العاديّ.

لذلك فإن إعادة النظر في أسباب وجود كافة المؤسسات والهيئات من جانب جميع من يعتبرون أنفسهم مكلّفين بتقديم أشياء من أجل المجتمع، وفي طليعتهم السياسيّون والأكاديميّون والمربّون ورجال الدين، ستكون الترياق للإنسانيّة المتناقصة والمشاكل الاجتماعيّة. من الممكن أن نعيد بناء أيام وأشهر وأعوام تحمل مستقبلنا من خلال مواقف شخصيّة لكلّ منّا، هدفها تقديم الخدمة والتمسّك بالعمق الإنسانيّ.



المصادر

- أقيوز يحيى، تاريخ التربيّة التركيّة (الطبعة السادسة عشرة) منشورات بيغيم، أنقرة ٢٠١٠.
- إنجلز فريدريك، دور العنف في التاريخ، منشورات اليسار، (ترجمة سيهان أردوغدو)، إسطنبول ١٩٩٢.
- بالا إسكندر، «من يمكنه القول: نجحت»، الزمان، ٠٢/ ٠٦/ ٢٠٠٩.
- بوزداغ دورموش، «السلطان الحاج بكتاش ولي كمتنور من الأناضول». الزمان، ١٣/ ١٠/ ٢٠٠٩.
- توينج جان إم.، جيل الأنا، منشورات كاكنوس، إسطنبول ٢٠٠٩.
- جوجيل أوغلو دوغان، بالغون ظلوا أطفالا، منشورات دار رمزي، إسطنبول ٢٠٠١.
- دوكمان أوستون، أشياء صغيرة ٢. منشورات سيستم، إسطنبول ٢٠٠٦، ص ٧٩.
- سعدي الشيرازي، غلستان، منشورات بارلتي، إسطنبول ٢٠٠٤.
- فندقجي إلهامي. الشركات العائليّة (الطبعة الثالثة). منشورات ألفا، إسطنبول ٢٠٠٩.
- فندقجي إلهامي، «معضلة الأنا»، ما وراء الخط (مجلة الكليّة الحربيّة البريّة)، أنقرة، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٦.
- فندقجي إلهامي، إدارة الموارد البشريّة، (الطبعة السابعة الموسعة)، منشورات ألفا، إسطنبول ٢٠١٠.
- فندقجي إلهامي، التواصل السياسي، ملاحظات من دروس كليّة الإعلام في جامعة إسطنبول، إسطنبول ٢٠١٠.
- فندقجي إلهامي، تطوير الذات لدى القادة في مجتمع المعلومات، منشورات وقف الثقافة والتربيّة، إسطنبول ١٩٩٦.

- فندقجي إلهامي، رحلة قلب: الزعيم الخادم (الطبعة الثانيّة). منشورات ألفا. إسطنبول ٢٠٠٩.
- فندقجي إلهامي، فلتشر بي.، جونز إف.، .The Cultural Audit: Turkish Version .University of Hertfordshire. London 1995
- كريب إيان، Psychoanalysis. Polity Press. لندن (ما هو التحليل النفسي؟ ترجمة علي قلج أوغلو، منشورات ساي، إسطنبول، ٢٠٠٤).
- ماركيز غابرييل غارسيا، اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة، (ترجمة إينجي كوت)، منشورات ياي، إسطنبول ٢٠٠٩.
- ماسلو أبراهام، نفسيّة الإنسان (ترجمة أوكتان كوندوز)، منشورات كورالديشي. إسطنبول ٢٠٠١.
- ماكليلاند ديفيد سي.، .The Achieving Society. D. Von Nostrand Co، نيوجيرسي ١٩٦١.
- مولانا جلال الدين الرومي، المثنوي (ترجمة ولد إيزبوداق). الكلاسيكيات الإسلاميّة الشرقيّة. منشورات وزارة التربيّة الوطنيّة. أنقرة ١٩٩٠.
- هارتمان هاينز، Ego Psychology and the Problem of Adaptation. Hogarth .Press. لندن ١٩٥٨
- يوسف خاص حاجب، Kutadgu Bilig، (ترجمة رشيد ر. أرات) منشورات TTK، أنقرة ١٩٩١.

فهرس